روائع السيرة

د. عائض القرني

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - تلفاكس: (00961 1) 651327 - 655383 ص.ب: 14/5136 الرمز البريدي 11052020
البريد الإلكتروني: Alrayan@cyberia.net.lb الموقع الإلكتروني: http:/alrayanpub.com

eqa3@ maktoob.com

روائع السيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، **أما بعد**:

فهذا كتاب **(روائـــع السيرة)**، فيه أعظم قصة في تاريخ البشرية؛ هي قصة محمد ﷺ، وأصدق حكـــاية تناقلها السُّـمَّار، وطـافت الأقطار، وعبرت البحار، وامتطت القفار، هي حكاية النبي المختار ﷺ. نبأٌ هزَّ العالَـم، خبرٌ ارتجَّ له الكون، حدثٌ زُلزلت له المعمورة، اتصلت الأرض بالسماء، والفناء بالبقاء، والضعف بالقوة، والفقر بالغنى.

إن محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ هو تاج التاريخ البشري، وعمق المسيرة الإنسانية، وهو المثل الأعلى للعالمين، والأُسوة الحسنة للسالكين، إمام الفضيلة، وقُدوة المُثُل العُليا، ومَضرِب المَثَلِ الراشد، وقِبْلَة القلوب المؤمنة، هو رسول مع أنه بشر، ونبي ولو أنه إنسان، فهو الطهر كله، والخير أوَّله وآخره، والعدل جميعه، لقد أنقذ الله به الخلق من المهالك، وزحزحهم به من المعاطب، وأخرجهم به من الظلمات إلى النور، فصلَّى الله وسلَّم عليه ما هبَّ النسيم، وجرت الريح، وهطل المطر، وتلألأ الضياء، ولمع البرق، وقصف الرعد.

وهذه رواية عن تلك القصة العظيمة التي تناقلها الرواة، وسارت بها الأنباء، وتلقفتها الشفاه، وأطرقت لها الآذان، وانتفعت بها القلوب، فهي بين يديك غضَّةً طريَّةً، تذكرك بأحب إنسان إليك؛ إن كنت مؤمنًا، وأغلى

إمام عندك؛ إن كنت مسلمًا، وأعز أسوة تتبعها؛ إن كنت صادقًا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفَّقنا الله للسّير على منهاج نبيِّه، وحشرنا في زمرته، وجمعنا به في جنته.

د. عائض القرني

توطئة

قصة الرسالة، هي قصة النور الذي بدَّد الظلام، وأضاء الدنيا، ومن الحكمة أن نقف عليها؛ لأنها أعظم قصة عرفها البشر وسجَّلها التاريخ، إنها قصة النبي محمد، والرسول الخاتم، والرحمة المُهداة ﷺ، إنه بحق أحب إنسان إلينا، وأفضل رجل عندنا، وأعظم إمام عرفناه، فهو قدوتنا، وإمامنا، وخيرنا، وسيدنا، رسول الهدى الذي علمنا التوحيد، وزرع في نفوسنا الإيمان، وشرح لنا الإسلام، وعلمنا الطهارة والصلاة والزكاة والحج، وسائر شعائر الدين.

بشرى من الغيب ألقت في فم الغار ... وحيًا وأفضت إلى الدنيا بأسرارِ
بشرى النبوة طافت كالشذى سحرًا ... وأعلنت في الرّبا ميلادَ أنوارِ
وهدهدت (مكةُ) الوسنى أناملها ... وهزت الفجر إيذانًا بإسفارِ
فأقبل الفجر من خلف التلال وفي ... عينيه أسرار عشاقٍ وسمَّارِ
كأنَّ فيضَ السّنى في كلِّ رابيةٍ ... موجٌ وفي كلِّ سفحٍ جدولٌ جاري
تدافع الفجرُ في الدنيا يزفُّ إلى ... تاريخها فجر أجيالٍ وأدهارِ
واستقبل الفتحُ طفلاً في تبسُّمِهِ ... آياتُ بشرى وإيماءاتُ إنذارِ
وشبَّ طفلُ الهدى المنشودُ متَّزِرًا ... بالحقِّ، متشحًا بالنورِ والنارِ
في كفِّهِ شعلةٌ تهدي، وفي فمِهِ ... بشرى، وفي عينهِ إصرارُ أقدارِ
وفي ملامِحِهِ وعدٌ وفي دمِهِ ... بطولةٌ تتحدَّى كلَّ جبَّارِ

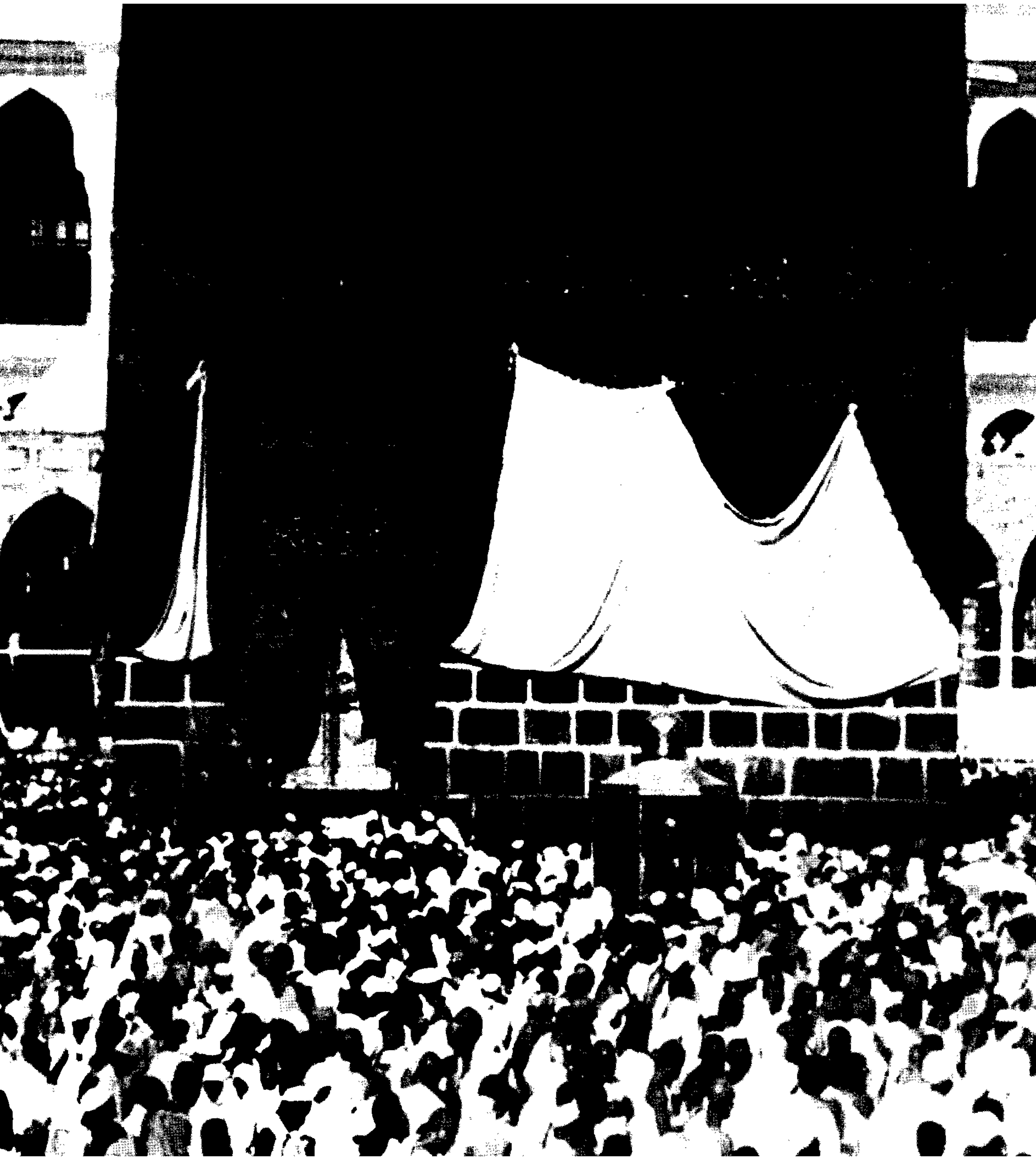

العهد المكيّ

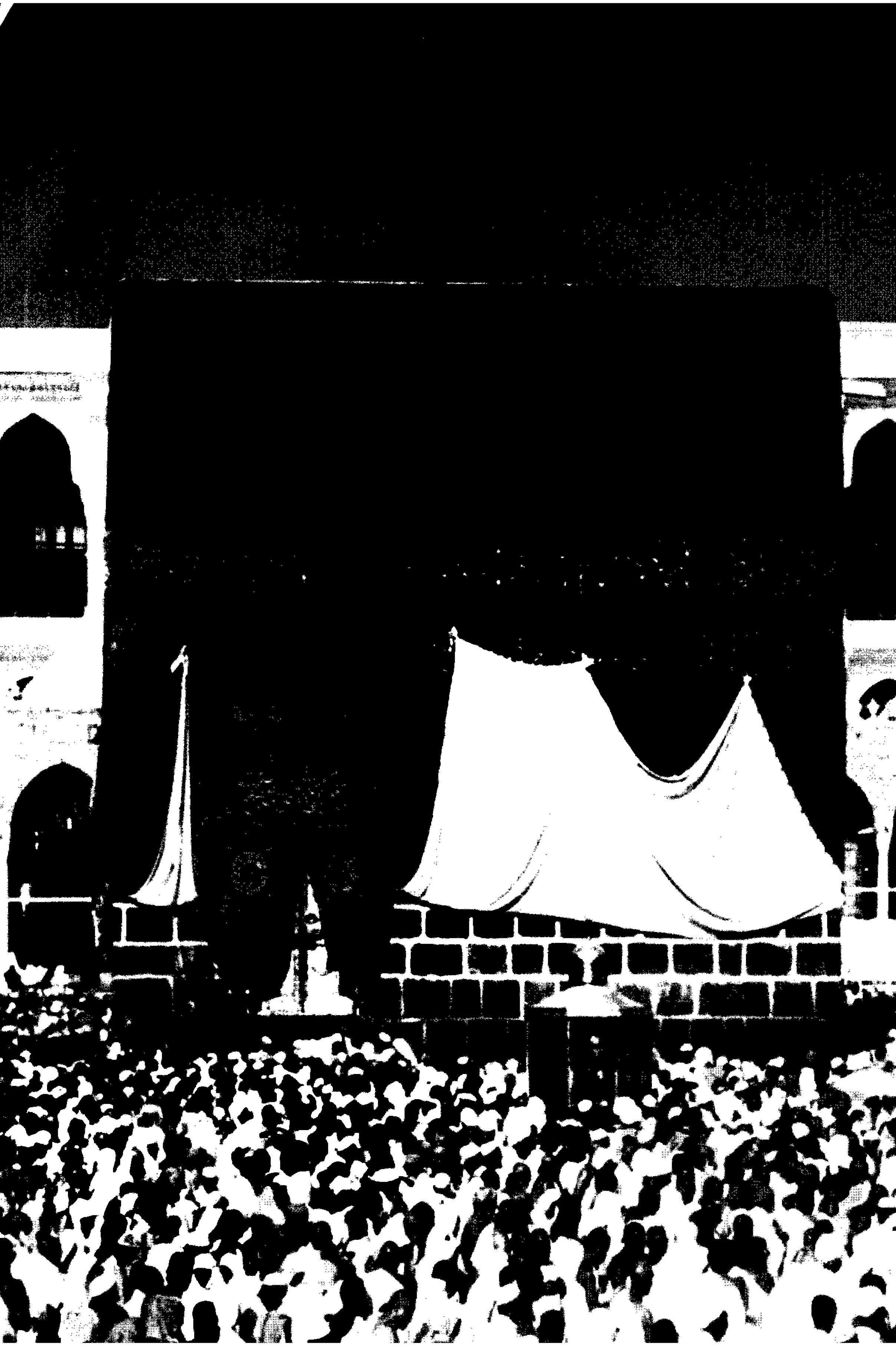

مولد الهدى

في هذا الفصل لنا موعد مع مولد الهدى: الاسم، ومكان الولادة، والسيرة، والنشأة، والصبا، والفتوة.

ذكر نسبه ﷺ:

هو سيد ولد آدم: أبو القاسم، محمد، وأحمد، والماحي الذي يُمحى به الكفر، والحاشر الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدميه، والعاقب الذي ليس بعده نبيٌّ، والمقفِّي، ونبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد منافٍ بن قصيٍّ بن كلابٍ بن مرة ابن كعب بن لؤيٍّ بن غالب بن فِهر بن مالكٍ بن النضر بن كِنانة ابن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان[1][2].

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: فهذا النسب الذي سقناه إلى عدنان لا مرية فيه، ولا نزاع، وهو ثابت بالتواتر والإجماع[3].

وقال الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: إلى ها هنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة، وما فوق «عدنان» مختلف فيه،

---

(١) انظر: «زاد المعاد» (١/٧١)، و «السيرة النبوية» (١/٣٣ ـ ٣٤).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «أنا محمد، وأحمد، والمقفي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة» أخرجه مسلم (رقم ٢٣٥٥).

(٣) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٤٧، ٤٨).

ولا خلاف بينهم أن «عدنان» من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومَن بعدهم[1].

أما الحكمة من اسمه محمد: فهي أن يكون محمودًا في الأرض والسماء، فاسمه في التوراة والإنجيل: أحمد، وفي القرآن: محمد، ولله در حَسَّان حين قال:

وشَقَّ لَهُ مِن اسْمِهِ لِيُجِلَّهُ ... فَذُو العَرْشِ مَحْمُودٌ وَهَذا مُحَمَّدُ

و(محمد) هو الذي جمع صفات الحمد والمدح، بأبي هو وأمي.

مكان الولادة:

فمكة، وهذا أمر معروف، ولكن للحديث أسرار: فمنها:

أن الله اختار هذا البلد ليكون فيه بيته، فبنى إبراهيمُ أرفعَ بيت في الأرض وأشرفه، هو بيت الله الحرام، ومكة أوسط بلاد العالم، وبها أقسم الله سبحانه، فقال تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد: ١، ٢]. فالبلد هو مكة، وقد سمَّاه الله في كتابه: مكة وبكة.

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٢٤﴾ [الفتح: ٢٤].

قال ابن القيم رحمه الله: «ولنرجع إلى المقصود من سيرته ﷺ وهديه وأخلاقه، لا خلاف أنه وُلِد ﷺ بجوف مكة، وأن مولده كان عام الفيل، وكان أمر الفيل تَقْدِمة قدَّمها الله لنبيه وبيته، وإلا فأصحاب الفيل كانوا نصارى أهل كتاب، وكان دينهم خيرًا من دين أهل مكة إذ ذاك؛ لأنهم كانوا عُبَّاد أوثان، فنصرهم الله على أهل الكتاب نصرًا لا صنع للبشر فيه إرهاصًا وتقدمة للنبي ﷺ الذي خرج من مكة، وتعظيمًا للبيت الحرام»[2].

(١) «زاد المعاد» (١/٧١).
(٢) «زاد المعاد» (١/٧٦).

وقال ابن إسحاق: «وُلِد رسول الله ﷺ يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل عام الفيل»[1].

وقال ابن الجوزي: «اتفقوا على أن رسول الله ﷺ وُلِدَ يوم الاثنين في شهر ربيع الأوّل عام الفيل، واختلفوا فيما مضى من ذلك الشهر لولادته على أربعة أقوال: أحدها: أنه وُلِد لليلتين خلتا منه، والثاني لثمان خلون منه، والثالث: لعشر خلون منه، والرابع: لاثنتي عشرة خلت منه»[2].

قصة حمله ﷺ:

فقد حَمَلت به أمه آمنة بنت وهب تسعة أشهر على القول الصحيح، وحدَّثَتْ أنها لم تجد ألم الحمل، ولا مشقته، فلم تشعر بآلام، ولا مرض؛ لأن الذي في بطنها مبارك في الأرض، ومبارك في السماء، مبارك في الدنيا، ومبارك في الآخرة.

قال ابن الجوزي: «روى يزيد بن عبدالله بن وهب بن زمعة عن عمته قالت: كنا نسمع أن آمنة لمَّا حملت برسول الله ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت، ولا وجدت له ثقلاً كما تجد النساء، إلاّ أني أنكرت رفع حيضي، وأتاني آتٍ، وأنا بين النوم واليقظة، فقال: هل شعرت أنكِ حملتِ؟ فكأني أقول: ما أدري. فقال: إنك حملت بسيد هذه الأمة ونبيها، وذلك يوم الاثنين. قالت: فكان ذلك مِمّا يقّن عندي الحمل، فلما دنت ولادتي؛ أتاني ذلك الآتي، فقال: قولي: أعيذه بالواحد الصمد من شر كلّ حاسد»[3].

وقال ابن هشام: «ويزعمون فيما يتحدَّث الناس ـ والله أعلم ـ أن آمنة بنت وهب أم رسول الله ﷺ كانت تحدث:

أنها أُتيت حين حملت برسول الله ﷺ فقيل لها: إنك قد حملت بسيِّد

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢١١).
(٢) «صفة الصفوة» (١/٢٤ ـ ٢٥)، و «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٥٢ ـ ٥٣).
(٣) «صفة الصفوة» (١/٢٣).

هذه الأمة، فإذا وقع إلى الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كلّ حاسد، ثم سمِّيه محمدًا. ورأت حين حملت به أنه خرج منها نور رأت به قصور بصرى، من أرض الشام»[1].

قال ابن إسحاق: وحدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم، ولا أحسبه إلاّ عن خالد بن معدان الكلاعي: «أن نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: يا رسول الله؛ أخبرنا عن نفسك؟ قال: «نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملتْ بي أنه خرج منها نور أضاءت لها قصور الشام»[2].

ومات عبدالله أبو النبي، وما زال النبي ﷺ جنينًا في بطن أمه، مات أبوه لحكمة أرادها الله سبحانه وتعالى؛ لينشأ يتيمًا، ويعيش يتيمًا، وليتعلَّم أيضًا مصارعة الأحداث، ويكتسب الشجاعة ومقاومة عواتي الزمن، مستعينًا بالواحد الأحد. ومن الحِكَم أيضًا: أن يكون في يتمه أسوة للأيتام، وليوقنوا أن اليتم ليس عارًا أو نقمة.

ولدته أمه فكانت تلك الساعة واللحظة ميلاد الهدى، وميلاد العدل، وميلاد السلام، وميلاد الحق والنور:

وُلِدَ الهدى فالكائنات ضياءُ وفَمُ الزمان تبسُّمٌ وثناءُ

ولكن كيف وُلِد؟ وكيف كانت اللحظة التي نزل فيها من بطن أمه إلى الأرض؟

لم يقع كما يقع الأطفال!

قال أهل السِّيَر؛ كصاحب (الروض الأنف) وغيره: وقع معتمدًا على يده، قابضًا يده على الأرض، رافعًا رأسه إلى السماء، مادًّا سبَّابته كالمُسَبِّح.

(1) «السيرة النبوية» (1/210).

(2) «السيرة النبوية» (1/219 ـ 220)، والحديث أخرجه أحمد (4/127 ـ 128)، و«الحاكم» (5/262)، وصححه، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الهيثمي في «المجمع» (8/222).

قال ابن الجوزي: «وروى محمد بن سعد عن جماعة من أهل العلم: أن آمنة قالت: لقد علقت به، فما وجدت له مشقة، وأنه لما فصل عنها خرج له نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، ووقع إلى الأرض معتمدًا على يديه».

وقال عكرمة: «لمَّا ولدته وضعته برمةٍ فانقلعت عنه، قالت: فنظرت إليه فإذا هو قد شقَّ بصره ينظر إلى السماء».

وقال العباس بن عبد المطلب: «وُلِدَ رسول الله ﷺ مختونًا مسرورًا، فأعجب ذلك عبد المطلب، وحظي عنده، وقال: ليكونن لابني هذا شأن من شأن، فكان له شأن»(1).

هذا هو رجل العالَم، وأفضل خلق الله، صاحب الحوض والشفاعة، والمقام المحمود، واللواء المعقود، وقع ﷺ رافعًا رأسه إلى السماء، طفل وليد يمدّ أصبعه بالتوحيد؛ لأنه هو الذي أتى بالتوحيد، هذه اللحظة الأولى. وولد أيضًا مسرورًا مختونًا. والمسرور: الذي قطع سِرُّه، والمختون: أي الذي قطعت غرلته. ولد طاهرًا نظيفًا طيبًا مطيبًا مباركًا، فلم يختنه ختان، ولم يتدخل طبيب، وقد أراد الله لهذه البشرية خيرًا بمولد هذا الإمام الأعظم حتى قال الشاعر:

إن البرية يومَ مبعثِ أحمدِ ... نظر الإله لها فبدَّلَ حالَها
بل كرَّم الإنسان حين اختار من ... خير البريَّة نجمَها وهلالَها

بل لقد كرَّم الله الإنسانية حين اختار لها من خير البرية أعظمها، وأفضلها، فهو بمثابة نجمها وهلالها، أضاء الدنيا بعد ظلامها، وهدى الحيارى بعد ضلالهم.

وُلِدَ هذا النبي ﷺ ميلادًا فريدًا لم يشاركه فيه أحد؛ لذا وضَعَت عليه أُمّه جفنة. والجفنة: إناء الطعام، وقيل: كتور من فخار، وضعته عليه لمَّا

---

(1) «صفة الصفوة» (1/25).

وقع من بطنها إلى الأرض؛ لئلا يراه أحد قبل جدّه عبد المطلب؛ لأنه سيّد مكة، وسيّد قريش، وكبير قومه، فأرادت أن تبشره بهذا المولود العظيم؛ لأنه ليس كغيره من الأطفال، فقد حملته بيسر، وسهولة، ووضعته ـ أيضًا ـ بيسر، وسهولة، ورأت وهي حامل به أنه خرج منها نور أضاءت لهذا النور قصور الشام. قال أهل العلم من أهل الحديث: «لأنه سوف يفتح الدنيا بنوره وهدايته، حتى تصل الفتوح إلى الشام وإلى العراق وفارس».

ولـمَّا علم عبد المطلب بهذا المولود وجاء إليه، وجدوا الجفنة تصدَّعت وانشقَّت نصفين، فأخذه جده، وهو على علم بأن لهذا المولود شأنًا عظيمًا، علَّمه بذلك أهل التوراة والإنجيل، ممن عندهم علم بكتابهم، وكذلك أخبره ملك اليمن سيف بن ذي يزن، وأمية بن أبي الصلت.

قال ابن الجوزي: «وروى يزيد بن عبدالله بن وهب عن عمته: أن آمنة لمَّا وضعت رسول الله ﷺ أرسلت إلى عبد المطلب فجاءه البشير وهو جالس في الحجر، فأخبره أن آمنة ولدت غلامًا، فسرّ بذلك، وقام هو ومن معه فدخل عليها، فأخبرته بكل ما رأت، وما قيل لها، وما أمرت به، فأخذه عبد المطلب فأدخله الكعبة، وقام عندها يدعو الله، ويشكر ما أعطاه، وروي أنه قال يومئذٍ:

الحمد للهِ الذي أعطاني ... هذا الغُلامَ الطيب الأرْدَانِ[1]
قد ساد في المهدِ على الغلمانِ ... أعيذه بالله ذي الأركانِ
حتى يكون بُلْغَة الفتيانِ ... حتى أراهُ بالغَ البنيانِ
أعيذهُ من كلِّ ذي شنآنِ ... من حاسدٍ مضطرب العنانِ
ذي همَّةٍ ليس له عينان ... حتى أراه رافع اللسانِ
أنت الذي سُمِّيتَ في القرآن ... في كتب ثابتةِ المثاني
أحمدًا مكتوبًا على اللسانِ[2]

---

(١) الأردان: جمع الردن، وهو الكم.
(٢) «البداية والنهاية» (٢/٢٤٦).

إن ميلاد هذا النبي نبأ عظيم، سقطت له الأصنام - فيما يُروى - على وجوهها لـمَّا نزل إلى الأرض، واهتزَّ له إيوان كسرى؛ حتى سقطت من شرفاته ثلاث عشرة رفدة أو درجة. وغارت بحيرة ساوه، وخمدت نار فارس؛ لأن هذا المولود العظيم سوف يجتاح الأصنام، وسوف يدمِّر إيوان كسرى، وسوف ينشر العدل بين الأنام، وسوف يخمد نار المجوس التي تُعْبَد من دون الله.

أما إبليس فلم يُرَ إلاّ ملعونًا طريدًا في ذلك اليوم؛ فقد روي أن إبليس رنَّ أربع رنات: رنة يوم لعنه الله وطرده، فرن لذلك أي خنس بصوته حنينًا، ورن يوم أُهبِط من الجنة، ورن يوم وُلِد عليه الصلاة والسلام، ورن يوم نزلت سورة الفاتحة، فهذا حال إبليس.

رضاعته عليه الصلاة والسلام:

فإن أُمّه أرضعته حينًا من الدهر، وكانوا يسترضعون أطفالهم في البادية؛ لينمو الطفل قويّ الجسم، شديد البنية فصيحًا، لذلك يكون أفصح أطفال العرب الذين رضعوا ألبان أمهاتهم في البادية؛ لأن اللبن يؤثر في الطفل، ولذلك ورد عند أحمد في المسند أن رسول الله ﷺ نهى أن تسترضع الحمقى؛ لأن الحمقى يسري لبنها إلى ابنها بإذن الله، فيصبح مثلها في الحمق. وكذا الذكيَّة ينشأ ابنها على الذكاء، وكذلك الحادة الغضوبة يأتي ابنها حادًّا غضوبًا متشنجًا، فاللبن له أثر عظيم وتأثير كبير في تكوين الإنسان وتكوين شخصيته.

ولكن الله ﷻ أراد بهذا الرسول الخاتم عناية خاصة، أراد - سبحانه - أن ينبته نباتًا حسنًا، وتولى حراسته وكفالته ورضاعته، وهيَّأ الله الأسباب ليرضع - عليه الصلاة والسلام - في أحسن بادية من بوادي العرب، وهي بادية بني سعد، وغيرها من البوادي.

قال ابن إسحاق: فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر يُقال لها: حليمة ابنة أبي ذؤيب.

ثم قال: كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية - أم رسول الله ﷺ

التي أرضعته ـ تحدث: أنها خرجت من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء لم تبق لنا شيئًا. فخرجت على أتان لي قمراء، معنا شارف لنا، والله ما تبضّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغديه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالركب؛ حتى شق ذلك عليهم ضعفًا وعجفًا، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلاّ وقد عرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنّا إنّما كنا نرجو المعروف من أبي الصبيّ، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلاّ أخذت رضيعًا غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله، إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعًا، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنّه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلاّ أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته، رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري؛ أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشِبَعًا، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمين والله يا حليمة، لقد أخذت نسمةً مباركة. قالت: فقلت: والله، إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا، وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي. فوالله، لقطعت بالركب، ما يقدر عليها شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب ويحك اربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها، فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي. فيقلن: والله إن لها لشأنًا. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضًا من أرض الله أجدبَ منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبَّنًا فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من

قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لُبَّنًا، فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابًا لا يشبّه الغِلمان، فلم يبلغ سنتيه؛ حتى كان غلامًا جَفْرًا. قالت: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركتِ بنيَّ عندي حتى يغلظ، فإني أخشى عليه وباء مكة. قالت: فلم نزل بها حتى ردّته معنا[1].

وإذا الكريم الشهمُ قام ببلدةٍ　　سال النضارُ بها وقام الماءُ

وكانت أمه إذا أرادت أن تغسله يبكي؛ حتى ترد عليه ثيابه.

ولنا هنا وقفة مع آثار الرسول ﷺ، فليس أحد يُتبرك بآثاره إلاّ رسول الهدى ﷺ، فهو المبارك في ملابسه، وفي عصاه، وفي بيته، وفي آثاره: كأظفاره، وحذائه، فآثاره كلها مباركة، ليست إلاّ له وحده من دون البشر، وليس لأحد من الناس مهما بلغ صلاحه، وورعه، وتقواه، وولايته، وعبادته، فليعلم ذلك، وهذا مِمّا ينبه عليه.

ترعرع ـ عليه الصلاة والسلام ـ في البادية؛ حيث البلاغة والفصاحة، وحُسن البيان، وجودة الألفاظ، وجزالة اللغة، وقد رُوي أن أبا بكر الصديق ﷺ قال: يا رسول الله، ما رأيت أفصَح منك. ولم يسمع في التاريخ أفصح من رسول الله ﷺ أبدًا، كان إذا تكلم ملأ القلوب بهجة وإقناعًا، وحجة وبيانًا، لا يتلعثم ولا ينطق كلمة خطأ، ولا ينطق حرفًا غلطًا، ولا يريد كلمة فيقول غيرها، ولا يُبطئ عليه الكلام، يترسل به، يلقيه فواصل، ويخرج الحروف من مخارجها، وهذا كله بتوفيق من الواحد الأحد، وتأييد من الفرد الصمد؛ لأن هذا النبي مؤهّل لأن يكون أفصح الناس، وأشجع الناس، وأجود الناس، وأحلم الناس، وأبرَّ الناس، إلى غير ذلك من الصفات الحميدة.

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢١٤ ـ ٢١٧).

حادثة شق الصدر :

عن أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك. ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ[1] ثم أعاده في مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه، فقالوا: إن محمدًا قد قُتِل. فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره[2].

وعن عتبة بن عبدٍ السلمي أنه حدثهم أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: كيف كان أول شأنك يا رسول الله؟ قال: كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابنٌ لها في بهم لنا، ولم نأخذ معنا زادًا، فقلت: يا أخي؛ اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا، فانطلّق أخي ومكثت عند البهم، فأقبل طيران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهوَ هو؟ قال: نعم. فأقبلا يبتدراني فأخذاني فبطحاني إلى القفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي، فشقاه فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء بَرَدٍ فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة، فذرَّاها على قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفه، واجعل ألفًا من أمته في كفه، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي، أشفق أن يخر عليَّ بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا وتركاني، وفرقت فرقًا شديدًا، ثم انطلقت إلى أمي، فأخبرتها بالذي لقيته، فأشفقت عليَّ أن يكون أُلبس بي، قالت: أعيذك بالله، فرحلت بعيرًا له فجعلتني على الرحل، وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أو أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيتُ، فلم يرعها ذلك، فقالت: أني رأيت خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام[3]. ولهذا الحديث شواهد تبلغ الصحة والحسن.

---

(١) أي: ضمّ بعضه إلى بعض.

(٢) أخرجه مسلم، (رقم ١٦٢).

(٣) أخرجه أحمد (١٨٤/٤)، والحاكم (٦١٦/٢ - ٦١٧)، وحسَّنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٢٢/٨)، وله شاهد إسناده جيد قويّ، كما ذكر ذلك ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٧٥/٢).

والطست هو الصحن. ومن اللطائف ما قاله السهيلي: الطست قد تكون من طسم، وهي من عبارات القرآن، وأما كونه من الذهب؛ فإنه أنقى، وأغلى، وأثقل، وأنفس، وأجمل، وأتوا بماء زمزم في بعض الروايات وفي رواية بثلج، فنضحا قلبه عليه الصلاة والسلام، وأخرجا علقة سوداء فرموا بها، وهذه العلقة توجد في كلّ واحد منا، أما هو ﷺ فأخرجها الله منه، وطهَّره ونقَّاه، هذه العلقة تمثِّل الحقد، والحسد، والغش، والخيانة، والشهوة، والشبهة، فخرجت منه فطهر قلبه. قال الملك للآخر: اغسل قلبه غسل الوعاء، واغسل بطنه غسل الملاء، والملاء هو الثوب، فنضحاه ﷺ، ثم أخذا عرقًا عند كتفه فسلاه وأخرجاه.

قال السهيلي: هذا العرق ينزغ الشيطان منه، وهو مدخل الشهوة، وفي لفظ: إن الشيطان يجثم على قلب ابن آدم. والحديث أصله صحيح، ويُقال: يبقى الشيطان كالضفدع، فإذا سكت الإنسان عن الذِّكر؛ وسوس، فإذا ذَكَرَ الله خَنَس، ولكن عصم الله رسوله من الشيطان، والشهوات، والشبهات، ومن الشرك كله. فصار طاهرًا مهديًّا معصومًا محفوظًا بحفظ الله، فهنيئًا له.

وقد فسَّر بعض أهل التفسير قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١] أي شقّه له ربه. والصحيح أنه شرحه ووسعه، فكان رحبًا وسيعًا فسيحًا، أوسع من السموات والأرض لما فيه من الإيمان، والحكمة، واليقين، والنور.

ولقد خافت أمه حليمة بعدما علمت بهذه الحادثة، وقالت: والله، لا يبقى معي بعدها، أخاف عليه أن يُقتل أو يُغتال. فتتحمل المصيبة والدية والمسؤولية أمام الناس، وأمام العرب، فأخذته وعادت به إلى مكة وسلَّمته إلى أمه آمنة، وأخبرتهم بالقصة، فقال عبد المطلب: لا، إن ابني هذا محفوظ، لا يأتيه بأس.

وماتت أمه آمنة، وهو ابن ست سنوات، فأصبح بلا أب ولا أم،

ولكن راعيه وحافظه والمبارك فيه وعاصمه ربُّه سبحانه، وكذا وجدنا من نشأ يتيمًا فقيرًا مدقعًا ونشأ طائعًا، يحب الكتاب والسُّنَّة، ويجلُّ أهل العلم، وينصر الدين، ويدافع عن الملة، فإن الله يحفظه: ﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وإذا العناية لاحظتكَ عيونُها   نَمْ فالحوادثُ كلهنَّ أمانُ

وإذا أردت أن يصلح أبناؤك؛ فأصلح من نفسك أنت أولاً، وربِّ نفسك على التقوى، والمحافظة على الصلوات الخمس، وأكل الحلال، واجتناب الفواحش، والفجور والمحرَّمات، وانظر إلى حفظ الله الكنز للغلامين اليتيمين والذي كان سببه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: ٨٢].

ولد لسعيد بن المسيب غلامٌ، فأكثر من النوافل، فقيل له: يا أبا محمد، نراك قد أكثرت من النوافل؟! قال: وُلِدَ لي وَلَدٌ فأردت صلاحه، فأكثرت من نوافلي، علَّ الله أن يحفظني في ابني، فالحفظ من الواحد الأحد، والله ﷻ يحفظ الرجل الصالح في أبنائه، وزوجاته، وبناته، وأهله، وجوارحه، وكسبه. فالله في حفظه سبحانه وتعالى، حتى يصل الحفظ إلى الذرية والأحفاد. وأما الضائع فيضيع في حياته، ومستقبله، وأبنائه؛ لأنه ضيّع الله، ومن ضيع الله ضيعه الله جزاءً وفاقًا.

كفالة جده له:

مات أبو النبي، وهو حمل في بطن أمه، وماتت أمه، وهو طفل صغير لم يتجاوز السادسة من عمره، فأخذه جده عبد المطلب وكفله. وعبد المطلب سيد قريش، والمُطاع فيهم، وكان يملأ العين وسامة، وفخامة، وشهامة، ومروءة، وكرمًا، إذا أقبل؛ خضعت له قريش، فما يتكلم أحد بحضرته، وكان له مجلس مخصوص به، وفراش له وحده، لعظمته وسؤدده، فهو الذي يخاطب الملوك، ويذهب بالسفارات، ويستقبل الوفود، ولا يجرؤ أحد أن يقترب من مجلسه وفراشه المعد له، حتى جاء محمد وهو يومئذٍ طفل صغير؛ ليجلس على فراشه، وفي مجلسه، فيؤخره الخدم،

ولكن الطفل اليتيم يعود مرة ثانية، فينظر إليه جده عبد المطلب، ويبتسم، ويقول: دعوا ابني، والله إن له شأنًا.

وكان عبد المطلب يتحبب إلى ابن ابنه الطفل اليتيم، ويقبِّله أمام الناس ويلتزمه، ويحمله كالوردة، وكان معجبًا به، ولكنَّ لله الحِكَمَ العظيمة، مات هذا الجد والطفل اليتيم لم يتجاوز عمره ثماني سنوات، وتبدأ المصائب تحل بهذا الغلام.

لولا المشقة سادَ الناس كلُّهُمُ ... الجودُ يفقرُ والإقدام قتَّالُ

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه، ينبته الله نباتًا حسنًا، لما يريد به من كرامته، فلمَّا بلغ رسول الله ﷺ ست سنين؛ توفيت أمه آمنة بنت وهب.

وقال أيضًا: فكان رسول الله ﷺ مع جده عبد المطلب بن هاشم، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له. قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي، وهو غلام جَفْر، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأنًا. ثم يجلسه معه على الفراش، ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع(١).

وقال ابن الجوزي: روى محمد بن سعد عن جماعة من أهل العلم منهم مجاهد والزهري: أن آمنة لمَّا توفيت؛ قبض رسول الله ﷺ جدُّه عبد المطلب وضمَّه إليه، ورق عليه رقةً لم يرقها على ولده، وقرَّبه وأدناه. وأن قومًا من بني مدلج قالوا لعبد المطلب: احتفظ به فإنا لم نر قدمًا أشبه بالقدم التي في المقام منه. فقال عبد المطلب لأبي طالب: اسمع ما يقول هؤلاء، فكان أبو طالب يحتفظ به، فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٢٢ ـ ٢٢٣).

أبا طالب بحفظه، ومات عبد المطلب، فدفنه بالحجون وهو ابن اثنتين وثمانين سنة، وقيل ابن مائة وعشر سنين، ويُقال: وعشرين سنة.

وسُئِل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟ قال: نعم وأنا يومئذٍ ابن ثمان سنين. قالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذٍ يبكي عند قبر عبد المطلب. وذكر بعض العلماء أنه كان لرسول الله ﷺ يوم موت عبد المطلب ثماني سنين وشهران وعشرة أيام[١].

وقال ابن كثير: فلما ماتت أمه؛ حضنته أم أيمن - وهي مولاته ورثها من أبيه - وكفله جدُّه عبد المطلب، فلما بلغ رسول الله ﷺ من العمر ثماني سنين؛ توفي جدُّه، وأوصى به إلى عمه أبي طالب؛ لأنه كان شقيق عبدالله، فكفله وحاطه أتم حياطة، ونصره حين بعثه الله أعز نصر، مع أنه كان مستمرًّا على شركه إلى أن مات، فخفف الله بذلك من عذابه، كما صح الحديث بذلك[٢][٣].

إن العظمة، وإن المجد ليدفع لك على طبق من ذهب، إنها معاناة بعد معاناة، وإنها دموع ودماء، إنها مصائب ونكبات، إنها بلايا ونكايات، إنها أذًى وقذًى، حتى يبلغ الله ﷻ من شاء إلى المرتبة اللائقة به، وأشد مَن واجه الصعوبات والصدمات والنكبات والمصائب والدواهي محمد عليه الصلاة والسلام.

إن كان أحببتِ بعد الله مثلك في	بدوٍ وحضرٍ وفي عُرْبٍ وفي عَجَمِ
فلا اشتفىٰ ناظري من منظرٍ حسنٍ	ولا تفوَّهَ بالقولِ السديد فَمِي

توفي عبد المطلب، وعمره ﷺ ثماني سنوات، فكفله عمه أبو طالب،

---

(١) «صفة الصفوة» (١/٣١ - ٣٢).

(٢) عن العباس بن عبد المطلب أنه قال: يا رسول الله؛ هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار» أخرجه البخاري (٣٨٨٣) (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٠٩).

(٣) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٥٦، ٥٧).

وهو أحد أعمام عشرة لرسول الله ﷺ في بيت شرف وسؤدد ومجد ومكرمات، ولكن أبا طالب كان فقيرًا إلاّ أنه كان أحسنهم قلبًا، وأصبرهم، وأرحمهم، وأعطفهم، فقرب إليه ابن أخيه محمدًا، قرَّبه على شظف من العيش، وفقر، وجوع، ومشقَّة.

وقفات مع أبي طالب:

كان رسول الله ﷺ يأكل مع عمه وأولاده، فيبارك الله في طعامهم، فيقوم الجميع وهم شباعٌ، فإذا غاب رسول الله ﷺ؛ انتهى الطعام سريعًا، وقاموا وهم جائعون.

وكان ﷺ ينام، وينام معه أولاد عمه فيقومون وعليهم القذى في عيونهم، ويقوم هو ﷺ مكحلاً مدهنًا في وجهه نضرة؛ لذا كان يقربه عمه أبو طالب، ويدنيه أكثر من أبنائه، وأحبه كثيرًا، ودافع عنه وناضل وضحَّى من أجله، وأبى أن يسلمه لكفار قريش، ونظم فيه قصيدة رائعة، يقول ابن كثير عنها: هي أحسن من كثير من المعلقات، وهي من أجمل القصائد على الإطلاق، ومن ضمن أبياتها يمدح الرسول ﷺ فيقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأراملِ
يلوذ به الهلاّك من آل هاشمٍ ... فهم عنده في نعمة وفواضلِ

هذا هو رسولنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بقي في كفالة عمه أبي طالب، وأدركته النبوة، وشرَّفه الله بالرسالة، وقام فيها لله خير قيام، وأدَّى ما كلَّفه به ربّه خير أداء، الأمر الذي أغاظ كفار قريش، فاجتمعوا إلى أبي طالب يريدون أن يسلِّمهم ابنَ أخيه محمدًا الرسول الخاتم. فرفض أبو طالب أشد الرفض، فحاولوا معه، وقالوا له: احتكم إلينا إلى النصفة. أي نخبرك بحكم بيننا وننصفك منا، ومن ابن أخيك، إنه سب آلهتنا، وكفَّرنا، وشتم أصنامنا.

فدعا أبو طالب محمدًا ﷺ ودعا كفار قريش، وقال: يقولون كذا وكذا. فقال رسول الله ﷺ: لن أترك هذا الأمر، أو أهلك دونه. قال كفار

قريش: يا أبا طالب، إن أراد زوجة زوجناه أجمل زوجة في قريش، وإن أراد مُلكًا ملَّكناه، وإن أراد مالاً أغنيناه، إنّما يكف عنا ويترك هذا الأمر. فقال رسول الله ﷺ فيما يروى عنه قولته المشهورة التي حفظها الدهر، وسارت بها الركبان، وسجلتها القلوب، وارتفعت بها هِمم العرب: «والذي نفسي بيده، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، أو أهلك دونه»(١). ولـمَّا رأى أبو طالب من ابن أخيه عزمه الأكيد على دعوته، وتصميمه البالغ على أداء ما كلَّفه به ربّه. قال له: اذهب، فلن يصل إليك منهم أحد، انشر دينك، وبلِّغ رسالتك، فما زال عمُّه يحميه ويكفيه حتى مات.

ولرسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب قصتان في السفر يرويهما أهل السِّيَر:

القصة الأولى: سافر رسول الله ﷺ مع عمه أبي طالب في رحلة إلى اليمن، وكان عمره ثلاث عشرة سنة، ولـمَّا أصبحوا في الوادي، وكفار قريش معهم الإبل والخيول والزبيب، إذ أقبل جمل ضخم سمين فخم فحل، يهدر هديرًا كالعاصفة، أقبل يريد القافلة ففروا جميعًا، وثبت رسول الله ﷺ وهو طفل شاب، فلما رآه الجمل برك على الأرض، وأناخ ومدَّ رأسه، وألقى جرانه، وأخذ يفرك جسمه على الأرض، فأخذه رسول الله ﷺ وركبه، وأتى به إلى قافلة عمه أبي طالب، فتعجب الناس؛ لأنه لا بد أن يكون إنسانًا غير عادي، وهو بشر، ولكنْ ليس كالبشر؛ لأنه محفوظ ومعصوم، أراد الله أن يكون هو الرسول، والمنذر، والبشير لهذه الأمة ﷺ.

القصة الثانية: قال ابن إسحاق: ثم إن أبا طالب خرج في ركب تاجرًا إلى الشام، فلما تهيَّأ للرحيل وأجمع المسير؛ صبّ(٢) به رسول الله ﷺ فيما يزعمون، فرقَّ له أبو طالب. وقال: والله لأخرجن به معي، ولا يفارقني،

(١) ذكره الطبراني في «تاريخه» (٣٢٦/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (١٨٧/٢).
(٢) أي تعلق من الصبابة لئلا يفارقه.

ولا أفارقه أبدًا. أو كما قال. فخرج به معه، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، وبها راهب يُقال له: بحيرى في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة راهب، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها، فيما يزعمون، يتوارثونه كابرًا عن كابر، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى، وكانوا كثيرًا ما يمرون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا به قريبًا من صومعته؛ صنع لهم طعامًا كثيرًا، وذلك فيما يزعمون عن شيء رآه وهو في صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، قال: ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريبًا منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل بظلها أو تحتها، فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، ثم أرسل إليهم فقال: إني قد صنعت لكم طعامًا يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروا كلُّكم صغيرُكم وكبيرُكم وعبدُكم وحركم. فقال له رجل منهم: والله يا بحيرى إن لك لشأنًا اليوم؟! قال له بحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم، وأصنع لكم طعامًا، فتأكلوا منه كلكم. فاجتمعوا إليه، وتخلّف رسول الله ﷺ من بين القوم؛ لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة، فلما نظر بحيرى في القوم؛ لم ير الصفة التي يعرفها ويجدها عنده، فقال: يا معشر قريش، لا يتخلفنّ أحد منكم عن طعامي، قالو له: يا بحيرى ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلاّ غلام، وهو أحدث القوم سنًا، فتخلف في رحالنا، فقال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم. قال: فقال رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى إن كان للؤمٌ بنا أن يتخلف ابن عبدالله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم. فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظًا شديدًا، ينظر إلى أشياء من جسده، قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرّقوا، قام إليه بحيرى، فقال له: يا غلام، أسألك بحق اللات والعزى إلاّ أخبرتني عما أسألك عنه، وإنما قال له بحيرى ذلك؛ لأنه سمع قومه يحلفون بهما،

فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألني باللات والعزى شيئًا، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما، فقال له بحيرى: فبالله إلاّ ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له: سلني عمّا بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله في نومه وهيئته وأموره، فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته، ثم نظر إلى ظهره؛ فرأى خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده. قال ابن هشام: وكان مثل أثر المحجم.

قال ابن إسحاق: «فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال له بحيرى: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا. قال: فإنه ابن أخي. قال: فما فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به. قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغُنَّه شرًّا، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده».

فخرج به عمُّه أبو طالب سريعًا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام، فزعموا فيما روى الناس: أنّ زريرًا وثمامًا ودريسمًا ـ وهم نفر من أهل الكتاب ـ قد كانوا رأوا من رسول الله ﷺ مثل ما رآه بحيرى في ذلك السفر الذي كان فيه مع عمه أبي طالب، فأرادوه؛ فردهم عنه بحيرى، فذكَّرهم بالله وما يجدون في الكتاب من ذكره وصفته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا به لم يخلصوا إليه، ولم يزل بهم حتى عرفوا ما قال لهم، وصدقوه بما قال، فتركوه وانصرفوا عنه، فشب رسول الله ﷺ والله تعالى يكلؤه ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد به من كرامته ورسالته، حتى بلغ وأصبح رجلاً، بل أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال تنزهًا وتكرمًا، حتى ما اسمه في قومه إلاّ الأمين، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[1].

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٣٦ ـ ٢٤٠)، وانظر «البداية والنهاية» (٢/٢٦٦).

وكان رسول الله ﷺ في حفظ الله وأمانه، ورعايته وعصمته، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد تعرَّض رسول الله ﷺ لإحدى عشرة محاولة اغتيال، ونجَّاه الله ﷻ من كيد الأعداء، وقد كان الصحابة يحرسون رسول الله ﷺ حُبًّا له وحرصًا عليه، فلما نزلت هذه الآية دعاهم النبي ﷺ وقال: «إن الله عصمني من الناس فاذهبوا إلى بيوتكم» فقد حفظه الله من أمامه، ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته.

وقفات مع حفظ الله لرسوله ﷺ:

جاء فضالة في غزوة حنين يريد أن يقتل رسول الله ﷺ، فاقترب من الرسول عليه الصلاة والسلام، قال: فلما اقتربت منه وضع يده على صدري، فوالله ما رفعها حتى ما خلق الله شيئًا أحب إلي منه. قال: قلت: يا رسول الله، أستغفر الله وأسبحه، قال: «يا فضالة، ماذا جئت به؟» قال: أتيت أقتلك يا رسول الله. ولكن أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فهو محفوظ بحفظ الواحد الأحد، فلا يسلط عليه أحد ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ [المائدة: ٦٧].

تعرض رسول الله ﷺ للحسد وللأذى وللمناوأة، حتى أن اليهود وضعوا الرحى فوق سطح جدار استظلَّ به، يريدون إيقاعها على رأسه الشريف، فأخبره الله بالوحي، فانتبه وقام ﷺ فوقعت الصخرة على الأرض، وسلّمه الله من مكيدة اليهود، فهو محفوظ بحفظ الله.

وتعرض للأذى وكابد، وصابر، وابتُلِيَ؛ ليكون قدوة للناس، فكُسرت ثنيته، وشُجَّ رأسه، وسقط عن الفرس فجحش شقه، وأوذي في عرضه وسمعته، وسُبَّ، وقُتِل أصحابه، وعانى يوم أُحُد، وهذه كلها أسباب لرفعة مكانته اللائقة به ﷺ التي اختارها الله له، بأبي هو وأمي.

وقال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ فيما ذكر لي يحدّث عمَّا كان الله يحفظه به في صغره وأمر جاهليته أنه قال: لقد رأيتني في غلمان من قريش ننقل

الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره، وجعله على رقبته، يحمل عليه الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم - ما أراه - لكمة وجيعة، ثم قال: شُدَّ عليك إزارك. قال: فأخذته وشددته عليَّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليَّ من بين أصحابي[1].

الأحداث في شبابه عليه الصلاة والسلام:

حضر ﷺ حربًا وحضر سلمًا، وأصبح التاريخ يُوَقَّع بحضوره ﷺ، بل إن الدهر والزمان استدار لما بعث ﷺ يخطب الناس في حجة الوداع، وقال: «أيها الناس، إن الزمان قد استدار في هيئته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا»، ولذلك قال ﷻ: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة: ٣٦]؛ لأن الكفار قدموا وأخروا ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ [التوبة: ٣٧] قدموا شهر الله المحرم على صفر ورمضان ورجب؛ ليستحلوا المحارم، ولأنها أربعة أشهر حرم، فكانوا ينتقمون من أعدائهم في الأشهر، فيوهمون الناس أنهم حرم أي محرمين، فإذا أتى الإنسان قالوا: قد تغير الشهر فليس بحرام؛ بل حلال، ثم ذبحوا محاربيهم ومخاصميهم، فلما أتى رسول الله ﷺ تغير الزمان، واستقام التاريخ، وانتظمت الأيام والأشهر والساعات، فهو سعادة للناس، وسعادة للحيوان، وسعادة لكل من كان على وجه الأرض، حتى قالوا فيه: رحمة للعالمين. رحمة للمؤمن، ورحمة للكافر، ورحمة للحيوان.

حرب الفجار:

قال ابن هشام: فلما بلغ رسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة فيما حدَّثني أبو عبيدة النحوي عن أبي عمرو بن العلاء هاجت حرب الفجار بين قريش، ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان، وكان

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٣٦ - ٢٤٠)، وانظر «البداية والنهاية» (٢/٢٦٦).

الذي هاجها أن عروة الرحال بن عتبة بن جعفر بن كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن، أجاز لطيمة - أي تجارة - للنعمان ابن المنذر، فقال له البرَّاض بني قيس أحد بني ضمرة بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة: أتجيزها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق كله. فخرج فيها عروة الرحال، وخرج البرَّاض يطلب غفلته، حتى إذا كان بتَيْمن ذي طلال بالعالية، غفل عروة، فوثب عليه البرَّاض فقتله في الشهر الحرام، فلذلك سُمِّي الفِجار...

قال ابن هشام: فأتى آتٍ قريشًا فقال: إن البراض قد قتل عروة، وهم في الشهر الحرام بعكاظ، فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم، ثم بلغهم الخبر فأتبعوهم فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أيامًا، والقوم متساندون على كلّ قبيل من قريش، وكنانة رئيس منهم، وعلى كلّ قبيل من قيس رئيس منهم.

قال: وشهد رسول الله ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم. وقال رسول الله ﷺ: «كنت أنبِّل على أعمامي». أي: أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

قال ابن إسحاق: هاجت حرب الفجار ورسول الله ﷺ ابن عشرين سنة، وإنما سُمِّي يوم الفجار، بما استحل فيه هذان الحيَّان - كنانة وقيس عيلان - من المحارم بينهما. وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية بن عبد شمس، وكان الظفر في أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس[1].

حلف الفضول:

قال ابن هشام: وأما حلف الفضول فحدثني زياد بن عبدالله البكائي عن محمد بن إسحاق قال: تداعت قبائل من قريش إلى حلف، فاجتمعوا له

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٤١ - ٢٤٣).

في دار عبدالله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ابن كعب بن لؤي لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده بنو هاشم، وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها، وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلاّ قاموا معه، وكانوا على مَن ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن زيد بن المهاجر بن قنفذ التيمي أنه سمع طلحة بن عبدالله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله ﷺ: «لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت»(١).

اجتمع في دار عبدالله بن جدعان خمس أسر، وكان معهم محمد ﷺ، اجتمعوا لأحسن حلف عقد في الجاهلية، لذلك كان رسول الله ﷺ يحمد الله على أن حضر هذا الحلف، وشارك في هذه المعاهدة، وهي أحسن معاهدة قبل الإسلام في حفظ حقوق الإنسان.

تم هذا الحلف في بيت عبدالله بن جدعان، وقد كان رجلاً فقيرًا صعلوكًا، ولكنه وجد كنزًا عظيمًا بين الصخور، كنز ذهب، واستشار ماذا يفعل بهذا المال: أيبني الدور، أم يعمر المزارع، أم يتزوج الزوجات؟ فقيل له: الدور تخرب، والزروع تفنى، والزوجات تموت، لكن اتخذ شيئًا لا يموت، ولا يفنى؛ اتخذ الذكر الحسن، والشرف والسؤدد. ضيِّف الحجاج والمعتمرين وضيِّف العرب، فإنهم سوف ينظمون فيك القصائد ويمدحونك، فهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو نبي معصوم يقول: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾ [الشعراء: ٨٤]. لذلك إذا أردت أن تمجّد، ويكون لك عمران وحياة ثانية، فحسّن من سلوكك، وأصلح من حياتك، لكي يكون لك ذكر حسن، وسيرة عطرة، وصدق الشاعر:

دقاتُ قلبِ المرءِ قائلة لهُ ... إنّ الحياة دقائقٌ وثوانِ

---

(١) «السيرة النبوية» (١/١٨٢ ـ ١٨٣).

فارفع لنفسك قبل موتك ذكرها فالذكرُ للإنسان عمرٌ ثاني

فاتخذ عبدالله بن جدعان لسانًا حسنًا في الناس، فكان له جفنة يحملها أربعة، ويغطيها بالثريد والسمن والعسل في الصباح، ثم ترتفع، ثم تقدم في الظهر، ثم تقدم في المغرب. وكان يقال: يا للفطور المبارك، يا للغداء المبارك، يا للعشاء المبارك. وقيل فيه شعر.

لا ينكثونَ الأرضَ عند سؤالِهم لتطلب العلات بالعيدانِ

فإن الكريم إذا سألته قال لك: نعم، أهلاً وسهلاً ومرحبًا، فليس كالبخيل يفكر ثم يكتب ثم يخطط.

اجتمعوا في بيت عبدالله بن جدعان، والذي قام بالحلف هو الزبير بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ فقال: يا معشر قريش؛ كيف يضام عندنا الفقير؟! وكيف يظلم عندنا الضيف؟! قالوا: ماذا حدث؟ قال: الزبيدي أُخِذَ ماله، أخذه منه العاص بن وائل. وقام الزبيدي ورفع ظلامته، وقال فينا شعرًا شكاية وأملاً أن نرفع عنه الظلم، ونرد إليه حقه. قالوا: وماذا نفعل؟ قال: نتعاقد ونتعاهد على نصر المظلوم، حتى نأخذ له الحق. قالوا: ونحن معك على ذلك، أيدينا في يدك. قال: تكاتبوا. فتكاتبوا وذهبوا إلى العاص بن وائل، وطرقوا عليه الباب، وقالوا له: والله لا نذهب اليوم حتى تؤدي إلى الزبيدي ماله. ورجع الحق إلى أهله، وأخذ الزبيدي ماله من العاص بن وائل، وبهذا الحلف حفظ حق الإنسان في الجاهلية. وقيل: سمي حلف الفضول؛ لأنه من الفضل أي: من الكرم والخير، ولذا يسمى الرجل فاضل، للكرم الذي يتصف به. وقيل: سمي بذلك؛ لأنه حضره ثلاثة من أهل الفضل: الفضل بن وداعة، والفضل بن بضاعة، والفضل بن سراعة. حتى قال الشاعر عن ثلاثة وزراء، مات الفضل الأوّل والثاني والثالث:

فيا فضلُ لا تفخرْ فإنكَ ميِّتٌ فقبلك مات الفضلُ والفضلُ والفضلُ

وهكذا الدنيا:

دار متى ما أضحكت في يومِها أبكت غدًا قبحًا لها من دارِ

فيومٌ سرور، ويومٌ أحزان، ويومٌ شدة، ويومٌ رخاء. ولكن يكفي اليوم فضلاً حضور الرسول ﷺ في هذا الحلف.

خاتم النبوة:

هو مثل زر الحجلة، وقيل: مثل بيضة الحمامة، عند كتفه ﷺ، وقد قيل: إن سبب وجود الخاتم، أنه إذا ختم على شيء فهذا دلالة على أنه غال، ونفيس، وعظيم، وخطير، مثل ما يختم على الذهب، أو الكنز، أو الدرر والجواهر. أما الخشب، والتراب، والرمل؛ فلا يختم عليه. وقيل: سبب اختيار هذا الموضع أن الشيطان ينزغ ابن آدم في هذا الموضع. هذا من استنباطات أهل العلم، وليس قواطعَ ووحيًا. فوضع الله الخاتم في هذا الموضع؛ ليعصم رسوله ﷺ وليحفظه من نزغ الشيطان وهمزه، ونفثه ووسوسته وأزّه، فهو ﷺ محفوظ بحفظ الله، وصح عنه ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلاّ معه القرين ـ أي الشيطان ـ». قالوا: حتى أنت يا رسول الله؟ قال: «حتى أنا، ولكنَّ الله أعانني عليه فأسلم»[(١)]. يعني أن القرين أسلم، وشهد شهادة الحق، ودخل في دين الله ﷻ. وقال بعض الشُرّاح: أي أسلم أنا منه. وهذا بعيد وضعيف بهذا المعنى، فلا يأمره إلاّ بخير، فرسول الله ﷺ محفوظ من همزات الشياطين وحضورهم، وفي عناية الله ورعايته.

رعيه ﷺ للغنم:

أما رعيه للغنم، فقد رعاها في شبابه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبيًّا إلاّ رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة»[(٢)].

قال بعض أهل العلم: «إنّما رعى النبي ﷺ للغنم، ورعى الأنبياء

---

(١) أخرجه أحمد (١/٣٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٢٦٢).

قبله الغنم؛ كداود وموسى وعيسى لأمر أراده الله، وهو أن يطوعهم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويدربهم على رعاية الأمم، فإنهم انتقلوا من رعاية الغنم إلى رعاية الأمم، فعرفوا كيف يسوسون الأمم»، فإن من رعى الغنم؛ اكتسب الخبرة والدربة، فالضعيفة يقيمها، والجامحة يردها، ويختار لها المرعى الطيب ويوردها الماء، ويحفظها ويحوطها من الذئاب، ويرتاد لها الممشى الحسن، وهذا هو الراعي الذي يرعى الرعية، والسائس الحكيم الذي يختار لها أحسن الاختيارات، لذلك كانت رعايته ﷺ في الأمة من أحسن الرعايات في العالم، هي السياسة الشرعية الصحيحة، التي لم يُسمع بمثلها، وعليها تقام كلّ سياسات العدل في العالم، فكان ﷺ أرحم الناس وألطفهم وأعدلَهم، كما أن رعاية الغنم تكسب الراعي صفات طيبة حسنة منها: سعة الصدر، والحلم، حتى إنه يقال: إن رعاة الغنم من أوسع الناس صدورًا، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن السكينة في رعاة الغنم فقال ﷺ: «الخيلاء والكبر في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أصحاب الشاء»[1]. فيقول ابن تيمية: تأثروا بمعايشتهم للإبل من القسوة والجبروت والغلظة والشدة.

عصمة الرسول ﷺ في شبابه:

لقد عصم الله عَزَّ وَجَلَّ محمدًا ﷺ في شبابه من اللهو، واللغو، والعبث، والفحش، والعصيان، والفجور، فلم يكن ﷺ خفيف العقل؛ بل كان راجحًا متزنًا وقورًا عفيفًا حييًّا قبل الرسالة وبعدها، فلم تسمع منه سقطة لسان، ولا كلمة نابية، ولا لفظة مؤذية، ولم تحفظ له عثرة، ولا خيانة، ولا فاحشة، ولا معصية، ولا حركة رعناء، فكان ﷺ متزنًا كأنه جبل في ثباته وشموخه، فمن يراه يقول: هذا حكيم، هذا أمين، هذا صادق.

وهناك موقفان يدلان على حفظ الله لهذا النبي ﷺ: فقد ذهب رسول الله ﷺ لحضور عرس زواج، وكان شابًّا فسمع عزفًا وطربًا، ولكن الله حفظه من ذلك، فألقى عليه النوم، فنام حتى انتهى الحفل.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٨٠).

وذهب رسول الله ﷺ ثانية، فألقى الله عليه النوم؛ فنام حتى انفضَّ الاجتماع، فلم يسمع العزف ولا الغناء، رعايةً من الله وحفظًا لقلبه، وصيانةً من الله له عليه الصلاة والسلام، ولم يحفظ عنه ﷺ أنه تلفظ بلفظة تؤخذ عليه؛ لأن الله أراد له الخير وللبشرية من بعده.

تنبيهات:

١ - الاحتفال بالمولد النبوي بدعة، وليس له أصل في الشرع، وليس عليه عمل رسول الله ﷺ وصحابته الكرام - ﷺ - وقد قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»[(١)]. ولا ينبغي لأي إنسان مهما بلغ فهمه، ومهما كان فكره أن يفهم أو يظن أننا إذا ذكرنا يوم ميلاد النبي ﷺ وأنه كان خيرًا وبركة وسعادة للأمة جمعاء: أن ذلك يعني أننا نجيز الاحتفال بمولد النبي ﷺ، فهذا بدعة وحرام.

٢ - ألا نغلو فيه ﷺ غلو النصارى في عيسى بن مريم، ولا نجفو جفاء اليهود مع أنبيائهم، بل ننزله المنزلة اللائقة به، فنقول فيه: عبدالله ورسوله، وكذا لا نغلو فيه بالمدائح والأناشيد، التي تخرجه من حيز العبودية لله حتى تنزله منزلة الألوهية، أو تضفيَ عليه بعض صفات الرب ﷻ ولكنه بشر معصوم، ونبي مرسل، وعبد لله سبحانه وتعالى.

٣ - ألا تشد الرحال لزيارة قبره ﷺ، كما أفتى بذلك إمام الأئمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وألَّف في ذلك كتابًا، فلا تشد الرحال لزيارة قبره، ولكن تشد الرحال للصلاة في مسجده فقط.

حقوق الرسول ﷺ على الأمة

قبل عرض بعض حقوق النبي ﷺ على الأمة يحسن أن نشير إلى أمر مهم وبشرى عظيمة، وغنيمة جليلة، والذي نفسي بيده لو سافر رجل شهرًا

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب البيوع، باب النجش، وفي كتاب الاعتصام باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم فأخطأ خلاف الرسول من غير علم. وأخرجه مسلم برقم (١٧١٨).

حافيًا للحصول على هذه الغنيمة، واغتنام هذه الفائدة؛ لكانت هذه الفائدة خيرًا من سفره وتعبه إلى يوم الدين، والبشرى هي قوله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة؛ صلى الله عليه بها عشر صلوات، ورفعه بها عشر درجات، وكتب له بها عشر حسنات، ومحا عنه بها عشر سيئات»[1]. فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون.

لما مات الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ رُئي في المنام، فقالوا له: ماذا فعل الله بك؟ قال: غفر الله لي ورفعني. قالوا: بِمَ؟ قال: بقولي في كتاب الرسالة: فصلى الله وسلم عليه ما ذكره الذاكرون، وغفل عنه الغافلون.

ومن حقوق الرسول ﷺ على الأمة:

١ - العمل بسنته ﷺ وأن تتخذه إمامك وقدوتك في أعمالك التعبدية، وفي المعاملات، في البيع، والشراء، والأخلاق، والسلوك، أن تجعله نصب عينيك؛ لأن الله ﷻ رضيه، وجعله إمامًا وأسوة وقدوة لنا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

٢ - أن تحبه بعد حبِّ الله، وأن يكون أحبَّ إليك من نفسك، وأهلك، وولدك، ووالدك، والناس أجمعين، فلا تُقدِّم على محبته محبة النفس، أو الأبناء، أو الأم، أو الزوجة، أو أي مخلوق آخر كائنًا من كان.

٣ - أن تحتكم إلى قوله، وتخضع لحكمه، وتسلم إلى ما جاء به الشرع من الكتاب والسُّنَّة، فلا تُقدِّم عليه قول أحد من الناس. فكلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلاّ هو ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٦٤٣)، وأحمد (١٠٢/٣)، والحاكم (٥٥٠/١)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٦٣٥٩).

٤ ـ أن تنشر دعوته وسُنَّته وطريقته وعظًا، وإفتاءً، وخطابة وتدريسًا، وتأليفًا، وتذب عن شرعه، ودينه، وسنته، ولو أوذيت، وتدافع وتنافح عن ملَّته، وتدعو الناس إليها بالحكمة والرفق، والجدال بالتي هي أحسن؛ لكي تكون من أنصار دينه وأتباع طريقته، وتحشر معه تحت لوائه، وتشرب من حوضه، وتدرك شفاعته، وتظلل معه في ظل الله ﷻ، وتدخل معه جنات النعيم.

٥ ـ عدم الغلو فيه، فبعض الناس يذهب إلى قبره، ويدعوه أن يشفيه ويعافيه، أو أن يكشف عنه الكرب، أو يمده بالرزق والنصر، وينسى أن الناصر الشافي الكافي الرازق المؤيد هو الواحد الأحد ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

٦ ـ عدم الجفاء في حقه، فإذا ذكر في مجلس يُصلى عليه ويسلم عليه ﷺ. صعد رسول الله ﷺ ثلاث درجات المنبر وقال عند كلّ واحدة: «آمين» فسأله الصحابة: يا رسول الله ﷺ: يا رسول الله؛ أمَّنت على ماذا؟ فقال: «جاءني جبريل فقال لي: رغم أنف من أدركه رمضان فلم يغفر له، قل: آمين. فقلت: آمين. ثم جاءني فقال: رغم أنف من أدركه أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين. قلت: آمين. ثم جاءني فقال: رغم أنف مَنْ ذُكِرتَ عنده ولم يصلِّ عليك، قل: آمين. قلت: آمين»[1].

فصلى الله عليه وسلم ما دام الليل والنهار، وما ذكره الذاكرون، وغفل عن ذكره الغافلون.

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣٥٤٥)، والحاكم (٥٤٩/١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم: ٣٥١٠).

عرس النبوة

إن الحديث عن محمد ﷺ لهو أجمل الحديث، وأحسنه، وأتمه، وأكمله، وأمتعه، وإن سيرة محمد ﷺ لهي أحسن السير، وأكرمها، وأجلُّها، وأصدقها، فأطلق العبرة مع العبارة، وأسرع الدمعة مع الدعاء، واغسل سريرتك بماء سيرته، وانضح قلبك بنهر هدايته، بارك الله فيمن أحبه، وحفظ الله من اتبعه، ونصر الله من نصره، وأكرم الله من أكرمه ﷺ.

ومحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بشر يتزوج كما يتزوج البشر، ويفرح كما يفرح البشر، ويحزن كما يحزن البشر، ويجوع كما يجوعون، ويظمأ كما يظمؤون، ولله الحكمة البالغة أن جعل محمدًا ﷺ يتزوج: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]. فالأنبياء والرسل ليسوا ملائكة لا يتزوجون. لقد تزوج رسول الله ﷺ ليكون الأسوة والقدوة الحسنة في بناء البيت المسلم، وتربية الأولاد، ومعاشرة النساء، وليرشد الأجيال، فمن أين نتعلم معاشرة النساء، وتربية الأولاد إلاّ منه هو ﷺ، فكل ما أتى به تشريع نحن على هديه سائرون، وبسنته مستمسكون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [النجم: ٤ ـ ٥]، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

تزوج رسول الله ﷺ وهو في سن الخامسة والعشرين من عمره، فكان أحسن الشباب، فهو القدوة، كما يقول أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ اللهُ: إن كنت شابًّا؛ فأروع وأجمل قدوة لك محمد ﷺ، وإن كنت شيخًا؛ فهو مثلك،

وإن كنت فقيرًا؛ فهو أسوتك، وإن كنت غنيًا؛ فهو إمامك، وإن حاربت؛ فقد حارب، وإن سالمت؛ فقد سالم قبلك، وإن رضيت؛ فقد رضي، وإن غضبت؛ فقد غضب، ولذلك جعله الله ﷻ يمر بكل أطوار الحياة، افتقر واغتنى، رضي وغضب، جاع وشبع، سالم وحارب، فكان الأتقى، والأنقى، والأرفع في كلّ المنازل.

في الخامسة والعشرين يذهب رسول الله ﷺ وهو في ريعان الشباب للتجارة، ومعه ميسرة غلام خديجة بنت خويلد، أعقل نساء قريش، وتصل سيرته العطرة إلى مسامع خديجة بعد رجوعه إلى مكة، فهو الصادق الأمين، كلّ الخصال الطيبة يتحلى بها، وكل الأوصاف الحسنة يتصف بها.

مَيْسرة نقل لمولاته خديجة صورة حيَّة عن محمد، الأمر الذي جعل خديجة ـ وهي العاقلة ـ تفكر في الزواج منه، فهو القويّ الأمين، قويّ في عمله وتجارته، وأمين، وسمعته حسنة طيبة. تقدم أبو طالب عم الرسول يخطب خديجة من عمها عمرو بن أسد لابن أخيه محمد، فقال: إن محمدًا كما ترون مكانة وصدقًا وأمانة، وإن كان قليل المال؛ فإن المال عرض زائل.

قال عم خديجة: رضينا، وتم العقد على شيء من المهر، وتزوجها رسول الله ﷺ، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة، وعمرها أربعين سنة، وأنشأ بذلك أعظم بيت في التاريخ، وبنى أطهر بيت على وجه المعمورة.

قال ابن إسحاق: «وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم، وكانت قريش قومًا تجّارًا، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه؛ بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجرًا، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار مع غلام لها، يُقال له: ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ منها، وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام.

فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريبًا من صومعة راهب من

الرهبان، فاطّلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم.

فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلاّ نبي. ثم باع رسول الله ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد أن يشتري، ثم أقبل قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة ـ فيما يقولون ـ إذا كانت الهاجرة واشتد الحر؛ يرى ملكين يظلانه من الشمس، وهو يسير على بعيره، فلما قدم مكة على خديجة بمالها باعت ما جاء به، فأضعف أو قريبًا، وحدثها ميسرة عن قول الراهب، وعمَّا كان يرى من إظلال الملكين إياه، وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به؛ بعثت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له فيما يزعمون: يا ابن عم؛ إني قد رغبت فيك لقرابتك وَسِطَتِكَ في قومك، وأمانتك، وحُسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها، وكانت خديجة يومئذٍ أوسط نساء قريش نسبًا، وأعظمهن شرفًا، وأكثرهن مالاً، كلّ قومها كان حريصًا على ذلك منها لو يقدر عليه».

قال بعض الرواة: «فلما قالت ذلك لرسول الله ﷺ ذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فتزوجها».

قال ابن هشام: «وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها»[(١)].

قال بعض أهل العلم: «إذا وجد الرجل في المرأة الكبيرة السن مأوًى وملجأً وعقلاً؛ فإنَّها تؤثر في الصغيرة التي لا تملك ميزاتها وصفاتها، فأنت تميِّز المرأة، بدينها، وعقلها، ورشدها، وعلمها، وصدقها، وأمانتها، لقد اختار الله عز وجل لرسوله ﷺ من الثيِّبات والأبكار، أعقل الأمة وأدينهن، وأصدق الأمة على الإطلاق».

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٤٤ ـ ٢٤٦).

أما سيرتها - رضي الله عنها - فهي الصادقة العاقلة الأمينة، واختيارها لرسول الله ﷺ دليل على رجاحة عقلها، ووفور ذكائها، وسلامة فطرتها، ففضلت العاقل الدَّيِّن حسن السمعة.

ورزق منها بأولاده كلهم إلاّ إبراهيم فإنه من سريته مارية، وكلهم ماتوا في حياته، ولم يبق منهم إلاّ فاطمة ماتت بعده بستة أشهر.

تجلَّد وصَبَر ﷺ على فقدان أولاده، وكانت تدمع عيناه ويحزن كما يحزن الناس، ولكنه لا يقول إلاّ ما يرضي الرب، وكان يضم الطفل ويقبِّله وكان أرحم الناس، رآه الأقرع بن حابس وكان رسول الله ﷺ يقبِّل طفلاً: إما الحسن وإما الحسين، فقال له متعجبًا: أتُقبِّلون أطفالكم؟! فقال ﷺ: «نعم» فقال الأقرع: والله الذي لا إله إلاّ هو إنَّ عندي عشرةً من الأولاد ما قبَّلت واحدًا منهم. فقال ﷺ: «أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك، من لا يَرْحَم لا يُرحم»[1].

وثبت عنه ﷺ أنه كان يحمل أُمامة ابنة ابنته زينب على كتفه في الصلاة، فإذا سجد؛ وضعها وإذا قام؛ رفعها.

وارتقى الحسن على ظهره وهو ساجد؛ فأطال السجود خشية أن يفزع الطفل أو يؤذيه.

وكان ﷺ يحفظ جميل خديجة فإذا عاتب إحدى زوجاته؛ كان يقول: أين خديجة؟ وفت وقامت معه ونصرته وآوته ورزق منها الأبناء إلى غير ذلك، حتى تقول عائشة: ما غرت من امرأة غيرتي من خديجة، وقد ماتت ولم أرها. ومن كثرة ذكر رسول الله ﷺ لها ووفائه لعهدها، أنه كان يذبح الشاة ويقيمها في خلائل خديجة، الأمر الذي جعل شوقي يمدح رسول الله ﷺ بقوله:

وإذا صَحِبْتَ رَأَى الوَفَاء مُجَسَّمًا   في بُردِكِ الأصحابُ والخُلَطَاءُ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٣١٧).

وإذا أخذتَ العهدَ أو أعطيته فجميعُ عَهْدِك ذِمَّةٌ ووَفَاءُ

ويوم أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ كان حدثًا عالميًّا ونبأ عظيمًا لا يدور بالخيال، ولا يخطر على البال، ولا يتصوره أحد من البشر في الأرض، جاءه وهو في الغار يتحنث، ولما كان الأمر صعبًا وشاقًّا على نفس رسول الله ﷺ ذهب إلى زوجته خديجة، ترتعد فرائصه، ويتصبب عرقًا، ويرتجف فؤاده، فدخل عليها وهو يقول: «زمّلوني زمّلوني» أي: غطوني، ولكن خديجة المرأة العاقلة الحصيفة قالت: «كلا والله، لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1].

فليبشر كلّ من كانت خصاله حميدة، وأخلاقه حسنة، وأفعاله صالحة، وسلوكياته طيبة، ومواقفه مشرقة، بأنَّ عاقبته حميدة، ومآله إلى رشاد وتوفيق من الرحمن.

قال صاحب الطحاوية: «فانظر كيف استدلت بعقلها ورشدها على أن الأفعال الجميلة لا تورث صاحبها ـ إن شاء الله ـ عاقبة سيئة، وهذا أمر معهود وسُنَّة من سُنن الله ﷻ في الناس، ومصداق ذلك قوله ﷺ: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء»[2]. فلا تجد أحدًا من أهل الخير، وأصحاب المروءات والأعمال الحسنة يموت ميتة سوء، فمن يحافظ على صلاته ويداوم على قراءة القرآن، ويلهج بذكر الله؛ هل يتصور أحد أن الله ﷻ يخذله أو يضله فيموت وكأس الخمر في يديه؟ لا. وألف لا، فمن ظن أن الله يفعل ذلك؛ فقد ظن به ظن السوء، إن الله ﷻ لا يظلم الناس شيئًا.

وكان ﷺ أوصل الناس لرحمه، حتى إنه كان يسأل عمن أرضعته ويكرمها ويحتفي بها، تأتي حليمة السعدية مرضعته، فيقوم لها ويجلسها مكانه ويكرمها، وكان يزور أم أيمن، وكان يسأل عن صديقات خديجة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣)، ومسلم (رقم ١٦٠).

(٢) أخرجه الحاكم (١/١٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٣٧٩٥).

فيصلهن بالهدايا واللحم، وكان يصل عمه أبا طالب، حتى زاره في مرض الموت، وكان على أمل أن ينفتح قلبه لهذا الدين وهذا النور.

أما قول خديجة: وتحمل الكل، فمعناه: أي تعين على المصائب الكبار، والأمور الشاقة الثقيلة، فلا يحملها إلاّ الرجال، فكان يحمل عن الناس ويخفف عنهم، ويواسيهم، ويداويهم.

قالت: وتكسب المعدوم؛ إذ كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، وكان إذا سئل أي شيء لا يقول: لا[1]. حتى إنه سئل ثوبه الذي يرتديه فلم يمنعه عن السائل، فأعطاه إياه مع أنه في حاجة إليه. وعندما لام الصحابة هذا الرجل قال: أريد أن أكفن فيه، وقد صار كفنه بالفعل[2].

قالت: وتقري الضيف؛ حيث كان ﷺ يكرم الضيوف، ويقدم لهم ما عنده، الكثير والقليل، وليست الضيافة بالتكلف، وصح عنه ﷺ أنه نهى عن التكلف؛ قال عمر: «نهينا عن التكلف»[3]. وقال ﷺ: «لا خير فيمن لا يضيف»[4]. وقال أيضًا ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[5]. فكان رسول الله ﷺ أكرم الناس للضيف.

وقولها: وتعين على نوائب الحق: معناه أنه ﷺ كان يقف مع المسكين، والفقير، والضعيف، ومع من أصابته جائحة أو فاجأته حادثة.

إن الإسلام ليس مثاليات في الأذهان، وليس متونًا تحفظ في الصدور، ثم لا تطبق على أرض الواقع.

إن الذي يتشاغل بحفظ مختصر الزبيدي ليلًا ونهارًا، وهو يسمع بالجنائز تمر من أمامه، ولا يحضر للصلاة عليها، ويسمع بالمرضى على

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٤)، ومسلم (رقم ٢٣١١).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٦).
(٣) أخرجه البخاري من قول عمر (رقم ٧٢٩٣).
(٤) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٧٤٩٢).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦٤٧٦)، ومسلم (رقم ٤٨).

الأسرة البيض ولا يزورهم ويواسيهم، أو يسمع بالفقراء وهم يطرحون على الأرصفة يعانون برد الشتاء وحر الصيف، ثم لا يقف معهم ويمد لهم يد العون، أو مَن يسمع بالمنكوبين في بلاد العالم ولا يتفاعل معهم، ويشغل باله فيهم ويسعى جاهدًا لخدمتهم، إنَّ من كان كذلك واتخذ الحديث والعلم تلاوة وحفظًا فقط؛ فقد صار ذلك حجةً عليه.

أعانت خديجة رسول الله ﷺ على رسالته في تلك الفترة الحاسمة، وهي أشد فترة وأخطر مرحلة مرّ بها رسول الله ﷺ، إنها فترة الأذى، والتكذيب والتُّهم والصد، فلقد وقفت مع زوجها مواقف رائعة ماتعة، وقد قيل: وراء كلّ عظيم امرأة، وهذا مثل حق وصدق إذا وضع في مجراه الصحيح وسياقه الراشد، فقد وقفت معه في الأزمات، والنكبات والكوارث والشدائد، والمِحَن، والبلايا، تواسيه، وتشد من أزره، وتخفف عنه، وتزيل الهم، والغم، والكرب، وتنفس عنه، وقفت معه مواقف جليلة عظيمة عجز عنها كثير من الرجال؛ بل كثير من القبائل بأسرها.

والله يحفظ الجميل لمن أسداه، فمن أحسن في الليل؛ كافأه الله بالنهار فأعطاه ومنحه، ومن أحسن في النهار؛ كافأه بالليل، وهذا في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من أجر جزيل، ولا يحرم أجر الدنيا ـ أيضًا ـ من انشراح الصدر، وإزالة الهموم والمِحَن، وتفريج الكروب والشدائد.

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال لخديجة: «هذا جبريل أتاني يخبرني أن الله يقرأ عليك السلام»[1]. فأية منزلة مثل هذه المنزلة، الله ﷻ الملك الخالق يقرأ عليها السلام.

فقالت: الله السلام ومنه السلام، وعليك وعلى جبريل السلام.

قال أهل العلم: هذا من عقلها، فإنَّها لم تقل: على الله السلام؛ لأن الله لا يدعى له بالسلام، فهو سبحانه السلام، وهو الذي سلم عباده، وهو سبحانه الذي يمنح السلامة لمن شاء من عباده.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٢٠)، ومسلم (رقم ٢٤٣٢).

فهذه مكافأة لها على وقوفها مع رسول الله ﷺ.

وبشَّرها ببيت في الجنة، فقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «يا خديجة، إن الله يبشِّرك ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب»[(1)].

ولنا وقفات مع هذا الحديث:

الوقفة الأولى: لماذا قال: بيتًا، ولم يقل قصرًا؟

قيل: لأنها أنشأت مع رسول الله ﷺ بيت الزوجية، فكان بيتهما أحسن بيت في العالم، وأنقى بيت في الدنيا.

الوقفة الثانية: لماذا قال: من قصب؟

قيل: لأنها حازت قَصْب السبق في الخير، وكانت أول امرأة آمنت وأسلمت، والقصب هو اللؤلؤ المجوف، واللؤلؤة الواحدة مجوفة، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

الوقفة الثالثة: قوله: لا صخب، أي: لا صياح، أو ضجيج، أو تهويش، فقد كان بيتها هادئًا مريحًا مطمئنًا، وليس فيه تعب، بل هي تحملت التعب عنه ﷺ، وأزالت عنه الهموم، والغموم، والكروب من أجل راحته وسعادته.

لذا أوصي كلّ امرأة مسلمة أن تهدئ بيتها، وتبعد عنه التهويش، والضجيج، والصخب، والتعب، فإن هذه هي العقبات الكبرى في طريق الحياة السعيدة.

لما علم ورقة بن نوفل بما حدث لرسول الله ﷺ وذهبت خديجة إليه لتخبره؛ طمأن الرسول ﷺ وأخبره أنه الناموس الذي كان ينزل على موسى عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٢٢٩)، ومسلم (رقم ٢٤٣٤، ٢٤٣٥).

وأخبره - أيضًا - بأن قومه سوف يكذبونه ويؤذونه ويخرجونه من وطنه.

فوقف رسول الله ﷺ عند قوله: لتخرجن. فقال: «أو مخرجيَّ هم؟!» فانظر إلى نزعة حب الوطن في النفس البشرية.

وقد كان رسول الله ﷺ وفيًّا لخديجة بعدما توفيت، فلم يقطع ذكرها، وكان يتصدق عنها، ويبر ويصل الرحم التي لا توصل إلاّ بها، ويصل صديقاتها، ولذا ينبغي لمن كان لديه زوجة صالحة ففارقها لسبب شرعي أو ماتت عنه أن يحفظ سرها، ويصل رحمها، ويدعو لها.

الدروس والعبر من هذا الزواج المبارك:

١ - السمعة الحسنة وأثرها في القبول عند الناس؛ فإن من أعظم ما يمنحه الله العبدَ في الحياة الدنيا أن يكون له سمعة حسنة طيبة وثناء جميل، فها هو الخليل إبراهيم عليه السلام يسأل ربه أن يكون له ذكر طيب، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فإذا عمل الإنسان عملاً حسنًا؛ أتاه الناس بذكر جميل، وثناء طيب، فكان ذلك بشرى للمؤمن، كما قال ﷺ: «تلك عاجل بشرى المؤمن»(١) وإذا أحب الله عبدًا؛ أمر جبريل أن يحبه، ثم يوضع له القبول في الأرض.

٢ - فارق السن لا أثر له إذا حصلت المودة، وإذا كانت الكبيرة عاقلة ورشيدة ودِيِّنة وصاحبة نضج وتجربة؛ وبهذا يُرغب في الزواج منها.

٣ - الزواج بالثيب حَسَنٌ إذا كان لها مزايا كأن تكون عاقلة وخيرة وفاضلة وذات أدب وحكمة.

٤ - بشرية محمد ﷺ، فهو بشر، يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، وليس فيه شيء من الألوهية، وليس ملكًا من الملائكة.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٤٢).

٥ ـ المرأة العظيمة مدد مبارك لزوجها، فإذا تَرَبَّتِ البنتُ تربية صالحة طيبة مباركة، وخرجت من بيت مستقيم طاهر؛ كانت مثالاً صالحًا للزوجة الناجحة والسعيدة، وأمَّا صالحة، تنشئ أجيالاً، وتبني رجالاً، وتقدم خيرات كثيرة لدينها وأمتها، ولنفسها، حيث صلاح الذرية يعود بالنفع على الأبوين في الآخرة.

٦ ـ المبادرة بالزواج في سن الشباب: حيث قال ﷺ: «يا معشر الشباب، مَن استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومَن لم يستطع؛ فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»(١).

ومن فوائد المبادرة بالزواج: تقوى الله ﷻ وإقامة البيت المسلم، واستثمار زهرة العمر، ووفور الصحة.

٧ ـ التكسب بالتجارة، وطلب الرزق، فمن سيرته ﷺ مع خديجة أنه ذهب للتجارة. أما من يترك العمل، والضرب في الأرض لتحصيل الرزق بحجة الزهد والورع؛ فهذا ليس من الإسلام في شيء، بل إن كثيرًا من علمائنا كانوا أهل حرف ومهن، فأبو بكر الصديق كان يبيع الإبل والغنم، وسعيد بن المسيب كان يبيع الزيت، وهذا الفراء النحوي الشهير العابد كان يدبغ الفراء، وهذا الزجاج كان له زجاج يصلحها ويبيعها، وهذا أبو حنيفة كان له بز يبيعه، وهكذا. أما أن يلبس الإنسان المرقّع والمقطّع، ويترك العمل، ويزعم الزهد، ويدعي الورع، وقد يصل به الحال إلى أن يدور حول موائد اللئام؛ فهذا ليس من الإسلام في شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٠٦٥، ٥٠٦٦).

اتصال الأرض بالسماء

ينزل جبريل عليه السلام بأمر الواحد الأحد من السماء إلى الأرض، يحمل أعظم رسالة، وأشرف كلام وأفضل دين، يبلغه إلى محمد ﷺ رسول رب العالمين إلى الإنس والجن أجمعين؛ ليغير حياة البشرية، ويبدل وجه الأرض بالنور والهدى المنزل من السماء، ولينشر العدل والإيمان والهداية في أرجاء الدنيا، فقد كان اللقاء بين الأرض والسماء، بين جبريل ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - أعظم لقاء في حياتنا، فمنه بدأت البركة، وبدأ النور يبدد الظلمات، وطفق العدل يطارد الظلم والجور والبغي والعدوان، وراح الهدى يزيل الضلالات ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢].

ونحن نعيش الآن في آثار هذا اللقاء المبارك، آثار طيبة مباركة، نحياها في صلاتنا وصيامنا وحجنا، في دروسنا وتعلمنا، في جهادنا ودعوتنا وحسبتنا، نعيش في آثار ذلك اللقاء الطاهر النقي الواقع في غار حراء، فلله الحمد أن بعث فينا معلِّمًا رسولاً، وهاديًا كريمًا، ولله الحمد أن نزل جبريل على محمد في ذاك الموقف، وتلك الليلة، وهذا المكان.

محمدٌ في فؤادِ الغارِ يرتجفُ ... في كفِّه الدهرُ والتَّاريخُ والصحفُ
مُزَمَّلٌ في رداءِ الوَحْيِ جلَّلَهُ ... نورٌ من اللهِ لا صُوفٌ ولا خَصَفُ
والكفر يا ويحَهُ غضبانُ من أسَفٍ ... لم يُبقِهِ الحِقْدُ في الدُّنيا وَلا الأسَفُ
ولا رَعَتْهُ سيوفٌ كُلُّهَا كَذِبٌ ... في صَوْلَةِ الحَقِّ والإيمانِ تَنْقَصِفُ

قال ابن إسحاق: «فلما بلغ محمد رسول الله ﷺ أربعين سنة بعثه الله ـ تعالى ـ رحمة للعالمين، وكافة للناس بشيرًا، وكان الله ـ تبارك وتعالى ـ قد أخذ الميثاق على كلّ نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر له على من خالفه، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كلّ من آمن بهم وصدقهم، فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه. يقول الله ـ تعالى ـ لمحمد ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي: ثقل ما حملتكم من عهدي، ﴿قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. فأخذ الله ميثاق النبيين جميعًا بالتصديق له والنصر له ممن خالفه، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم، وصدقهم من أهل هذين الكتابين».

قال ابن إسحاق: «فذكر الزهري عن عروة بن الزبير عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها حدثته: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من النبوة، حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به، الرؤيا الصادقة، لا يرى رسول الله ﷺ في نومه رؤيا إلاّ جاءت كفلق الصبح».

قالت: «وحبب الله ـ تعالى ـ إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلو وحده»[1].

قال ابن إسحاق: «وحدثني عبدالملك بن عبيد الله بن أبي سفيان بن العلاء بن جارية الثقفي، وكان واعية عن أهل العلم: أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسّر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة، وبطون أوديتها، فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلاّ قال: السلام عليك يا رسول الله.

قال: فيلتفت رسول الله ﷺ حوله، وعن يمينه وشماله، وخلفه، فلا يرى إلاّ الشجر والحجارة، فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣)، ومسلم (رقم ١٦٠).

شاء الله أن يمكث، ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء في شهر رمضان»[1].

بلغ رسول الله ﷺ سن الأربعين، وهي السن التي يكتمل فيها عقل الإنسان وإدراكه ورشده ووعيه. فاختاره الله ـ سبحانه ـ في هذا السن، وقد ورد في التفاسير: أن الله لم يبعث نبيًّا إلاّ في سن الأربعين، حتى يقول الشاعر:

وماذا يَبْتَغِي الشُّعَرَاءُ مِنِّي ... وَقَدْ جَاوَزْتُ حَدَّ الأرْبَعِينِ
أنَا ابنُ جَلاَ وَطَلاَّعِ الثَّنَايَا ... مَتَى أَضَعُ العِمَامَةَ تَعرِفُونِي

أي كيف ترجون أن أسقط وأن أجهل وأطيش وأسفه وقد بلغت سن الأربعين؟!

وورد عن عمر أنه قال: «الشباب شعبة من الجنون». لكن على الشباب أن يتوب، وأمّا من بلغ الأربعين وطر شعر رأسه بالشيب، وأصبح فوده محترقًا بالبياض، فلا يناسبه أن يطيش أو يسفه أو يزل أو يخطئ طريق المسجد، ولا أن يهجر المصحف، أو يتنكب طريق الهداية، يقول أبو الفتح:

هب الشبيبةَ تُبدي عذرَ صَاحِبِها ... مَا بالُ أَشْيَبَ يستهويهِ شَيْطَانُ

أي: إذا فرضنا أن الشبيبة يعذر صاحبها إذا استهواه الشيطان، فما بالك بالشيخ الذي بلغ المشيب فيه مبلغه.

فالحاصل أن الله أراد لهذه البشرية خيرًا، فعلّم رسوله ودرَّبه وجعله يعيش في وسط الكفار، فلو كان رسول الله ﷺ ملكًا من السماء، لقالوا: ما نستطيع، هذا ملك من السماء لم يعش معنا، ولم يعرف احوالنا، وبذا لم يقبلوا منه ما أتى به، ولكن الله أحياه بين قومه، جاع كما جاعوا، وبكى كما بكوا، وضحك كما ضحكوا، ونام كما ناموا، وصحا كما صحوا، فلما

---

(١) «السيرة النبوية» (١/٢٩٦ ـ ٢٩٨).

بلغ الأربعين، سن الرشد لمثلي ومثلك؛ كان رشده رشدًا آخر، فهو لا يوازن به بشر، ولقد رأى ﷺ في المنام أن ميزانًا نزل من السماء له كفتان فوزن في كفة، ووزنت أمته كلها في كفة؛ فطاشت أمته، ورجح هو، فهو أرجح منا أجمعين، وركعة من صلواته أحسن وأفضل من ركعاتنا كلها، وما سبَّح مُسَبِّح أو صلَّى مصلٍّ أو زكَّى مزكٍّ؛ إلا له من الأجر مثل أجور مَن تبعه؛ لحديث: «من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله»[1]. وحديث: «من سنَّ سُنَّةً حسنةً؛ فله أجرها وأجر مَن عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء»[2].

ورسول الله ﷺ هو الذي دلَّ الأمة على السنن، وهو الذي علّم الأمة الصلاة، والصلاح، والخير إلى يوم القيامة، فله ـ بفضل الله ـ مثل أجور من تبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيء.

كان ﷺ يتحنث قبل البعثة في غار حراء، وقد أراد الله ﷻ للدنيا بأسرها الخير؛ فاختار هذا الإنسان من وسط الدنيا، من أحسن الأسر، ومن أفضل القبائل، ومن أشرف الأفخاذ، ومن أطهر الأنساب، ومن أنقى البيوت، ثم رشحه وهيَّأه لقيادة البشرية، وتحرير العالم، وإنقاذ الدنيا من الكفر والطواغيت، فكان قبل الرسالة يتزود ويذهب إلى غار حراء، فيجلس ويعتزل الناس ويفكر، وليس عنده وحي، ولا يعرف كيف يتوضأ ويصلي، وليس عنده كتاب ولا مصحف، فيجلس ويتأمل في الكون.

انظر إلى الهمة العالية عندما يأتي رسول الله ﷺ إلى غار حراء، فيمكث فيه الليالي ذوات العدد بلا زوجة، ولا ابن، ولا مسامر، ولا صديق، وفي هذا الليل البهيم يتفكر، ويتأمل، ويعمل عقله وقلبه في المخلوقات من حوله ومن فوق رأسه، يتفكر في عظمة الخالق، وفي بديع صنعه سبحانه، وبينما هو كذلك، إذ ينزل عليه أمين الوحي جبريل عليه السلام، ينزل عليه، وهو يحمل أعظم كتاب، وأجل رسالة من رب العالمين إلى البشرية جمعاء.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٩٣).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٠١٧).

قال ابن الجوزي: روى مسلم في الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن صوم الاثنين فقال: «فيه ولدت، وفيه أنزل عليَّ»[1].

وقد رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «نزل جبريل على رسول الله ﷺ بالرسالة يوم سبع وعشرين من رجب، هو أول يوم هبط فيه».

وقال ابن إسحاق: «ابتدئ رسول الله ﷺ بالتنزيل في شهر رمضان».

وعن عائشة أنها قالت: أول ما ابتدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة، وكان لا يرى رؤيا؛ إلاّ جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخلاء، فكان يأتي جبل حراء يتحنث فيه، والتحنث هو تعبُّد الليالي ذوات العدد، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوّده لمثلها، حتى فجئه الحق، وهو في غار حراء، فجاءه جبريل فيه، فقال: اقرأ. قال رسول الله ﷺ: فقلت: «ما أنا بقارئ». قال: «فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١] قال: فرجع بها ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: «زملوني زملوني» فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال: «يا خديجة ما لي؟» وأخبرها الخبر. قال: «قد خشيت عليَّ» فقالت له: كلا، أَبشِرْ فوالله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديثَ، وتحملُ الكلَّ، وتقري الضيف، وتعينُ على نوائب الحق»[2].

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبدالعزى بن قصي، وهو ابن عم خديجة، أي: أخو أبيها، وكان امرءًا تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فكتب بالعربية من الإنجيل

(١) أخرجه مسلم (رقم ١١٦٢٥/١٩٨).

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٣).

ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت خديجة: أي ابن عم؛ اسمع من ابن أخيك.

قال ورقة: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ ما رأى، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى ﷺ، يا ليتني فيها جذعًا، أكون حيًّا حين يخرجك قومك. قال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟ فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلاّ عُودِيَ، وإن يدركني يومك؛ أنصرك نصرًا مؤزرًا. ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي فترة؛ حتى حزن رسول الله ﷺ - فيما بلغنا - حزنًا غدا منه مرارًا لكي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل عليه السلام، فقال: «يا محمد، إنك رسول الله حقًّا». فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه ﷺ فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي؛ غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل؛ تبدى له جبريل عليه السلام فقال مثل ذلك. أخرجاه في الصحيحين[(١)].

وعن جابر بن عبدالله قال: سمعت النبي ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه: «فبينا أنا أمشي، سمعت صوتًا من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بـ «حراء» جالس على كرسي بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعبًا، فجئت فقلت: زملوني زملوني، دثروني، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ①﴾» أخرجاه في الصحيحين[(٢)].

ومعنى فجئثت: فرقت، يقال: رجل مجؤوث[(٣)].

وقال ابن كثير: «ولما أراد الله - تعالى - رحمة العباد، وكرامته بإرساله إلى العالمين؛ حبِّب إليه الخلاء، فكان يتحنث بغار حراء، كما كان يصنع ذلك متعبدو ذلك الزمان، كما قال أبو طالب في قصيدته المشهورة اللامية:

وثور، ومن أرسى ثبيرًا مكانه ... وراق لبرٍّ في حراء ونازلِ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٩٩)، ومسلم (رقم ١٦٠).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤)، ومسلم (رقم ١٦١).
(٣) «صفة الصفوة» (١/٣٩ - ٤١).

ففجأه الحق وهو بغار حراء في رمضان، وله من العمر أربعون سنة، فجاءه الملك فقال له: اقرأ. قال: لست بقارئ. ثلاثًا. ثم قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥]، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، فأخبر بذلك خديجة وقال: «قد خشيت عليَّ عقلي» فثبتته وقالت: أبشِرْ، كلا. والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتعين على نوائب الحق. في أوصاف أخرى جميلة عددتها ـ من أخلاقه ـ عليه، تصديقًا منها له، وتثبيتًا وإعانة على الحق، فهي أول صدِّيقٍ له رضي الله عنها وأكرمها.

ثم مكث رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يمكث لا يرى شيئًا، وفتر عنه الوحي، فاغتم لذلك، وذهب مرارًا ليتردّى من رؤوس الجبال، وذلك من شوقه إلى ما رأى أول مرة، ومن حلاوة ما شاهده من وحي الله إليه».

فقيل: «إن فترة الوحي كانت قريبًا من سنتين أو أكثر، ثم تبدَّى له الملك بين السماء والأرض على كرسي، وثبته وبشَّره أنه رسول الله حقًّا، فلما رآه رسول الله ﷺ فَرَق منه، وذهب إلى خديجة، فقال: «زملوني، دثروني» فأنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾[1] [المدثر: ١ ـ ٤] فكانت الحال الأولى حال نبوة وإيحاء»[2].

وقال ابن القيم: «بعثه الله على رأس أربعين، وهي سن الكمال. قيل: ولها تبعث الرسل، وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه».

وأول ما بدئ به رسول الله ﷺ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصبح. قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة. والله أعلم.

---

(١) تقدم تخريجه ص (٤٣).

(٢) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» (ص ٥٩ ـ ٦٠).

ثم أكرمه الله ـ تعالى ـ بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يحب الخلوة فيه أول ما أنزل عليه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ هذا قول عائشة والجمهور، وقال جابر: أول ما أنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾[1].

والصحيح قول عائشة لوجوه:

أحدها: أن قوله: «ما أنا بقارئ» صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئًا.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار، فإنه إذا قرأ في نفسه؛ أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولاً، ثم الإنذار بما قرأه ثانيًا.

الثالث: أن حديث جابر وقوله: أول ما أنزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ قول جابر. وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولاً قبل نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ فإنه قال: «فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء، فرجعت إلى أهلي فقلت: زمّلوني دثّروني». فأنزل الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾وقد أخبر أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ فدلَّ حديث جابر على تأخر نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ والحجة في روايته لا في رأيه، والله أعلم[2].

فكان أول لقاء بين جبريل ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ حدثًا مهمًّا ولقاءً خطيرًا، تتصل الأرض بالسماء في هذا اللقاء من غير موعد سابق، يأتي جبريل ليبلغه رسالة ربه، ولم يأته في صورته التي خلقه الله عليها، ولو جاء لما أطاق رؤيته، ولكن في صورة إنسان، وكان دائمًا يأتي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤)، ومسلم (رقم ١٦١).

(٢) «زاد المعاد» (١/٨٤ ـ ٨٥).

في صورة دحية الكلبي، ولما قابله في هذه المرة ضمه إلى صدره ضمة إيناس وتطمين، وكان في هذا اللقاء من الحِكَم واللطائف ما يأتي:

١ ـ تطمينه ﷺ وإزالة الوحشة عنه، وقيل، غطه وضمه ليتحمل وليأخذ الكتاب بقوة، وليعلمه بأن الوحي نزل بجهد ومشقة، فلينتبه لذلك؛ ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥].

٢ ـ فضل العلم وفوائد المعرفة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١].

وبكلمة ﴿ٱقْرَأْ﴾ بدأت الهداية وبدأ النور، فهي أول كلمة نزلت من السماء تحث على العلم، وتدعو إلى المعرفة، ففي العلم الخير والهداية والنور، ومَن حُرِم القراءة؛ فقد حُرِم خيرًا كثيرًا؛ لأن رسالة نبينا محمد ﷺ بدأت بالعلم والمعرفة والثقافة، فرسالتنا رسالة علم، وديننا دين علم، فهو يدعو إلى التعلُّم، وطلب المعرفة من مظانها، ومَن ظن أنه سوف يهتدي وسوف يرتقي بلا علم ولا فقه؛ فقد أخطأ وتنكب عن الصراط.

تنطَّع بعض الناس، وتركوا سبل العلم، وهجروا العلماء، وخاصموا القلم والكتاب، وقالوا: نحن نطلب العلم من الرزاق، وليس لنا حاجة في علم عبدالرزّاق ـ يقصدون عبدالرزّاق بن همام الصنعاني صاحب المصنف المشهور ـ فكذبهم أهل المعرفة والعلماء الربانيون وقالوا: والله لولا الله ثم عبدالرزّاق؛ ما عرفتم الخلّاق الرزاق، ولكنكم تعيشون في وهم.

فالمقصود علينا واجبَ تعلُّم العلم النافع بدليل قوله: ﴿ٱقْرَأْ﴾. وأخذ منها بعض الفضلاء أن القراءة نعمة من النعم، من أدركها؛ عرف نعمتها وبخاصة إذا قرأ النافع المفيد، فإذا انزويت بكتاب نافع مفيد ولك فيه نهمة فكأنك ملكت الدنيا، يقول المتنبي:

أعزَّ مكانٍ في الدُّنَا سرجُ سابحٍ وخيرُ جليسٍ في الزمان كتابُ

فمَن حُرِم الكتاب، ومعرفة الكتاب، وصحبة الكتاب؛ فقد حُرِم خيرًا كثيرًا، وهذه المَلَكَة تأتي بالمران والدربة، والممارسة، تقرأ شيئًا فشيئًا، ثم يكون الكتاب لصيقًا بك، مصاحبًا لك، وملازمًا لك، بدليل: ﴿ٱقْرَأْ﴾. قال

أهل العلم: اقرأ مستعينًا بالله، اقرأ متوكلًا على الله، ابدأ متبركًا باسم الله المبارك، فإن رسالتك تبدأ من عند الله ببركة الله على نور من الله، فأول حركاته وسكناته ورسالته ودعوته تبدأ باسم الله، فكل أمرٍ خيّرٍ عليك أن تبدأه باسم الله.

وفي قوله: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ لطيفة: أي الذي ربَّاك وأحسن إليك، وأياديه ونِعَمه عندك، فهو سبحانه المُنْعِم عليك، وهو صاحب الأيدي والجميل والعطاء الجزيل.

ولنا هنا وقفات:

الأولى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾؛ لأن القضية الكبرى هي خلق هذا الكون، فمن خلقه؟ هو الله سبحانه، وهو الذي يستحق العبودية والتذلل والخضوع له، بل إن خلق الكون، وخلق الإنسان، وخلق الملائكة، وخلق الجان، وخلق كل شيء من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله وقدرته ﷻ.

الثانية: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ وقد ذكر القلم هنا؛ لأنه مفتاح الخير، وفي هذا دلالة على فضل القراءة والكتابة، وقد أقسم الله بالقلم في آية أخرى؛ لبيان عظمته وخطورته، فقال سبحانه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [ن: ١]، فالقلم أمره عجيب ونبؤه غريب، القلم صامت، ولكنه أفصح الأشياء، حتى عقدت فيه مقامات، ونظمت فيه قصائد.

إن القلم شريف يكتب به الوحي والأحاديث والرسالة، وهو الذي حفظ لنا العلم، وسجلت به ملايين الكتب، ومن حمله بأدب وإنصاف، ونصح به، ونصر به الأمة؛ كان أقوى من كثير من الجيوش الجرَّارة، سواء كان كاتبًا أو مفتيًا، أو خطيبًا، أو واعظًا، ومن اتقى الله فيه إذا رفعه وإذا فتحه وإذا نكّسه، فخاف الله فيما يكتب، ودعا إلى الدين كان من أعظم المجاهدين. أما إذا نكَّسه بخبث وخيانة لله ولرسوله؛ فسوف يلقى الله وهو أسود الوجه، لأنّ الله حرّم الخيانة على الكتاب والعلماء والوزراء والأمراء والرؤساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٧].

ومن فضل القلم: أن الله يسجل على العباد أعمالهم بالأقلام عند الملائكة، ومن فضل القلم: أنه كتب به في اللوح المحفوظ. وهو أول ما خلق الله فقال: اكتب. فكتب مقادير كلّ شيء قبل أن يخلق الله السماوات والأرض، فالرزق والأجل والهداية والسعادة والشقاء مكتوب عند الواحد الأحد. أما الحسنات والسيئات فتمحى وتثبت، قال الله ﷻ:

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩].

حالة الناس قبل الرسالة:

لقد كان العرب في جاهليتهم أمة متخلفة متخاذلة مشركة وثنية نجسة متقاتلة متناحرة، لا تفهم شيئًا، تعيش حياة البهائم، واسمع كلمة وشهادة صدق، قالها جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة، قال له: «أيها الملك، كنا قومًا مشركين لا نعبد الله، بل نعبد الأوثان والأصنام، نقطع الأرحام، ونتقاتل، ونشرب الخمور، فبعث الله لنا منا رسولاً نعرف نسبه، وحسبه، وصدقه، وأمانته، فأمرنا بالمعروف، ونهانا عن المنكر، ودلّنا على صلة الأرحام».

هذه حالة الناس، وانظر في تاريخ مكة وفي أيام العرب في الجاهلية وكتب التاريخ؛ لتعلم كيف كان يعيش العرب قبل مبعث النبي ﷺ، لا تاريخ ولا مبادىء ولا أخلاق، أناس كالبهائم يتقاتلون على مورد شاة، يتقاطعون ويسجدون للصنم ويعبدون الوثن، فلما بُعِثَ رسول الله ﷺ حرَّرهم وجعلهم عبيدًا لله، فهذا ربعي بن عامر يقول لرستم قائد الفُرس: «إن الله بعثنا لنُخْرِجَ العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

الله أعلم حيث يجعل رسالته:

قال كفار قريش: لماذا لم ينزل القرآن على تاجر غني من الطائف أو من مكة؟ على رجل من القريتين عظيم ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ

﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، فقال ﷻ رادًا عليهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فمعيشتهم الرُّز والسكر والشعير والدور والذهب والفضة والحمير والبغال، كلّ هذا مقسوم بينهم بنسب؛ هذا له كثير، وهذا له قليل، كلّ بقدره ونصيبه. أما الهداية والنور والإيمان والرسالة والنبوة، فهذه أمور لا يستحقها إلاّ من هو أهل لذلك، وهو محمد ﷺ أشرف البشر وأعظم الرجال، هو الذي يستحق حمل هذه الرسالة وهو أهل لأن يكون النبي الخاتم، والرسول المبلِّغ عن ربه، فإن الله ـ سبحانه ـ نظر إلى قلوب العباد جميعًا فوجد أن قلب محمد هو أبرَّها، وأصلحها، وأصدقها، وأنقاها، وأتقاها، فاختاره الله رسولاً للناس.

لذلك كان رسول الله ﷺ يقول: «إن أعلمكم بالله لأنا، وإن أتقاكم لله أنا، وإن أخشاكم لله أنا»[(١)].

في غزوة حنين أتى الناس رسول الله ﷺ يسألونه الغنائم، يقولون: أعطنا من مال الله، أعطنا من كذا. فتعلّق رداؤه فقال: «ردوا عليَّ ردائي أيها الناس، فوالذي نفسيّ بيده لو أن لي مثل جبال مكة إبلاً وبقرًا وغنمًا ومالاً لوزَّعتها فيكم، ثم لا تجدوني جبانًا ولا كذَّابًا ولا بخيلاً»[(٢)]، وصدق رسول الله ﷺ فهو أشجع الناس، وأصدق الناس، وأكرم الناس، لذا اختاره الله لرسالته، فهو خيار من خيار في كلّ شيء: في النسب، وفي الدار، وفي المضجع، وفي كلّ شيء، وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «خيار من خيار»[(٣)].

كان ﷺ قبل النبوة يرى الرؤيا فتأتي كفلق الصبح، ورؤيا الأنبياء حق، لذا عقد البخاري في صحيحه باب رؤيا الأنبياء حق. فالأنبياء لا تلعب بهم

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٠)، ومسلم (رقم ٢٣٥٦).

(٢) أخرجه النسائي (رقم ٣٦٨٨)، وابن حبان (رقم ٤٨٢٠)، والبيهقي في «السنن» (٦/٣٣٦).

(٣) ذكره ابن عدي في «الكامل» (٢/٢٤٨).

الشياطين، ولا يمكن أن يتخيلوا لهم، إنّما يأتيهم الحق، فها هو رسول الله ﷺ في معركة أُحُد ينظر إلى مصارع القوم، ويخبر بها الناس: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان. وكذا يرى رسول الله ﷺ في المنام قبل بدء المعركة فيقول: «ورأيت أن رأس سيفي أو ذبابة سيفي انكسرت، ورأيت بقرًا تنحر، ورأيت أنني أدخلت يدي في درع حصينة» قالوا: ما أوَّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «أما انكسار ذبابة سيفي؛ فرجل من قرابتي يُقتَل ـ فكان حمزة ـ، وأما البقر تنحر؛ فالمؤمنون يُقْتَلون[1] ـ فقُتِلَ سبعون من المؤمنين ـ وأما إدخال يدي في درع حصينة، فنعود إلى المدينة فنحصن ويؤمننا الله» فرؤياه حق عليه الصلاة والسلام، وقد قال: «وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا»[2]. فمن أراد أن تكون رؤياه صادقة فليصدق في اليقظة، لتأتي رؤياه صادقة. أما الكاذب الدجال؛ فإن رؤياه تكون مظلمة على قدر كذبه.

اللطائف من خلوته ﷺ:

أولاً: اعتزال الناس في أوقات الفراغ، والصحيح أن العزلة ما عزلت عن الشر والمعاصي والفتنة، بحيث لا تعتزل الناس في مجالس الخير، وصلاة الجماعة والجمعة، ودروس العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أما فضول المباحات ـ فضلاً عن المعاصي والفتن ـ فالعزلة العزلة، لذلك قال ﷺ لعقبة بن عامر: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك»[3].

وأحسن من ألف في العزلة أبو سليمان الخطابي، واستدل كثير من العلماء بأن رسول الله ﷺ كان يعتزل في غار حراء، فمن أراد أن يحقق علمًا أو مسألة؛ فليجعل له في الأسبوع يومًا أو بعض يوم، أو ساعة يخلو

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٢٢)، ومسلم (رقم ٢٢٧٢).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٦٣).
(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٢٤٠٦)، وقال: هذا حديث حسن، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ١٣٩٢).

بنفسه، فينقطع عن العالم وعن أهله وأبنائه، فيفكر في دينه، وفيما له، وفيما عليه، ويراجع حسابه، فقد يكون في ذلك تصحيح لمسيرته، وهذا دأب كثير من أهل العزم، وأصحاب الهِمَم العالية. أما من يضيع حياته وأوقاته في الخلطة، وليس له وردٌ من القراءة والأذكار، وليس له جلسة للمحاسبة والدعاء والتفكُّر؛ فسوف يكون ضائعًا والعياذ بالله، ولن يغير شيئًا، ولن يكون له شأن، مثله كمثل الملايين من البشر الذين لا يأبه بهم.

والنَّاسُ أَلْفٌ منهُمْ كَوَاحِدٍ ... وَوَاحِدٌ كَالأَلْفِ إنْ أمر عَنا

وهذا علي بن عبدالعزيز الجرجاني القاضي والأديب والعالِم والمؤرخ اعتزل في آخر عمره وكتب أبياتًا على باب دار يقول:

أنستُ بوحدَتِي وَلزمتُ بيتِي ... فدَام لِيَ الهَنا ونمَا السُّرور
وأدَّبني الزَّمَانُ فَلا أُبَالِي ... هُجِرتُ فلا أُزَارُ وَلا أَزُورُ
فلستُ بسائلٍ ما عشتُ يَومًا ... أَسَارَ الجيشُ أَوْ رَكبَ الوزِيرُ

يقول: أوصلتني التجارب إلى أن ألزم بيتي، وأكف نفسي وأستريح، ولا أزور أحدًا، ولا يزورني أحد.

أما في ميدان الدعوة والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فلا بد من مخالطة الناس، لحديث: «المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم؛ أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»(1)، فيجب على المسلم أن يخالط الناس في الخير، ويجتنبهم في الشر.

كيف يأتي الوحي لرسول الله ﷺ؟

قال ابن الجوزي: «عن عائشة أن الحارث بن همام سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني في

(1) أخرجه أحمد (٢/٤٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٣٨٨)، وابن ماجه (رقم ٤٠٣٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع» (رقم ٦٦٥١).

مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ، فيُفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانًا يتمثَّل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» قالت عائشة: وقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصَّد عرقًا». أخرجاه في الصحيحين[1].

وأخرجا من حديث يعلى بن أمية أنه كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي. فلما كان النبي ﷺ بالجِعرانة جاءه رجل فسأله عن شيء، فجاءه الوحي، فأشار عمر إلى يعلى: أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغط كذلك ساعة ثم سُرِّي عنه[2].

وعن زيد بن ثابت قال: «إني قاعد إلى جنب النبي ﷺ يومًا إذ أوحي إليه، وغشيته السكينة، ووقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة. قال زيد: فلا والله ما وجدت شيئًا قط أثقل من فخذ رسول الله ﷺ، ثم سُرِّي عنه» فقال: «اكتب يا زيد».

وفي أفراد البخاري من حديث زيد بن ثابت قال: أملى عليَّ رسول الله ﷺ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها عليَّ فقال: والله يا رسول الله، لو أستطيع الجهاد لجاهدت، وكان أعمى؛ فأنزل الله ﷻ على رسوله وفخذه على فخذي، فثقلت عليَّ حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سُرِّي عنه فأنزل الله ﷻ: ﴿غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ﴾.

وقال عبادة بن الصامت: كان رسول الله ﷺ إذا نزل عليه الوحي كرب له، وتربّد وجهه.

وقال أبو أروى الدوسي: رأيت الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وإنه على راحلته فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها تنفصم، وربما بركت،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢)، ومسلم مختصراً (رقم ٢٣٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٥٣٦)، ومسلم (رقم ١١٨٠).

وربما قامت موئدة يديها حتى يُسَرى عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان[1].

وقال ابن إسحاق: ثم تتام الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو مؤمن بالله مصدِّق بما جاءه منه، قد قبله بقبوله، وتحمّل منه ما حمله على رضا العباد وسخطهم، والنبوة أثقال ومُؤنة لا يحملها ولا يستطيع بها إلاّ أهل القوّة والعزم من الرسل بعون الله ـ تعالى ـ وتوفيقه لما يلقون من الناس وما يرد عليهم، مِمّا جاؤوا به عن الله سبحانه وتعالى.

قال: فمضى رسول الله ﷺ على أمر الله على ما يلقى من قومه من الخلاف والأذى[2]، أحيانًا كان يأتي جبريل إلى رسول الله ﷺ ويكلمه وهو في صورة رجل، وأحيانًا يأتيه مثل صلصلة الجرس. ولكنْ هنا سؤال: لماذا وصف رسول الله ﷺ الوحي الذي يأتيه بصلصلة الجرس مع العلم أنه قد صح في الحديث عنه ﷺ أنه قال: «لا تصحب الملائكة رفقة فيها كلب ولا جرس»[3].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فإن قيل: «المحمود لا يُشَبَّه بالمذموم، إذ حقيقة التشبيه إلحاق ناقص بكامل، والمشبه الوحي وهو محمود، والمشبه به صوت الجرس وهو مذموم لصحة النهي عنه، والتنفير من مرافقة ما هو معلق فيه، والإعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة، كما أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما، فكيف يشبه ما فعله الملك بأمر تنفر منه الملائكة؟ والجواب: أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس، فذكر ما ألف السامعون سماعه تقريرًا لأفهامهم»[4].

فإنه ﷺ شبّه الصوت بالصوت، ولم يتعرض للمحتوى، فلك أن تشبه

---

(١) «صفة الصفوة» (١/٤١ ـ ٤٢).

(٢) «السيرة النبوية» (١/٣٠٤ ـ ٣٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٢١١٣).

(٤) «فتح الباري» (١/٢٠).

شيئًا مباحًا بشيء مذموم في بعض الوجوه، ولا يدل ذلك على إجازتك للشيء المذموم، كما حصل في المنام أن رسول الله ﷺ عرضه عليه الناس، منهم مَن بلغ قميصه الترقوة، ومنهم من بلغ الثدي، ومنهم دون ذلك. قال: وعُرِضَ عليَّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، مع أن جر القميص محرم، ولكنه في المنام شيء آخر. قالوا: ما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال: الدِّين.

المقصود أن الوحي يكون شديدًا على رسول الله ﷺ فيأتي في صلصلة الجرس، وأحيانًا يأتي في اليوم الشديد البرد، فيقوم - عليه الصلاة والسلام - وجبينه عليه مثل الدرر والجمان، وإذا نزل الوحي وهو على الناقة بركت، كما حدث عندما نزل عليه قوله - سبحانه -: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، أخذت ناقته القصواء تبحث في الأرض، ثم بركت ومدّت جرانها وكادت تفصم.

فهذه مراتب نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وقد نزل عليه الوحي في ثلاث وعشرين سنة.

وهنا سؤال: لماذا لم ينزل القرآن مرة واحدة؟

إن القرآن لم ينزل على رسول الله ﷺ مرة واحدة؛ بل نزل منجمًا، بناءً على الحوادث والأحوال والمواقف حتى كمل الوحي بقوله - تعالى -:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ [البقرة: ٢٨١].

ولكنه لم ينزل على رسول الله ﷺ مرة واحدة ليثبت الله فؤاده على التدريج وليربيه وليزكيه وليطهره بهذا الكتاب العظيم: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

فمن أراد أن يتطهر ويتزكى فعليه بالقرآن، يقرأه على التدريج، وليقف عند معانيه ويتدبره، ويعيش حلاوته ويتذوقه، ويعمل به ويحاسب نفسه عند فواصله، ويجعله لجراح قلبه دواءً شافيًا ليجد الراحة والسكينة.

فقراءة الإيمان وقراءة التدبر والوعي؛ هي قراءة أصحاب رسول الله ﷺ، فقد كانوا يتعلمون عشر آيات ويحفظونها ويعملون بمقتضاها، فيتعلمون العلم والعمل معًا.

جاء عن بعض السلف أنه مكث في ختمة واحدة سبعة عشر عامًا، وبعضهم كان يختم في ثلاث سنوات، وبعضهم في سنة، يقف عند معاني الآيات ويتدبرها.

فمن كان له ختمة في كلّ شهر أو أقل من ذلك؛ فليجعل له ختمة أخرى طويلة بآيات محدودة، هذه للتدبر والإيمان والوعي، وتلك للمراجعة وتحصيل ثواب القراءة؛ لأن هذا القرآن هو النور والبركة، وهو الذي ربى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فما أجدرنا وما أولانا أن نتربى على هذا الكتاب العظيم في عصر عصفت فيه الفتن والشهوات والشبهات، وصدت كثيرًا من الشباب عن كتاب الله إلاّ مَن رحم ربك، فنجد بعض الشباب لا يفتح المصحف إلاّ في رمضان، ومنهم من حفظ المصحف كله أو أكثره، ثم مرت الأيام، وترك المصحف، وهجر القرآن فنسيه، وبعضهم اشتغل بنظم الشعر أو مطاردة الرياضة، أو مطالعة الفن أو اللهو، ومنهم من تحول إلى التجارة واشتغل بالأموال، ومنهم من يقرأ عشرين صحيفة ومجلة دورية ولا يقرب المصحف. فهذا هو الخذلان، والعياذ بالله، ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. هذا الكتاب العظيم هو النور، والروح، والهداية، والنجاة، والفلاح، والموعظة، والهدى، والبشرى، والشفاء، أَيُهْجَر كتاب بهذه الصفات هذا الهجران. فمن أين يهتدي الإنسان إذًا؟! وكيف يسعد؟! وكيف ينجو؟! وكيف يدخل الجنة؟!

نحن بحاجة إلى إعادة شبابنا وأمتنا إلى الله بعد أن شغلتهم القنوات الفضائية الهابطة، ومواقع الإنترنت الفاسدة، والمجلات الخليعة، ودعاة السوء والشر، ودعاة الانحراف الذين يقفون على أبواب جهنم، فليس لنا

مخرج إلاّ الكتاب والسنة، وليس لنا عصمة إلاّ بالوحي وبالرجوع إلى منهج الرسول ﷺ ومنهج سلف الأمة الصالح، أمّا ما سوى ذلك؛ فهو العار واللعنة، والدمار والشنار، والنار في الدنيا والآخرة.

لا شك أن الوحي نزل بشدة حتى قال أهل العلم: «ولا يستطيع حمل الرسالة إلاّ أولو العزم»، ولذلك اختار الله رسوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ فكان من أصبر الناس، وأشجعهم، وهيَّأه الله لذلك فقد ولد في أسرة كريمة، وعاش في بادية بني سعد، ورضع هناك حيث الفصاحة، ثم تولاه الله بالحفظ والرعاية، وكان قويًّا يتحمل الأعباء، وكانت قوَّته تعادل قوّة ثلاثين رجلاً.

أنتَ الشجاعُ إذا لقيتَ كتيبةً ... أدبْتَ في هولِ الرَّدَى أبْطالَهْ
وإذا وَعدتَ وَفَيْتَ فِيمَا قُلْتَه ... لا مَن يُكَذِّبَ قَوْلُه أَفْعَالَهْ

آتاه الله قوّة في القلب والنفس والعقل والرشد والجسم، ويذكر أن رسول الله ﷺ صارع ركانة وهو أقوى العرب على الإطلاق وأكبر مصارع، ولكن رسول الله ﷺ صرعه وطرحه أرضًا أكثر من مرة، فقام وشهد شهادة الحق.

يقول ﷺ: «لقد خشيت على نفسي»؛ لأن هذا أمر لم يعهده من قبل، ولم يقدم له بمقدمات، فاجأه الوحي في غار حراء، فخاف على نفسه فقال: «زملوني زملوني». فقالت له خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا.

ونزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١﴾ [المزمل: ١]، فهذه لعبادتك وتهيئتك النفسيّة ولتزكيتك وتطهير فؤادك فابدأ بنفسك. أما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١﴾ [المدثر: ١]. فهذه للناس لدعوتهم وإنذارهم وللجهاد والتضحية والانطلاق إلى العالم لإدخالهم في دين الله، فمن أراد أن يصلح بيته أو يصلح الناس فليبدأ بنفسه، ينهاها عن غيِّها ويقيمها على طاعة الله ﷻ وعلى الحق والهدى والنور، ويهذب أخلاقه؛ ولتكن للداعية أوراد من العبادة، وأذكار، وليحافظ على الصلوات.

يَا أيُّها الرَّجُلُ المُعَلِّمُ غَيْرَهُ هَلاَّ لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعلِيمُ
ابْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا فَإذا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ

وبعد الاعتناء بالنفس وتزكيتها وتربيتها وتطهيرها يكون التبليغ للآخرين. فإن من بلغ ما عنده من العلم؛ ورثه الله علم ما لم يعلم، وكل شيء تنفق منه ينقضي إلاّ العلم، كلما أنفقت منه زاد بإذن الله.

إذَا مَا لَمْ يَزِدْكَ العلمُ خيرًا فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا عَلِمْتَا
وَإِنْ أَلْقَاكَ فَهْمَكَ فِي مَهَاو فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهِمْتَا

وأي فهم لإنسان يبلغ من العلم والثقافة مبلغًا ثم يأتي بالقلم فيسله وينتقد الشرع والدين والأخلاق والمبادىء؟! وأي علم: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، ويكفي هذا كل ملحد وفاجر ورعديد، يحمل قلمًا مسمومًا يطعن في الدين، ويغمز بأهل الدين، فما أصعب حاله يوم القيامة عندما يجمع الله الأولين والآخرين، ويقف الإنسان ذليلاً حقيرًا مجردًا عاريًا لا أهل، ولا أصحاب، ولا مال، ولا منصب، ولا رئاسة، ولا حراسة فـ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤]، والمرصاد: هو المكان الخافي الذي يفجعك فيه القضاء والنصفة والانتقام، وهو أَخْذُه ـ سبحانه ـ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

أمية الرسول ﷺ:

لم يكن الرسول ﷺ يكتب أو يقرأ، بينما كثير من الصحابة يكتبون ويقرؤون، مثل الصديق، والفاروق، وعلي، والزبير، ومعاوية، وغيرهم، فما السر في ذلك؟ وما الحكمة في ذلك؟

لقد أراد الله ﷻ بحكمته ورحمته ألا يكتب أو يقرأ، حتى لا يُقال: إن هذا القرآن اكتتبه، أو إن هذا القرآن من تأليفه. ومع ذلك بَغوا؛ كما أخبر الله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥].

قيل عن الرسول ﷺ وعن رسالته: ﴿ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ مع أنه

لم يكتب ولم يقرأ، فمنعه الله من الكتابة والقراءة؛ ليثبت للناس صدق الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال ـ سبحانه ـ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وكذلك منع الله نبيّه من قول الشعر، فقال ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] حتى لا يُقال عن القرآن إنه شعر، بل جعله الله أميًّا فقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وهذه الأمية ـ في حق الرسول ﷺ ـ صفة كمال لا نقص فيها ولا عيب، ولذا قال رسول الله ﷺ: «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب»(١)، فصارت الأمية كمالاً في حقه ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩١٣)، ومسلم (رقم ١٠٨٠).

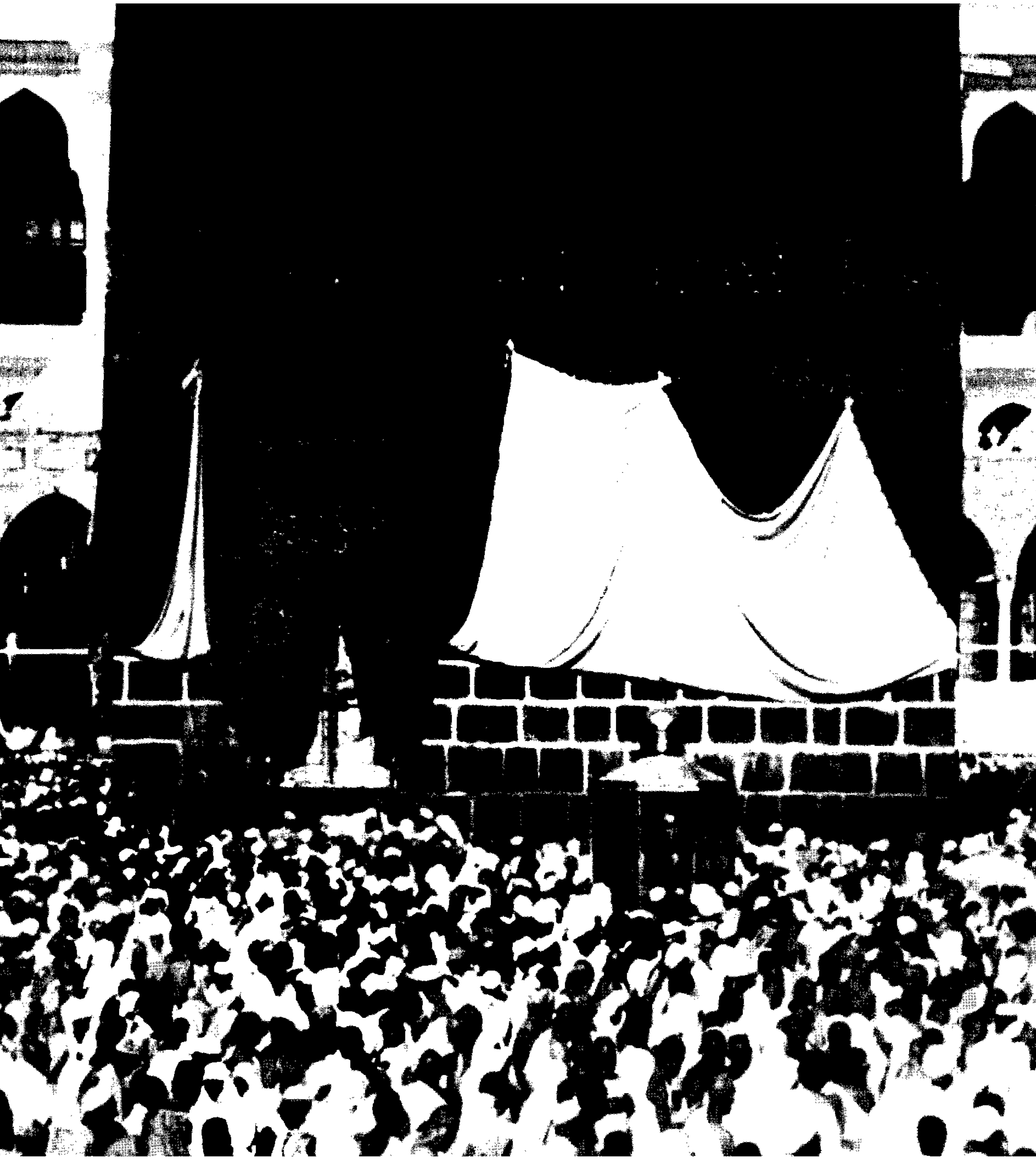

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾

كلَّف الله ﷻ رسوله محمدًا ﷺ بهذا الدين، وأمره بالقيام والإنذار، فماذا يفعل الآن؟ هل يبدأ بالجهاد والجلاد والمعاناة؟ وهل يهيئ نفسه لتلقي الأذى، والجِراح، والطرد والتشريد، والسب والشتم؟ أم ماذا يفعل؟ وهو مأمور بالدعوة، والإنذار، والإعذار، فلا راحة حتى يلقى الله سبحانه، قال ﷺ لخديجة - رضي الله عنها -: «ذهب وقت النوم يا خديجة»؛ لأنه نزل عليه ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: ٢]، فيا مَن تلقيت الوحي، ونزل عليك القرآن، وأتتك الرسالة ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، وفي هذا درس لكل من عنده علم أو شيء من القرآن والأحاديث، ألاّ يهدأ باله حتى يبلغه أسرته وجيرانه وأصدقاءه وكل من حوله.

أما إذا كان علم في الصدور، وعلم في السطور، ولم يصل إلى الناس، ولم يغير الفساد ويبدله؛ فما فائدته؟ وما نفعه في الأمة؟

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، هذه رسالته التي كُلِّف بها، يوجهها للقريب، وللعشيرة، وللبعيد، وللقوم، وللعالم أجمع، وللإنس والجن، ثم تأتيه الجراحات من كلّ جهة، وتتوالى عليه المعاناة في جسمه، وسمعته، وأهله، وقومه، فيشرد من الوطن، ويُعَذَّب أصحابه، وينال المشركون منه بالسب والاستهزاء والطعن، ولكنه يصبر ويصبر.

وشقت الصَّمت والأنسامُ تحملُها		تحت السكينةِ من دارٍ إلى دارِ
في كفه شعلةٌ تَهْدِي وفي دَمِهِ		عقيدةٌ تتحدَّى كُلَّ جبَّارِ

فمحمد ﷺ إمام الصابرين، وأسوة الأبطال والشجعان، وأستاذ المضحين، وأول الباسلين. ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، فليس الوقت وقت راحة ونوم وسكينة وهدوء، فأنت قائد البشرية جمعاء، وأنت منقذ العالمين، وأنت هادي الحيارى والضالين، فأنت أحسن الناس طبعًا، وخلقًا، وسجية، وكرمًا، ونفسًا، وهمةً، فسبحان من اختاره واصطفاه!

فرضت الصلاة وأتى جبريل عليه السلام يعلِّم النبي ﷺ كيف يصلي ومتى يصلي؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وربّه، بها تقوى الرابطة وتتهذب النفس وتتطهر الروح، إذًا لا بد للداعية أن يكون له عبادة وصلاة ونوافل وصلة بالقرآن: تلاوة، وتدبرًا، وحفظًا، وفهمًا؛ لكي يصمد أمام الحوادث، ويثبت أمام المُدلَهِمَّات ويصبر ويجاهد.

وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر، وضاقت به الضوائق وهجمت عليه جيوش الهموم والغموم واشتدت به الكربات؛ قال: «أرحنا بالصلاة يا بلال»[(1)]. فيقوم يصلي، فتهدأ روحه، وتسكن نفسه، وتتنزل عليه السكينة والهدوء والراحة والطمأنينة، ويتزود بالزاد الروحي، ويستمر في الدعوة.

فلا بد للإنسان أن يقتدي برسول الله ﷺ في قيامه للدعوة، فقد كان مثل السيف المصلت لا يلوي على شيء، أتى إليه الكفار وعرضوا عليه الدنيا فرفض، قدَّموا له الزوجة الحسناء والمال الوفير والذهب والقصور والملك والجاه، ولكنه اعتزّ بإيمانه وصلته بربه علي هذا كله فرفض، ولكن ماذا يريد الرسول ﷺ من وراء هذه المهمة التي كُلِّف بها؟ لم يرد شيئًا من أمور الدنيا قاطبة، لم يرد غير رضا ربه، ثم نجاة الناس وإدخالهم في دين الله، ثُمَّ فوزهم بالجنة في دار النعيم. لم يرد منهم غير أن يعبدوا ربهم، ويخلصوا له الدين، لم يرد منهم إلاّ أن يقولوا: لا إله إلاّ الله. من أجل ذلك صبر وصابر ورابط، ولم يعرف في حياته النكوص والرجوع إلى الوراء، ولم يجرب في حياته عيشة القهقرى، ولم يتذوق أبدًا طعم الهزيمة

---

(1) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٧٨٩٢).

والخور والخنوع والذل والمهانة، فهو ﷺ في الصف الأوّل من جيوشه، والمقدم أمام جنوده، لا يخشى الردى ﴿فَقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: ٨٤] في غزوة أُحُد يُقتل أصحابه، وتقطع رؤوس أحبابه، وتمزق أمامه كبدُ عمه حمزة، فيحزن لذلك أشد الحزن، ويقول: «والذي نفسيّ بيده، لئن ظفرت بهم لأمثلن منهم بسبعين»(١)، فأنزل الله ﷻ قول: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، فالأمر لله من قبل ومن بعد، يفعل ما يشاء ويختار ما يريد، وليس لأحد من البشر شيء، هكذا يُعَلِّم ربنا ﷻ نبيه ورسوله محمدًا، وهكذا ينبغي للدُّعاة أن يتعلَّموا هذا. ليس لنا من الأمر شيء، ولله الحكمة البالغة.

نزل جبريل عليه السلام ليعلم النبي محمدًا كيف يتوضأ، فتوضأ أمامه وصلَّى أمامه، فتوضأ النبي محمد كما توضأ جبريل، وصلى كما صلى جبريل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ. إذًا فالتطبيق العملي أفضل وسيلة في التعليم، لذا استخدم رسول الله ﷺ هذه الطريقة عندما أراد أن يعلم أصحابه كيف يصلون. فرقى المنبر وصلى أمامهم، وأخبرهم أن الصلاة هكذا، فمن أراد أن يعلم أبناءه وطلابه لا بد له أن يستخدم هذه الطريقة العملية، لإيصال المعلومة بوضوح وجلاء، فلا يكفي في مثل هذه الأمور التعليم النظري فقط، بل لا بد من هذا وهذا، كما فعل جبريل مع رسول الله ﷺ، فصلَّى به صلاتين لكل فريضة: صلاة في أول وقتها، والأخرى في آخر وقتها، وقال له: «الصلاة بين هذين الوقتين».

كما أن الصلاة أجلُّ الأعمال وأفضلها وأزكاها بعد الشهادتين، ولذا لا تترك حتى في وقت القتال والحروب ومواجهة العدو والسيوف على الرؤوس، من أجل ذلك كانت وصية رسول الله ﷺ في آخر حياته وهو يعاني سكرات الموت يقول: «الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٨/٣)، والحاكم (١٩٦/٣)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجه. وسكت عنه الذهبي.

(٢) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٣٨٧٣).

لقد كانت الصلاة تمثل أهمية عظمى في حياة المصطفى ﷺ، وكان لها شأن كبير ومنزلة كبرى، فها هو عبدالله بن مسعود ينقل لنا صورة من صور تعظيم رسول الله ﷺ للصلاة، فيقول ﵁: صليت مع النبي ﷺ ليلة فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء، قيل: وما هممت؟ قال: هممت أن أقعد وأذر النبي ﷺ.

وقال حذيفة بن اليمان: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى فقلت: يصلي بها في ركعتين، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذ تعوَّذ، ثم ركع.. » الحديث[1]، وقرأ ليلة وهو وجع السبع الطوال، وكان أحيانًا يقرأ في كلّ ركعة بسورة منها[2].

لقد كان رسول الله ﷺ أعبد الناس، وأتقاهم، وأخشاهم، وأصبرهم، يقوم في الليل حتى تتورم قدماه الشريفتان، وترى ذلك عائشة - ﵂ - فتشفق عليه، وتقول له: لماذا تفعل بنفسك هكذا؟ أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيقول لها ﷺ: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»[3].

وكان ﷺ يصلي صلاة خاشعة، ويتزود بها، ويعد نفسه؛ لكي يقدر على مقابلة الناس، ومقابلة الأحزاب التي تألفت ضده، فهذا الإعداد لمرحلة الدعوة والرسالة والمعاناة، ثم نزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فالأقربون هم الأولى بالمعروف، والأهل هُمْ أولى من غيرهم، فكيف يتركهم ويذهب إلى البعيدين، ينسى أسرته وزوجته وأولاده وإخوانه وأقاربه، ثم يذهب إلى أطراف القبائل والمدن، فالأولى والأهم هم أهل بيتك وأقرباؤك، وكيف تسعى إلى هداية الناس ولم تسع إلى هداية أهل

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٧٧٢).
(٢) انظر: «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص ٨٦ - ٨٧) للشيخ الألباني ﵀.
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٣٠)، ومسلم (رقم ٢٨١٩).

بيتك؟! كيف تدل الناس على الخير والنجاة وتحرم أهل بيتك من هذا الخير وهذه النجاة؟! ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ فذهب إلى الصفا، وهو مكان اجتماع الناس، وأشهر مكان، فصاح بأعلى صوته: يا بني عبد المطلب، يا بني هاشم، يا بني كعب بن لؤي؛ بصوت مجلجل يخلع القلوب.

يقول جابر: كان ﷺ إذا خطبنا علا صوته، واشتد غضبه، واحمرَّت عيناه، كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم(1). وفيه دليل على أنه ينبغي للخطيب والداعية أن يحرك القلوب، وأن يصل بكلمته إلى الأرواح ومستقر الأنفس، أما أن يموت على المنبر، ويقرأ علينا صحفًا اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، فيميت الخطبة، ويميت الموعظة بحجة تنميق العبارة والتربية والرفق بالناس. لا؛ لكل مقام مقال، فإذا خطب الخطيب في قضيّة ما فينبغي له أن يهز المنبر تحت قدميه، ولو مات أحد المصلين من تأثير الخطبة فلا بأس إذن. يقول أبو الحسن الندوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: خطبت في الكويت فأغمى على بعض الناس، فرأيتهم يرشونه بالماء في آخر المسجد. هذا هو الخطيب الذي يؤثر في الناس، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. الناس يستمعون على مدار الأسبوع للقنوات والمسلسلات والمغنيات والمطربات، ثم يأتون إلى خطبة الجمعة يستمعون إلى خطبة ميتة، وتجد بعض المصلين نائمين، عياذًا بالله.

وَإِذَا خَطَبْتَ فَلِلْمَنَابِرِ هِزَّةٌ ... تَعْلُو النَّدِيَّ وَلِلْقُلُوبِ بُكَاءُ

خطب ﷺ في يوم عرفة، وسمع خطبته مائة ألف، ووصل صوته ﷺ إلى الخيام كأنها الصواعق، يقول جرير بن عبدالله: قال ﷺ: «استنصت الناس» قال: فاستنصتَّهم قال: فخطب فأوصل الله صوته إلى كلّ أحد في الخيمة، وكانت كلماته جزلة قويّة مؤثرة حفظها التاريخ؛ لأنها لا تتكرر، قال: «أيها الناس، إنكم مسؤولون عني غدًا، فماذا أنتم قائلون؟» قالوا:

(1) أخرجه مسلم (رقم ٨٦٧).

نشهد أنك بلَّغت الرسالة، وأدَّيت الأمانة، ونصحت الأمة. فرفع أصبعه إلى السماء وقال: «اللهم اشهد، اللهم اشهد»(١).

وعلى الصفا يقف رسول الله ﷺ ليعلن للناس أمرًا خطيرًا وخبرًا مهمًّا، فيقول: «أيها الناس، لو أني أخبرتكم أن خيلاً بهذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» يعني: أني قد عشت معكم أربعين سنة وعرفتم أني صادق أمين وما جرَّبتم عليَّ كذبًا ولا غدرًا ولا خيانة، فإذا جئتكم وأخبرتكم أن بهذا الوادي قومًا يريدون أن يعتدوا عليكم أكنتم تصدقوني أم ماذا أنتم فاعلون؟ فقالوا كلهم: ما جرَّبنا عليك كذبًا. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد»(٢).

قال لهم: «قولوا: لا إله إلاّ الله تفلحوا»(٣)، وقال لفاطمة ابنته: «يا فاطمة بنت محمد، أنقذي نفسك من النار»(٤)، فهو لا يحابي ولا يجامل، إنه العادل الصادق فيما بلَّغ. فها هو ﷺ يغضب عندما يأتيه الحب بن الحب أسامة بن زيد يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، وينكر على أسامة شفاعته هذه، ويعلن على رؤوس الأشهاد: أنه لا يحابي أحدًا في دين الله، وفي حد من حدود الله، فيجمع الناس ويصعد المنبر، ويقول: «وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها»(٥)، فليسمع التاريخ وليحفظ هذا النور، فهذا أعدل الناس، وأصدق الناس، وأبر الناس، هذا موقفه مع ابنته، وحاشاها أن تفعل هذا الفعل أبدًا.

يغضب أبو لهب لهذا الاجتماع، فيقول: ألهذا جمعتنا؟ أي تجمعنا من بيوتنا لتحدثنا عن لا إله إلاّ الله؟!

لا يوجد في العالم أعظم من هذه القضية، ولا رفعت السموات، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٧٤١، ١٧٤٢)، ومسلم (رقم ١٦٧٩).
(٢) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٧٩٠٢).
(٣) أخرجه ابن خزيمة (رقم ١٥٩)، والحاكم (٦١/١)، وابن حبان (رقم ٥١٨/١٤).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٥٣٢٧)، ومسلم (رقم ٢٠٦).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦٧٨٧)، ومسلم (رقم ١٦٨٨).

خلق الخلق إلاّ من أجل هذه القضية، ولا قام سوق الجنة والنار إلاّ من أجل لا إله إلاّ الله، فهي أكبر قضيّة في العالم. ولكن الله يدافع عن رسوله، ويتولى هو الرد على هذا الكافر الرعديد أبي لهب، فقال سبحانه:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝﴾ [المسد: ١]، باسمه الذي يتب ويخسر ويهلك. ثم يلحق به العجوز الخائنة الغادرة ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝﴾ [المسد: ٤]، فهي معه؛ لأنها كانت تضع الشوك في طريق الرسول ﷺ وتؤذيه، وتأتي بالحبال من الحطب، فكان الجزاء من جنس العمل: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ ۝﴾ [المسد: ٥] أي: حبل من نار جزاءً وفاقًا.

دعا رسول الله ﷺ أشراف قريش، وهم خطباء وفرسان وقادة فيهم أبو جهل، وأبو لهب، والأخنس، والنضر وغيرهم كثير، ذكّرهم بالله وطَمَّعَهُم، فقالوا: لا نعلم أحدًا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت علينا. وصدقوا وهم كاذبون، فهذا صحيح.

أراد كفار قريش من رسول الله ﷺ أن يتركهم يسجدون للأصنام، ويعبدون الأوثان، ويكذبون ويغشون، ويخونون ويغدرون، ويفجرون ويسكرون، وينكرون. ثم أمره ـ سبحانه ـ أن ينذر بقية قبائل العرب، ووقع الإنذار، وأرسل إلى ملوك الأقاليم، وإلى رؤساء القبائل، وأخبر أنه رسول للثقلين كافة: الإنس والجن، وقام ﷺ بدعوته للجن والإنس على أكمل وجه وأتمّه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ۝﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فرسالته ﷺ عامة شاملة لكل الناس، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، لذا قال ﷺ: «والذي نفسيّ بيده، لا يسمع بي يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بالذي أُرْسِلت به؛ إلاّ كان من أصحاب النار»[(١)].

أنزل الله ـ سبحانه ـ على رسوله أمره فقال: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، فلقد جاءك الوحي فاصدع به وانشره. قال بعض أهل اللغة:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٣).

إنّما اختار كلمة: اصدع؛ لأن فيها من القوّة والصلابة والمناعة ما يصدع الزجاجة فيكسرها. أي: أخرج ما في صدرك واصدع به وانشره في الناس﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] أي أعرض، واصفح صفحًا جميلاً، فامتثل ـ عليه الصلاة والسلام ـ بما أمره ربه، فالقرآن الكريم يربيه ويهديه ويؤدبه، وكل يوم يمر عليه؛ يزدد علمًا وبركة وحفظًا. ورسول الله ﷺ لم يقصد بدعوته الكبراء والرؤساء والأغنياء، بل قصد الفقراء والضعفاء؛ لأنهم أتباع الرسل كما قال هرقل لأبي سفيان، لذا يجب على الداعي ألاّ يزدري ضعيفًا ولا مسكينًا، قد تكون البركة معه والنصر والخير؛ لذا قال رسول الله ﷺ: «إنّما ترزقون وتنصرون بضعفائكم بصلاتهم ودعائهم»(١)، و«رب أشعث أغبر ذي طمرين لو أقسم على الله؛ لأبرّه»(٢). فالدعوة والخير قد تكون مع الفقراء والمساكين والضعفاء، الذين لا تلقي لهم بالاً، وقد يكون معهم الفضل والخير، وربما يكون أحدهم بإيمانه بالله وتوكله عليه أقوى من جيش جرار.

فهذا محمد بن واسع الأسدي العابد الزاهد كان من أفقر الناس، يخرج بثيابه الممزقة، ومعه رمح يجاهد مع قتيبة بن مسلم يوم فتح كابل، وقفوا على أسوار كابل، وضاقت عليهم الضوائق، فالجيش أمامهم قويّ، والمدينة محصّنة، وهم غرباء مسافرون، وقائدهم قتيبة بن مسلم ـ بيَّض الله وجهه ـ التفت إلى الجيوش، فإذا جيش العدو أمامه، فقال: «التمسوا لي محمد بن واسع». مع أنه رجل فقير زاهد عابد في طرف الجيش، وليس من القادة، ولا هو من المُبرّزين، ولا هو في الصف المقدم، أو في قلب الجيش. فذهبوا يبحثون عنه فلما وجدوه فإذا هو راكز رمحه في الأرض، ورافع أصبعه إلى السماء، وهو يقول: يا حي يا قيوم انصرنا. يكررها. وكان هذا الأصبع بمثابة الجيوش الجرارة بل أقوى؛ لأنه ينادي القويّ العزيز الجبار المتكبر المنتقم. فوصل الخبر إلى قتيبة فدمعت عيناه، وهو يقول:

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري (رقم ٢٨٩٦).
(٢) أخرجه بنحوه مسلم (رقم ٢٦٢٢).

هذا الأصبع خير من ألف سيف شهير، ومائة ألف شاب طرير. ثم تقدمت الكتائب الإسلامية فدمَّرت السور، وتقدمت الجيوش حتى بلغت حدود الصين في مسيرة ما سمع الدهر بمثلها. يقول إقبال: إن هذه الملحمة مرَّت على البنجاب، ومشت على داهر في الهند، وحطمت الأصنام التي كانوا يعبدونها، قال عُبَّاد الأصنام: «لا تحطموها ونعطيكم الهبات من الذهب، اتركوا لنا آلهتنا». قالوا: لا.

وقال الكفار لمحمود بن سبكتكين القائد المسلم: «سوف نعطيك العطايا من الذهب واتركنا مع عبادتنا. قال لهم: إيه حتى أدعى يوم القيامة: يا مشتري الأصنام، لا.. سوف أكسرها حتى أدعى يوم القيامة: يا مكسر الأصنام».

أرْواحُـنَـا يَـا رَبِّ فَـوقَ أَكُـفِّـنَـا ... نَـرْجُـو ثَـوابَكَ مَـغْـنَـمًـا وَجِـوَارَا
كُنَّا نُقَدِّمُ لِلسُّيُوفِ رُؤوسَنَا ... لَمْ نَخْشَ يَومًا غَاشِمًا جَبَّارَا

قال بعض أهل السير: «دخلت مكة فرأيت رجلاً جميلاً مضيئًا، كأنَّ وجهه القمر ليلة أربعة عشر، يعني به النبي ﷺ».

وقال عبدالله بن رواحة:

لَوْ لَمْ تكُنْ فِيه آيَاتٌ مبينةٌ ... لَكانَ مَنْظَرُهُ يُنْبِئكَ بِالْخَبَرِ

وقال عبدالله بن سلام: «فلما رأيت الرسول ﷺ ورأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس وجه كذاب». قال: «وإذا رجل وضيء الوجه بجانبه رجل له غديرتان، يقول: لا تصدقوه، هو كذاب، هو مجنون، قلت: من هذا؟ قالوا: هذا محمد بن عبدالله. قلت: من هذا؟ قالوا: أبو لهب، هذا هو الرحم والقرابة».

أمَّـا الأبَـاعِـدُ لاَ تُـبَـاعِـدْ ... وَالأقَـارِبُ لاَ تُـقَـارِبْ
إنَّ الأقَـارِبَ كَـالـعَـقَـارِب ... أَوْ أشـد مِـنَ الـعَـقَـارِبْ

إلاّ من رحم ربك.

يأتي بلال من أرض الحبشة، وصهيب من أرض الروم، وسلمان من أرض فارس ينصرون محمدًا، ويقدمون دماءهم وأرواحهم للدفاع عن الدين والملة والرسول ﷺ، ويأتي أبو لهب فيكذبه ويعاديه، ولكن رسول الله ﷺ يصبر ويكظم غيظه عملاً بقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥﴾ [المعارج: ٥]، وبقوله: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]. قال ابن تيمية: «في القرآن صفح جميل، وصبر جميل، وهجر جميل؛ فالصبر الجميل لا شكوى فيه. وصفح جميل فلا تؤذي من صفحت عنه، وإعراض جميل، تعرض ولا تعاتب»، هذا هو الصحيح، فأمر ﷺ بالصفح الجميل، والصبر الجميل، والهجر الجميل، فكان من أصفح الناس، يُؤْذَى ويصبر، يسمع المشركين يسبونه، ولكنه يصبر، يأتي أشقى القوم عقبة بن أبي معيط فيبصق في وجه الرسول ﷺ أشرف الوجوه، وأطهر الوجوه، ولكنه ﷺ يصبر على أذى الكفار والمشركين، ودعا عليه رسول الله ﷺ فذبح هذا الضال المجرم في بدر. أما النضر بن الحارث فيكذِّب بالرسالة والنبي ﷺ، ويزعم أنه عنده علم، ويذهب إلى اليهود في المدينة ليستطلع خبر الرسول ﷺ فقال له اليهود: اسأل محمدًا ثلاث مسائل، فإن أجابك عنها؛ فهو نبي مرسل، وإلا فهو كاذب. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر وضاعوا وضلوا عن أهلهم. وسلوه عن رجل ملك المشرق والمغرب؛ وسار حتى بلغ مطلع الشمس. وسلوه عن الروح. فرجع النضر بن الحارث إلى مكة، وهو يظن أنه يحمل للنبي ﷺ ثلاث دواهٍ، ثلاث مسائل مشكلات، فاجتمع بقريش وأخبرهم بما وقع بينه وبين اليهود، وذهبوا إلى النبي ﷺ وسألوا. فقال لهم: غدًا آتيكم بالجواب. ونسي ﷺ أن يقول: إن شاء الله. فمكث ﷺ خمسة عشر يومًا لم ينزل عليه شيء، وأتاه من الهم والغم والحزن ما الله به عليم، ثم نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ۝٢٤﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]، ونزلت إجابة الأسئلة الثلاثة في سورة الكهف. ولكن عناد الكفار شديد، فلم يسلموا ولم يصدقوا.

قال ابن إسحاق: «وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، وممن

يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسبنديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب مَن قبلهم مِنَ الأمم من نقمة الله؛ خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فهلمّ إليَّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم وإسبنديار ثم يقول: بِمَ حَسُنَ حديث محمد عن حديثي»؟

قال ابن هشام: «وهو الذي قال فيما بلغني: سَأُنَزِّل مثل ما أنزل الله».

قال ابن إسحاق: «وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول، فيما بلغني: نزل فيه ثمان آيات من القرآن: منها قول الله ﷻ: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [القلم: ١٥]. .

فلما قال لهم ذلك النضر بن الحارث بعثوه، وبعثوا معه عقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن محمد، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبارَ يهودٍ عن رسول الله ﷺ ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا، فقالت لهما أحبارُ يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن؛ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل؛ فالرجل متقول، فَرَوْا فيه رأيكم. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل ما كان أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجب. وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح: ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبي، وإن لم يفعل؛ فهو رجل متقول، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم، فأقبل النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي حتى قدما مكة على قريش، فقالا: «يا معشر قريش؛ قد جئناكم بفصل ما بينكم وبينْ محمد، قد أخبرنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أشياء

أمرونا بها، فإن أخبركم عنها؛ فهو نبي، وإن لم يفعل؛ فالرجل متقول، فَرَوْا فيه رأيكم».

فجاؤوا رسول الله ﷺ فقالوا: «يا محمد، أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل قد كانت لهم قصة عجب. وعن رجل كان طوافًا قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، وأخبرنا عن الروح ما هي»؟ قال: فقال لهم رسول الله ﷺ: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا» ولم يستثنِ، فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمسة عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكة وقالوا: وعدنا محمد غدًا، واليوم خمس عشرة ليلة، قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشيء مِمّا سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة، ثم جاءه جبريل من الله ﷻ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه: الفتية، والرجل الطوّاف، والروح[(١)(٢)].

هدد الكفار والمشركون النبيّ محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ بثلاثة تهديدات، حيث قال ﷻ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]. ثلاثة أمور أمام محمد ﷺ لا بد منها:

١ ـ إما أن نسجنه سجنًا فلا يخرج منه أبدًا.

٢ ـ وإما أن نقتله.

٣ ـ وإما أن نخرجه.

واجتمع الكفار في دار الندوة، وحضر معهم الشيطان؛ ليبارك لهم سعيهم وخطتهم، وتمثل الشيطان في صورة شيخ، وقالوا: «نسجن محمدًا فلا يخرج أبدًا. فقال: هذا ليس برأي، فلو سجنتموه؛ ستخرج دعوته. قالوا: نخرجه. قال: لو أخرجتموه؛ تلقته قبائل العرب ثم يغزوكم. قالوا: فماذا تقول أنت؟ قال: اقتلوه».

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٣١٤٨، ٣١٤٩)، وقال حديث حسن صحيح غريب.

(٢) «السيرة النبوية» (١/٣٧٠ ـ ٣٧٣).

وعذّب كفار قريش من آمن بهذا الدين، ودخل في الإسلام واتبع النبي محمدًا ﷺ وكانوا من الضعفاء والمساكين، فهذا بلال بن رباح عندما سمع الإيمان أسلم وآمن، فاصطفاه الله وشرح صدره للدين والنور والخير والهداية. وأضل الله أمية بن خلف، وأبا جهل، والسادة العظماء الكبراء الذين تكبروا وتجبروا وعاندوا. أما هذا الفقير المسكين بلال؛ فهداه الله إلى الإيمان، وسمع القرآن، واطمأن فؤاده، وأسلم قلبه لله الأحد الفرد الصمد، فعذبه كفار قريش ونالوا منه، وأثر التعذيب في جسده، وكان يوضع على الرمضاء في الحر الشديد، حتى تبرد الصخرة ويشوى جلده، ولا يملك إلاّ أن يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ.. أَحَدٌ أَحَدٌ. وهكذا ظل يرددها.

قال ابن إسحاق: «ثم إنهم عَدَوا على من أسلم، واتبع رسول الله ﷺ من أصحابه، فوثبت كلّ قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يَصْلَب لهم ويعصمه الله منهم».

وكان بلال مولى أبي بكر - رضي الله عنهما - لبعض بني جُمَح، وكان صادق الإسلام طاهر القلب، وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: لا والله، لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء: أَحَدٌ أَحَدٌ(١).

وقال ابن كثير: «ولما اشتد أذى المشركين على من آمن وفتنوا منهم جماعة حتى إنهم كانوا يضربونهم، ويلقونهم في الحر ويضعون الصخرة العظيمة على صدر أحدهم في شدة الحر، حتى إن أحدَهم إذا أطلق لا يستطيع أن يجلس من شدة الألم»، فيقولون لأحدهم: «اللات إلهك من

(١) «السيرة النبوية» (١/٣٩٢).

دون إلهك، فيقول مكرهًا: نعم. وحتى إن الجعل ليمر، فيقولون: وهذا إلهك من دون الله، فيقول: نعم».

ومرَّ الخبيث عدو الله أبو جهل عمرو بن هشام بسمية أم عمار وهي تُعَذَّبُ وزوجها وابنها، فطعنها بحربة في فرجها فقتلها رضي الله عنها وعن ابنها وزوجها.

وكان الصِّدِّيقُ إذا مر بأحدٍ من الموالي يُعَذَّبُ، يشتريه من مواليه ويعتقه، منهم بلال، وأمه حمامة، وعامر بن فهيرة، وأم عبس، وزنيرة والنهدية وابنتها وجارية لبني عدي كان عمر يعذبها على الإسلام قبل أن يسلم.

حتى قال له أبوه أبو قحافة: يا بني؛ أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت قومًا جلدًا يمنعونك، فقال له أبو بكر: إني أريد ما أريد. فيقال: إنه نزلت فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: ١٧ ـ ١٨] إلى آخر السورة[(١)].

ومرّ الخبيث ـ أبو جهل ـ بمولاته زنيرة وكانت تصلي، فطفق يعذبها ويذيقها العذاب ألوانًا وجلدها، وضربها في رأسها ضربات حتى عميت، فلما عميت قال لها أبو جهل: دين محمد أهدى أم اللات والعزى؟ قالت: والذي أذهب بصري إن دين محمد أهدى. وذهبت إلى رسول الله ﷺ وقامت تصلي، وقالت: اللهم إنك أخذت بصري، اللّهم رد بصري. فأبصرت، ورد الله عليها بصرها».

وقال بعض العلماء: كنت أكتب الحديث في الليل حتى ضعف بصري، إلى أن عمي بصري، فوضعت القلم ووضعت الأوراق، ورفعت كفي وبكيت، وقلت: اللهم إنك تعلم أني أطلب حديث رسولك ﷺ، اللهم رد عليَّ بصري. قال: فرد الله عليه بصره.

ويروى في كتب السير: «أن رجلًا كان يسوق بقرة، وكانت البقرة

(١) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٦٢ ـ ٦٣).

حاملاً في بطنها عجل، فصاح العجل من بطنها قائلاً: يا ذريح - اسم من يقود البقرة - غلام فصيح ذو عقل رجيح، يصيح في مكة: لا إله إلاّ الله. قال: سألنا فإذا رسول الله ﷺ نبي في مكة».

وعند مسلم أن رجلاً كان يرعى غنمًا في المدينة، وفجأة جاء ذئب وأخذ منها شاة، فسعى الراعي خلف الذئب، ووقف الذئب مقعيًا، وقال للرجل: يا عجبًا لك، تمنعني من رزق رزقني الله إياه؟! فقال الرجل: يا عجبًا ذئب يكلمني؟! قال: أعجب من ذلك رجل بين الحرتين يحدثكم بخبر الأولين وخبر الآخرين، كيف ومَن يحمي غنمك يوم ليس لها راعٍ إلاّ أنا[1].

وقد تعرض عمار وأبوه وأمه للتعذيب والتنكيل، حتى قتل أبوه ياسر تحت وطأة التعذيب، وقتلت أمه بحربة في فرجها، ضربها الفاجر الخبيث أبو جهل، فصارت سُمَيَّةُ أول شهيدة في الإسلام، جعلها الله ﷻ تاجًا لهذه الأمة، أما عمار الطيب المطيب فقد سحبوه وأدموه ومزقوا جسده، فاضطر - وقلبه مطمئن بالإيمان أن يقول كلمة، فأنزل الله فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦]. فكانت هذه الآية رخصة لمَن ابتُلي وعُذِّب ولم يطق العذاب أن يقول كلمة يوافق فيها أهل الكفر، ولكن بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان، ولا ينشرح بالكفر أبدًا، بل يبقى على دينه ومبدئه وعقيدته، وإن صبر؛ فهو أحسن.

يُقْضَى عَلى المرءِ في أيامِ مِحْنتِهِ حتَّى يرى حسَنًا ما ليسَ بالحَسَنِ

وليس لآل ياسر إلاّ موعدة وعدها لهم رسول الله ﷺ، حينما مرَّ عليهم وهم يعذبون، فقال لهم: «صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٧١)، ومسلم (رقم ٢٣٨٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٣٨٨ - ٣٨٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه، وسكت عنه الذهبي، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/٢٩٣): رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبدالعزيز، وهو ثقة.

اصبروا قليلاً أيها المعذبون أيها المشردون أيها المظلومون، فسوف يذهب الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول، والساجن والمسجون، الجميع سوف يذهبون إلى الواحد الأحد، حيث تُوفَّى كلّ نفسٍ ما عملت، فلا يظلم أحد ولا يهضم.

أَمَا واللهِ إنَّ الظلمَ شُؤْمٌ   وَمَا زالَ المسيءُ هُو الظَّلُومُ
إلَى الديَّانِ يومَ الحشرِ نَمْضِي   وعندَ اللهِ تَجْتَمِعُ الخُصُومُ

فإذا جمع الله الأولين والآخرين، ونصب محكمة العدل التي لا تجور ولا تظلم، قال: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ لا ظلم اليوم. فالظلم ينتهي، ويحكم الله ـ سبحانه ـ بين العباد، ويقضي بين الناس: الضربة بالضربة، والجلدة بالجلدة، والكلمة بالكلمة، والدينار بالحسنة. حتى لا يبقى أحد مظلوم إلاّ وقد أخذ من مظلمته، حتى يقتص للجلحاء من القرناء التي نطحتها في الدنيا، ثم يقول لها: كوني ترابًا. فإذا رآها الكافر قال: ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾. هذا هو حكم الملك العدل سبحانه وتعالى.

اجتمع أبو جهل والأخنس بن شريك وأبو سفيان على أن يسمعوا هذا القرآن. فسمعوه من فم رسول الله ﷺ وهم عرب بلغاء وفصحاء يفهمون اللغة، وتكرر منهم السماع ثلاث ليال، فقال أبو جهل: ماذا رأيتم؟ قال أبو سفيان: سمعت السحر والكهانة والشعر، فما سمعت مثل هذا الكلام، أرى أنه حق. قالوا: وأنت يا أخنس؟ قال: أرى أنه حق. قالوا: وأنت يا أبا جهل؟ قال: أرى أنه حق. قالوا: فما رأيكم؟ قالوا: الرأي رأيك يا أبا جهل. قال: أطعم بنو هاشم فأطعمنا، وضيفوا وضيفنا، وقاتلوا وقاتلنا، وكسوا وكسونا، وسقوا وسقينا، حتى صرنا كفرسي رهان. فإذا قالوا: منّا نبي. ماذا نقول؟ أبدًا لا نؤمن به أبد الدهر. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. يعلمون أنه حق وأنه صدق، ولكنها الغواية، ومن يضلل الله فلا هادي له.

مع المعاناة يأتي العوض:

تأمّل كيف يهدي الله قومًا للإسلام، فيكون الواحد منهم أمة وحده.

فهذا الصِّدِّيقُ يعرف رسول الله ﷺ في شبابه وفتوته، وليله ونهاره، وإقامته وسفره، فلما نزل الوحي على رسول الله ﷺ وعرض عليه الإسلام ودعاه إلى الدخول في هذا الدين لم يفكر الصِّدِّيقُ ولم ينتظر، بل آمن ودخل في الدين، وكان أسرع الناس استجابة، وكذا آمن الصِّدِّيقُ بإسراء النبي ومعراجه عندما أخبره بذلك، لذا سمَّاه الله صديقًا ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣]. فلا يعرف أبو بكر إلاّ بالصِّدِّيق.

أما مسيلمة فلا يعرف إلاّ بالكذاب. وقام أبو بكر يدعو ويشتري العبيد المستضعفين المعذبين ويعتقهم، وظل مع رسول الله ﷺ حتى صار الرجل الثاني بعد رسول الله ﷺ، ولما مات رسول الله ﷺ لم يكن في الأمة رجل يستحق أن يخلف رسول الله ﷺ إلاّ أبا بكر، لمكانته في الإسلام وجهاده وهجرته وإنفاقه وبذله وسخائه، فبقدر ما تقدم للدين يجتبيك الله ﷻ، والمرء يُحْشَر مع مَن أحب.

وأسلم من الشباب علي بن أبي طالب وعمره عشر سنوات، فحمل همّ الإسلام والدين والجهاد، فأين أبناء العشرين والثلاثين والأربعين من عليٍّ ابن العشر؟!

أخذ النبي محمد ﷺ ابن عمه عليًّا ليربيه ويعوله، ليخفف عن عمه أبي طالب مؤونة تربية أبنائه؛ لأنه كان فقيرًا محتاجًا، فأراد النبي ﷺ أن يعين عمه، ويرد إليه بعض معروفه إليه، حيث كفله بعد موت جده عبد المطلب.

ظل عليٌّ مع رسول الله ﷺ فلما نبئ الرسول؛ كان عليّ أول مَن آمن به من الشباب والفتية، إلى أن صار عليّ بالنسبة إلى الرسول ﷺ بمنزلة هارون من موسى - عليه السلام - غير أنه لا نبي بعد رسول الله ﷺ، شهد مع الرسول ﷺ المشاهد، وكان من أقوى الناس وأشجعهم وأفصحهم وأخطبهم وأقدمهم وأبلغهم.

كان له بطن فقيل له: ما هذا البطن؟ قال: «أعلاه علم، وأسفله نعمة».

وقال له آخر: «ما أحسنك وما أبهاك وما أعدلك!» فقال: «أنا فوق ما في نفسك، ودون ما تقول».

وقيل له: «لماذا اجتمع الناس على أبي بكر وعمر، واختلفوا عليك»؟! فقال: «لأن رعية أبي بكر وعمر أنا وأمثالي، ورعيتي أنت وأمثالك».

خرج مرحب اليهودي المقاتل الشجاع فبارز ثلاثة من المسلمين، وقيل أربعة، وقيل سبعة، فقتلهم كلهم، فقال: مَن يبارز؟ فقال علي بن أبي طالب: أنا يا رسول الله، فأذن له رسول الله ﷺ أن يبارزه، ولكن مرحبًا أراد أن يخيف عليًّا ويهدده، فقال وهو يخطر بسيفه:

قد علمتْ خيبرُ أنِّي مرحبُ   شاكي السلاح بطلٌ مُجرَّبُ
أطعنُ أحيانًا وحينًا أضربُ   إذا الليوثُ أقبلتْ تَحَرَّبُ
إنَّ حماي للحِمى لا يُعربُ

فخرج له عليٌّ بن أبي طالب وهو يرتجز بقوله:

أنا الذي سَمَّتني أُمِّي حَيْدرهْ   كليثِ غاباتٍ كريه المَنْظَرَهْ
أُوفيهم بالصَّاع كيلَ السَّنْدَرَهْ

فقطع علي رأس مرحب، فكبَّر المسلمون، وفرحوا بنصر الله ﷻ، وكان الفتح[1].

وأول مَن أسلم من الموالي زيد بن حارثة رضي الله عنه فهو المتقدم عليهم، وهو الصابر، وهو حِبُّ الرسول ﷺ وابنه أسامة حِبُّه ابن حِبِّه، وكان زيد هذا في أول الأمر يسمى زيد بن محمد، ولكن الله أمر نبيه محمدًا أن يدعوه لأبيه حارثة. وهو من أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وكان صادقًا حتى رزقه الله الشهادة في غزوة مؤتة، وأخبر الرسول ﷺ بموت زيد، ثم موت جعفر، ثم موت عبدالله بن رواحة، رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٣٨)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذه السياقة.

ما زالت محاولات الكفار والمشركين للنيل من رسول الله ﷺ مستمرة، فها هم يطلبون منه أن يفجر من الأرض ينبوعًا، فردَّ عليهم الرسول ﷺ بأنه لا يملك هذا الأمر، إنّما هو رسول من عند الله، لا أفعل شيئًا إلاّ بإذن الله، فقالوا: ما دمت لا تفجر لنا من الأرض ينبوعًا، فأسقط السماء علينا كسفًا، فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: وهذا ليس عندي، أنا مرسل من عند الله برسالة إليكم هي عزكم ونجاتكم. قالوا: ائت بالله والملائكة قبيلاً، نريد أن نرى الله؟ فقال لهم: هذا من عند الواحد الأحد، وأنا مبلغ، أنا نذير وبشير. قالوا: نريد أن يكون لك بيت من ذهب ومن زخرف. قال: هذا من عند الله. قالوا: نريد أن ترقى في السماء وتصعد ثم تأتي لنا بالقرآن وتنزل علينا كتابًا نقرؤه. قال الرسول كما أخبر الله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وقالوا ـ أيضًا ـ كما حكى الله في القرآن: ﴿مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧]، إذا كان محمدًا رسولاً، فلماذا يأكل الطعام مثلنا؟ ولماذا يمشي في الأسواق؟ لماذا يبيع ويشتري؟!

ومن حكمة الله ﷻ أن جعل رسوله بشرًا، والحمد لله الذي جعله إنسانًا من بني آدم، يجوع كما نجوع، ويغضب كما نغضب، ويحزن كما نحزن، ويمرض كما نمرض؛ ليكون لنا قدوة وأسوة، ولو كان مَلَكًا ما اقتدينا به، لأنه إذا قيل لنا: اصبروا كما صبر؛ لقلنا: إنه مَلَك، وإن الله آتاه قوّة غير قوتنا. فجعله الله ﷻ منا، من أنفسنا؛ فقال ﷻ: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

سأل الكفار الرسول ﷺ هذه الأسئلة، وطلبوا منه هذه الأمور وهم يعلمون صدقه وأمانته، ومع ذلك قالوا ـ كما حكى الله في القرآن ـ: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، وقال الله: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٩]. ضربوا له عدة أمثال قالوا مرة: ساحر، ومرة: كاهن، ومرة: شاعر، ومرة: كذاب، ومرة: مجنون، وما اهتدوا إلى طريقة حقة ومسلك صواب، فضلوا في هذه

الطرائق فكذبهم الله، وأعلى الله دعوة رسوله، ورفع ذكره في الأولين والآخرين، وصار دينه ينتشر في الأرض كلها، وأصبح كلّ مصلٍّ وكل مسبِّح ومجاهد وصائم ومتعلم وعابد، يقتدون بهذا الرسول العظيم، وهذا النبي الخاتم، فالنجاة والفوز والفلاح في اتباعه وسلوك منهجه، وهنيئًا لمن اتبعه، وهنيئًا لمن يصلي ويسلم عليه ﷺ.

براهين النبوة

خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك لغزو الروم، ومعه جيش حافل عدده ثلاثون ألف مقاتل، وعشرة آلاف فرس، وآلاف من الإبل، قطعوا الفيافي، واجتازوا المفاوز، ونفد الماء، وأشرفوا على الهلاك والفناء، فلا آبار حولهم، ولا أنهار ولا أمطار، التمسوا الماء يمنة ويسرة، ولكن بلا جدوى، جَفَّت ألسنتهم، وتيبست أكبادهم في أجوافهم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة: ١٢٠]. صار هؤلاء المجاهدون في حالة شديدة وعسيرة، فأشار بعضهم على بعض أن ينحروا بعضًا من الإبل، ويخرجوا ما في بطونها من ماء! لقد وصل بهم الحال إلى هذا الحد وإلى هذا المستوى، وبلغ بهم الجهد والظمأ مبلغًا، حتى قال الفرزدق:

عَلَى ظَمَأٍ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمَا   عَلَى جَهْدِه ضَنَّتْ بِهِ نَفْسُ حَاتِمِ

أي أنهم بلغ بهم الظمأ درجة لو أن حاتم الطائي المشهور بالجود والكرم معهم، ومعه ماء لمنعه عنهم، على ما هو عليه من الكرم والجود والسخاء والإيثار.

وذهب أبو بكر يطلب من رسول الله ﷺ أن يتدخل، لإنهاء هذه الأزمة، وحل هذه المشكلة، بأن يرفع رسول الله ﷺ يديه إلى مولاه ﷻ ويتضرع إليه بالدعاء؛ فيجيب الله دعاءه، ويكشف ما بهم من كرب، ويحل عليهم من بركاته وخيراته.

وهذا أمر معهود ومعروف بينهم؛ فها هو رسول الله ﷺ وهو على المنبر يوم الجمعة يخطب، إذ يدخل أحد المسلمين فيقول: يا رسول الله، جاع العيال، وضاع المال، وتقطعت السبل، فادع الله أن يسقينا. فقطع رسول الله ﷺ الخطبة، ورفع يديه إلى ربه سائلاً مولاه، قائلاً: «اللهم أغثنا». فما هي إلاّ لحظة، وإذا بالله ـ سبحانه ـ الذي يقول للشيء كن فيكون، يرسل بإذنه ـ سبحانه ـ سحابة: كأنها الترس من وراء جبل سلع، فتعترض في سماء المدينة، والرسول ﷺ لم ينزل من على المنبر، وامتلأت المدينة مطرًا، ونزل الغيث، وأصاب المصلين في المسجد، وأصاب وجه رسول الله ﷺ، فيقول: «أشهد أني رسول الله»[(1)].

قال عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كنا إذا نظرنا إلى وجه الرسول ﷺ على المنبر تذكرنا قصيدة عمه أبي طالب، وهو يثني عليه، فيقول في قصيدة طويلة، ذكرها ابن هشام في السيرة[(2)]:

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَىٰ الغَمَامُ بِوَجْهِهِ ... ثُمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

تنظر للوجه فقط؛ فتذكر الرحمة، وتستبشر بالاستسقاء بإذن الواحد الأحد، فمعه ﷺ النور والخير والبركة.

غُلامٌ رَمَاه اللهُ بِالْحُسْنِ يَافِعًا ... عَلَيْهِ لِمَجْدِ الصَّالِحينَ بِهِ أَثَرْ
كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ ... وَفِي كَفِّهِ الْجَوزَا وَفِي وَجْهِهِ الْقَمَرْ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتُعِيرتْ ثِيَابُهُ ... تَرَدَّى رِدَاءً وَاسِعَ الجَيْبِ وَاتَّزَرْ

ويأتي أبو بكر لرسول الله ﷺ من وسط الجيش، يتقدم رضي الله عنه إلى الرسول، ويقول: لقد عوَّدك ربك عوائد، فادع الله لنا أن يغيثنا. فدعا رسول الله ﷺ ربه: «اللهم أغثنا». فأتت سحابة وغطت المعسكر، لا تزيد ولا تنقص، فتهل غيثها، وترسل عيونها، وتسكب ماءها، فامتلأت الأحواض والخنادق والقرب والأواني، فهذا يغتسل، وهذا يتوضأ، وهذا

---

(1) أخرجه البخاري (رقم ١٠١٣)، ومسلم (رقم ٨٩٧).
(2) «السيرة النبوية» (١/٣٣٨ ـ ٣٤٧).

يرتوي، وهذا يسقي بعيره، وهذا يتبرد بالماء من شدة الحر. ولم يتجاوز المطر حدود معسكر المسلمين، ولم ينقص عنهم شيئًا، أليس في هذا دليل على صدق هذا الرسول وعلى تأييد الله له؟! وأن هذا الرسول صاحب معجزة من الله وبرهان صدق؟!

وها هي بعض المعجزات التي بلغت الألف معجزة أو تقرب من ذلك، تدل دلالة واضحة على صحة ما جاء به من عند ربه، وأنه مؤيد من قبل الله ﷻ وصادق فيما يدعو إليه.

ذكر ابن سعد أن رجلين أتيا رسول الله ﷺ فأسلما، فقالا له: يا رسول الله؛ نريد سفرًا فزودنا، ولم يكن عنده زاد ولا شيء.

عَرَضَتْ لَهُ الجِبَالُ فَأَرَاهَا مِنْ نَفْسِهِ أَيَّمَا شَمَمِ
وَأَبْدَتْ زَهْدَه فِيهَا ضَرُورَتَه إِنَّ الضَّرُورَةَ لاَ تَعْدُو عَلَى الْغُشْمِ

فماذا يفعل رسول الله معهما؟ قال لهما: «عندكما قربة؟» قالا: نعم. قال: «املآ القربة ماءً واذهبا، فإن الله سوف يرزقكما طعامًا». قالا: فسافرنا فلما احتجنا وجدنا القربة لبنًا وزبدًا فأكلنا من الزبد، وشربنا من اللبن طيلة السفر، حتى رجعنا.

فهذه آية من آياته البينات، والله أيده بالمعجزات؛ ليؤمن من يؤمن، ويزداد إيمانًا من يزداد، وتقوم الحجة على أعداء الله، وعلى الكفرة والملحدين.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «عرضت عليَّ الأمم جعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟ قيل: هذا موسى وقومه. قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر هاهنا وهاهنا في آفاق السماء، فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب، ثم دخل ولم يبين لهم»، فأفاض القوم وقالوا: نحن الذين آمنا بالله واتبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادنا

الذين ولدوا في الإسلام فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي ﷺ فخرج فقال: «هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون» فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «نعم». فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: «سبقك بها عكاشة»(١).

هكذا ولم يقل له النبي ﷺ: لست منهم. وهذا من البلاغة، فقال له: «سبقك بها عكاشة». وهذا نهاية البيان والبلاغة، ولو فتح الباب لقام أهل المسجد يطلبون ويسألون مثل عكاشة، وقد يكون فيهم مَن ليس مثل عكاشة.

وعكاشة قُتِل شهيدًا يوم اليمامة يوم قاتل مسيلمة الكذاب، وقد كان في بدر يقاتل حتى انكسر سيفه.

قال ابن إسحاق: «وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي حليف بني عبد شمس بن عبد مناف يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة. فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزّه، فعاد سيفًا في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به؛ حتى فتح الله ـ تعالى ـ على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: العَوْن. ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهِد مع رسول الله ﷺ حتى قُتِل في الردة، وهو عنده، قتله طليحة بن خويلد الأسدي، فقال طليحة في ذلك:

فَمَا ظَنُّكُم بالقَومِ إذْ تَقْتُلُونَهُمْ ... أَلَيسُوا وَإِنْ لَمْ يَسْلمُوا بِرِجَالِ
فَـإِنْ تَـكُ أَذْوَادٌ أُصِبْنَ وَنِـسْـوَةٌ ... فَلَنْ تَذْهَبُوا فِرْغًا بِقَتْلِ حِبَالِ
نُصبتُ لَهُمْ صَدْرَ الحِمَالَةِ إِنَّهَا ... مُـعَـاودةٌ قِـيلَ الـكُـمَـاةُ نِـزَالِ
فَيومًا تَراهَا في الْجَلالِ مَصُونَةً ... وَيومًا تَراهَا غَيْرَ ذَاتِ جِلالِ
عَشِيَّةَ غَادرتُ ابنَ أَقْرَمَ ثَاوِيًا ... وَعُكَّاشَةَ الْغَنْمِيَّ عِنْدَ مَجَالِ(٢)

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٠٥)، ومسلم (رقم ٢٢٠).
(٢) «السيرة النبوية» (٢/٣٣٦ ـ ٣٣٧).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: انخسفتِ الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلَّى رسول الله ﷺ. ثم ذكر صلاة رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله» قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئًا في مقامك، ثم رأيناك كعكعت؟ قال ﷺ: «إني رأيت الجنة فتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار؛ فلم أرَ منظرًا كاليوم قطُّ أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء» قالوا: بِمَ يا رسول الله؟ قال: «بكفرهن» قيل: يكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط»[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيَّب السوائب»[2]، وأول من أدخل الأصنام جزيرة العرب.

وعندما انتهت غزوة خيبر، أتت امرأة يهودية وأخذت شاة وذبحتها وشوتها وحنذتها ثم سألت: أي عضو يحبه محمد؟ قالوا لها: الذراع، فأخذت سُمًّا وجعلته في ذراع الشاة المصلية، ودعت إليه محمدًا. وكان من خُلُقِ رسول الله ﷺ ألا يرد داعيًا، فقبل دعوة المرأة اليهودية، حتى إنه كان يقول: «لو دعيت إلى كراع لأجبت، ولو أُهدي إليَّ ذراع لقبلت» لأنه ﷺ سيد المتواضعين يجيب مرة دفعًا للسوء، ومرة جلبًا للصلح، ومرة تأليفًا للقلوب، ومرة زيادة في المحبة. فأجاب المرأة اليهودية، وكان معه ستة من أصحابه، وقدمت لهم الشاة، وأخذ الذراع، وعندما نهش منه نهشة أنطق الله الذراع، وتكلم بصوت مسموع، وأخبر الرسول أنه مسموم، فلفظه من فمه، ولكن أثر السم بقي في فمه، ودبَّ في جسده الشريف، ومات من أثر هذا السم بعد سنة، ليجمعَ الله له بين النبوة والشهادة؛ فهو سيد الأنبياء، وسيد الشهداء، وإمام الأولياء، ومقدم الأتقياء، وأفضل الصلحاء.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٠٥٢)، ومسلم (رقم ٩٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٦٢٣).

عن أبي هريرة ﷺ قال: لما فتحت خيبر؛ أهديت إلى رسول الله ﷺ شاة فيها سُمٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي مَن كان هاهنا من اليهود» فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء، فهل أنتم صادقيّ عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم؛ فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟» قالوا: أبونا فلان، فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقت وبررت، فقال: «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» فقالوا: نعم يا أبا القاسم؛ وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا. قال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفوننا فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبدًا» ثم قال لهم: «فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟» قالوا: نعم. فقال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا؟» فقالوا: نعم، فقال: «ما حملكم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كذَّابًا؛ فنستريح منك، وإن كنت نبيًّا؛ لم يضرك»(١).

وقال ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن»(٢).

وهذه معجزة من معجزات هذا النبي الكريم ﷺ، يسلم عليه هذا الحجر بصوت مسموع، قائلاً: السلام عليك يا رسول الله.

وكان رسول الله ﷺ يخطب على جذع نخلة زمنًا، وعندما صنع له منبر يصعد عليه حين الخطبة، وترك رسول الله ﷺ الجذع؛ حنَّ إليه الجذعُ حنينًا وبكى، وسمع صوتَه كلُّ مَن في المسجد، ولم يسكن حتى نزل رسول الله ﷺ من على المنبر واحتضنه.

عن جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا أجعل لك شيئًا تقعد عليه، فإن لي

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٧٧).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٧٧).

غلامًا نجارًا. قال: «إن شئتِ» فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع، فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها، حتى كادت تنشق، فنزل النبي ﷺ حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت[1].

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويل لكم، واحسرتاه! جذع يحن إلى الرسول ﷺ وهو جامد، ألا تحنون للرسول عليه الصلاة والسلام».

مَنْ نحنُ قبلكَ إلاّ نقطةٌ غَرِقَتْ   فِي اليمِّ أو دمعةٌ خرساءُ في القدَمِ
أكادَ أقتلعُ الآهاتِ من حرقٍ   إذا ذكرتُك أَوْ أرتاح مِنْ نَدَمِ
كأنَّه وَهْو فَرْدٌ في جَلالَتِهِ   فِي مَوْكِبٍ حِينَ تَلْقَاهُ وَفِي حَشَمِ

وهذا حبيب بن فديك كان طفلاً صغيرًا، وقد عمي، ولما رآه رسول الله ﷺ قال: ماذا أصاب هذا الطفل؟ قال أبوه: يا رسول الله، هذا ابني وطئ بيضة حية فعميت عيناه. فقال رسول الله ﷺ: «أدنه مني»، فقربه أبوه من رسول الله ﷺ، فبصق ﷺ في وجهه، وقال: «بسم الله الرحمن الرحيم». قال: فأبصر بإذن الله، وبلغ عمره فوق المائة ولم يضعف بصره، حتى قال أحد الرواة: والله الذي لا إله إلاّ هو، إني كنت أنظر إلى حبيب بن فديك وهو فوق الثمانين يدخل الإبرة في الثوب وهو يخيط، وهذا من النفثة المباركة، وإذا لم يكن هو المبارك، فمن المبارك إذن؟! وإذا لم يكن هو الطبيب؛ فمن الطبيب إذن؟!

يقول شوقي:

الْمُصْلِحونَ أَصَابِعٌ جُمِعَتْ يَدًا   هِيَ أَنْتَ بَلْ أَنْتَ اليدُ الْبَيْضَاءُ

وفي غزوة أُحُد وقعت عين قتادة بن النعمان على خده، فردَّها رسول الله ﷺ بكفه، فرجعت كما كانت، وصارت تلك العين أجمل من أختها.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٨٤).

وقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، فتمنّاها الصحابة، فقال: «ادعوا لي عليًّا» فأُتي به أرمد، فبصق في عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه[1].

يقول أحد الشعراء:

هَذَا الذِي جَاءَ وَالأَبْحَارُ مَالِحَةٌ فَمَجَّ فِيهَا فَصَارَ الْمَاءُ كَالعَسَلِ

وروى البيهقي أن امرأة أتت بصبي لها صغير لا يتكلم، أبكم أخرس، عالجوه فلم يُشفَ، فسألها رسول الله ﷺ عن حال ابنها، فقالت: يا رسول الله؛ ابني هذا أبكم. فالتفت رسول الله ﷺ إلى الطفل الأبكم فسأله: «من أنا؟» فنطق الطفل بطلاقة وفصاحة وبيان، قائلاً: أنت رسول الله، ولم يتلعثم أو يتعثر في النطق، وانطلق بعد ذلك حتى صار خطيبًا من خطباء العرب.

وروى البيهقي قال: «أتى رجل إلى رسول الله ﷺ وفي رجله قرحة أعيت الأطباء، فقربه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأخذ من التراب ونفث فيه، وقال: «بريقة بعضنا تربة أرضنا، يشفى مريضنا بإذن ربنا» قال الرجل: والله ما قمت وما بي قلبة». يعني ليس به ألم أو جراح، وهذا من بركة الله عليه، فقد أراد إقامة البراهين على صدق رسوله، وإقامة البينات إكرامًا لرسوله وتأييدًا له، فكان الصحابة يرون ذلك، فيزدادون إيمانًا ويقينًا وحبًّا له عليه الصلاة والسلام.

أما مَن غاب عن هذه الآيات والمعجزات؛ فيكفيهم هذا الكتاب المعجز، الذي بين أيدينا: القرآن الكريم، فهو المعجزة الخالدة التي لا تنتهي.

وعند البخاري في التاريخ، والطبراني والبيهقي، أن شرحبيل الجحفي أتى رسول الله ﷺ وفي كفه سلعة، كأنها قربة معلقة، فما يستطيع الرجل أن

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٩٤٢)، ومسلم (رقم ٢٤٠٦).

يمسك بها شيئًا، فأتى رسول الله فقال له: «ما هذا؟» قال: سلعة في يدي يا رسول الله؛ أصبت بها من زمن. فقال له: «ادن مني».فلما دنا منه وضع يده في الأرض، ثم أخذ يده الشريفة على السلعة، وطفق ﷺ يفركها، ويُسَمِّي حتى زالت، فعادت يده أحسن من أختها، وانطلق الرجل يخبر قومه، فأسلم منهم يومئذٍ كثير.

وروى أبو داود، وحسَّنه الترمذي عن أبيض بن حماد قال: «أتيت إلى رسول الله ﷺ ووجهي مجدر. أي: أن وجهه مصاب بالجدري، فقال ﷺ: «ما هذا؟» قلت: جدري يا رسول الله. فقال: «ادن مني» فدنوت فدعا وسمَّى ثم مسح وجهي، فوالله ما رفع يده عن وجهي إلاّ وصار وجهي جميلاً أبيض»، لذا سمي أبيض.

وروى النسائي وابن حبان والحاكم والبيهقي عن محمد بن حاطب قال: «كنت طفلاً وأمي تطبخ على القدر على النار، وغابت أمي فوقع القدر عليَّ، فأحرق ذراعي، فأتت الأم، وقد فسد ذراع ابنها، وما تذكرت بعد الله إلاّ رسول الله ﷺ، فأخذت ابنها وذهبت إلى رسول الله ﷺ، وقالت: يا رسول الله؛ هذا طفلي وقع عليه القدر واحترق، قالت: فنفث على ذراعه وأخذ يدعو، فقالت: فوالله ما قمت من عنده وفي ذراع ابني أثر من حريق» من لحظتها ومن وقتها، فهو المبارك أينما كان ﷺ.

كان أبو رافع اليهودي يهجو النبي ﷺ ويسب القرآن حتى آذى الله ورسوله، فبعث رسول الله إليه رجالاً من الأنصار وأمَّر عليهم عبدالله بن عتيك، فدخل عليه الحصن وتسلل إليه حتى قتله، فقال عبدالله بن عتيك: ثم وضعت ضبيب السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره، فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا، حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي، وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته. فلما صاح الديك؛ قام الناعي على السور، فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي، فقلت:

النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدَّثته فقال لي: «ابسط رجلك»، فبسطت رجلي فمسحها، فكأنها لم أشتكها قط[1].

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: «رأيت أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم؛ ما هذه الضربة؟ فقال: هذه ضربة أصابتها يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة؟ فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيت حتى الساعة»[2].

قال أبو هريرة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله! إني أسمع منك حديثًا كثيرًا وأنسى. فقال رسول الله ﷺ: «ابسط رداءك». فبسطت ردائي، فأخذ ﷺ بكفه هكذا، يسمي ويضع في الرداء ثلاثًا، ثم قال: «اضمم عليك رداءك». قال أبو هريرة: فضممت ردائي، فوالله ما نسيت بعده حرفًا»[3]، وصار أبو هريرة أحفظ الناس، يعيد الحديث الطويل ما يسقط منه حرفًا واحدًا من بركة دعاء النبي ﷺ.

وقال عثمان بن أبي العاص: «كنت أنسى القرآن، فأتيت إلى رسول الله ﷺ فقال: «ادن مني». قال: فدنوت منه فضرب بصدري وقال: «اللهم يا رحمن أعذ عثمان من الشيطان»، فوالله ما نسيت القرآن بعدها». فسبحان الذي جعل فيه البركة!! وسبحان الذي أعطاه المعجزات البيِّنات!!

قال علي بن أبي طالب: «بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيًا، فقلت: يا رسول الله؛ كيف ترسلني وأنا شاب؟ قال: فضرب في صدري وقال: «اللهم ثبِّت قلبه، واهد لسانه، واجعله هاديًا مهديًّا». قال علي: والذي برأ الحبة، وخلق النسمة، ما التبس عليَّ القضاء بين اثنين»، ولذلك كان يقضي بإذن الله، ويأتي قضاؤه صوابًا، مثل السيف حسمًا، ببركة دعاء الرسول ﷺ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٠٣٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٠٦).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ١١٩)، والترمذي (رقم ٣٨٣٥).

انطلقت أم بابن لها به جنون إلى رسول الله ﷺ فقال لها: «ما هذا؟» قالت: ابن لي جُنَّ يا رسول الله؛ قال: «قرِّبيه مني». قال: فقربته منه، فوضع يده على صدر الصبي ثم دعا. قال: فتقيَّأ الصبي، وخرج من بطنه مثل جرو أسود، وشفي الصبي، وصار من أعقل قومه، وردَّ الله عليه عقله ببركة دعاء النبي ﷺ.

قال جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنهما ـ: أغمي عليَّ ـ أي: فَقَدَ وعيه ـ فزاره رسول الله ﷺ وقال: «عليَّ بماء». فتوضَّأ ﷺ فصبَّ بقية الماء على جابر، فاستيقظ، ثم وضع ﷺ يده على صدر جابر، فقال: فما زلت أجد بردها إلى الآن.

وقد زار رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشفِ سعدًا، اللهم اشفِ سعدًا». والذي نفسي بيده، إني أجد برد يد رسول الله ﷺ بعد ثلاثين سنة، كأنها الآن.

ويقول أعرابي: حججت مع رسول الله ﷺ فرأيته يخطب، فأدخلت يدي بين نعله وبين قدمه، فوجدت بردها كالثلج، فوضعت يدي على وجهي، والله إني أجد بردها إلى الآن بعد عشر سنوات.

انظر إلى هذا الأعرابي: كيف يرى قيمة وعظمة ومنزلة الرسول ﷺ، كان شوق الواحد منهم أن يرى الرسول أو أن يمسَّ جسده وجلده، أو ينعم ولو بآثار البصاق، فكان ﷺ إذا بصق عن يمينه أو يساره أو أمامه أو خلفه تناول الواحد منهم بصاقه وريقه، فمسحوا به وجوههم، فيجدون من السرور والنعيم والخير العميم ما الله به عليم، وإذا حلق رأسه يكادون يقتتلون على شعره، فمنهم من يحصل على شعرة، ومنهم من يحصل على نصف شعرة؛ لأنه ﷺ مبارك أينما كان، كلامه، ولفظه، وذكره، وصلاته، ولباسه، كلّ شيء فيه مبارك، يلبس القميص فيتمنى الإنسان أن يلبس قميصه. فعن سهل بن سعد قال: جاءت امرأة إلى النبي ﷺ ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم، هي شملة، فقال سهل: هي شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يا رسول الله؛ أكسوك هذه، فأخذها النبي ﷺ

محتاجًا إليها فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن هذه، فاكسنيها، فقال: «نعم». فلما قام النبي ﷺ لام الصحابة ذلك الرجل، وقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي ﷺ أخذها محتاجًا إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لا يسأل شيئًا فيمنعه، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي ﷺ، لعلي أكفن فيها[1].

مَا قالَ: لا، قَط إلاَّ فِي تَشَهُّدِهِ ... لَولا التَّشَهُّدُ كَانَتْ لاَؤُه نَعَمُ
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضى مِنْ مَهابَتِهِ ... فَلا يُكَلَّمُ إلاَّ حِينَ يَبْتَسِمُ

وعند الطبراني أن أبا عطية البكري قال: «انطلق بي أهلي فمسح ﷺ على رأسي وأنا طفل، ثم أمرّ يده على خدي فنبتت لي لحية، ومن بركة يده ﷺ لم يصبه الشيب»، حتى بلغ مائة عام، وهو أسود الرأس أسود اللحية[2].

وروى الترمذي وحسَّنه عن أبي زيد الأنصاري قال: «مسح الرسول ﷺ على رأسي، وقال: «اللهم جمِّله وحسِّنه»، فأتت عليه مائة وبضع سنوات»، وكان أجمل من الشباب ليس في وجهه تجاعيد، ولم يتغير وجهه، ولم يسقط له سن، وكان وجهه يلمع لمعانًا، من بركته ﷺ.

يقول أنس رضي الله عنه: والله ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كفِّ النبي ﷺ، وما شممت مسكًا ولا عبيرًا أحسن من رائحة يد الرسول ﷺ[3].

وروى البيهقي عن وائل بن حجر قال: وفدت على رسول الله ﷺ فسلمت عليه فصافحني، فبقيت ثلاثة أيام، وأنا أغسل يدي، والله ما ذهب المسك من يدي.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٠٣٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (رقم ٧٦١)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٩٨/٦): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه محمد بن عقبة الدوسري، وثَّقه ابن حبان وضعَّفه غير واحد، وبقية رجاله ثقات.

(٣) أخرجه البخاري (رقم ١٩٧٣، ٣٥٦١).

نام رسول الله ﷺ عند أم حرام بنت ملحان في القيلولة، فأخذ عرقه يتحدر من على وجهه كالدر والجمان، فأخذت أم حرام قارورة وراحت تمسح وجهه، وجبينه وتأخذ العرق وتضعه في القارورة، فوجدت رائحة المسك تملأ بيتها، وتقول: «والله ما يمرض مريض في بيتنا فنأخذ قطرة من عرقه ﷺ ونجعله في القدر إلاّ ويشفى بإذن الله».

روى أبو يعلى والبزار بسند حسَّنه البوصيري: أن عبدالله بن الزبير - رضي الله عنهما - أتى إلى رسول الله ﷺ وعمره ثمانية أعوام وهو يحتجم، فوضع ﷺ دم الحجامة في طست، وقال لعبدالله: «يا عبدالله، ضع هذا في مكان لا يراه أحد». فأخذه عبدالله وشربه، فقال له ﷺ: «أين وضعت الدم؟» قال: وضعته في مكان لا يراه أحد، فقال له ﷺ: «ويل لك من الناس، وويل للناس منك، لا تمسك النار»[1]، أما «ويل لك من الناس» فمعناه: أنه أصبح فيك جزء مني، فلا بد أن تبتلى مثل ما ابتليت؛ لأن أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.

وأما «ويل للناس منك» فمعناه: أنه يصبح عندك من العظمة والهمة والشجاعة والإقدام ما الله به عليم.

وأما «لا تمسك النار» فكيف تمسك النار، وأصبح بعض دمي في دمك.

قال الإمام الذهبي - رحمه الله - عنه: أنه كان يصوم سبعة أيام متواصلة ليلاً ونهارًا، ويفطر في اليوم الثامن على سمن البقر، وكان يصلي الليل إلى قريب من الفجر، وقاتل أهل العراق قتالاً ما سُمع بمثله في التاريخ، وقيل: والله، ما قتله إلاّ كالأسد أمامه العنز، يقبل عليهم بالسيف؛ فيشردون من الأبواب، ثم يقبل على هؤلاء؛ فيشردون من الأبواب، ثم لما كثر عليه الرمي من كلّ جهة والمنجنيق؛ قام فكبَّر يصلي عند المقام، فأتته قذيفة فوقعت على رأسه، فسقط شهيدًا عند الكعبة.

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/٦٣٨)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/٢٧٠): رواه الطبراني والبزار باختصار، ورجال البزار رجال الصحيح، غير هنيد بن القاسم، وهو ثقة.

وهذا ثابت بن قيس بن شماس خطيب رسول الله ﷺ اختلف مع زوجته، فأقسمت بالله ألا ترضع ولده محمدًا، فذهب ثابت بابنه محمد إلى رسول الله ﷺ فبصق في فمه، وقال: «أما وإن الله سوف يسهل له من يرضعه»، فإذا بأعرابية تصل إلى المدينة وتقول: أين محمد بن ثابت بن قيس بن شماس؟ قالوا لها: هذا هو عند رسول الله ﷺ، قالت: رأيت في المنام قائلًا يقول: اذهبي فأرضعي محمد بن ثابت بن قيس بن شماس. قال: وإن ثديها يقطر لبنًا فأرضعته، وصار من أحسن الناس. وهذا من بركة رسول الله ﷺ.

وهذا الطفيل بن عمرو الدوسي يأتي إلى رسول الله ﷺ فيسلم، وطلب منه آية يعود بها إلى قومه دوس، فأعطاه الله نورًا في وجهه، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم انقله من وجهه، لا يكون مُثْلَةٌ»[1]، فوضعه في سوطه، فكان إذا رفع السوط؛ أضاءت له جبال زهران، وإذا خفض السوط؛ أضاءت له أودية زهران[2].

أما إخباره ﷺ بالمغيبات؛ فلا حصر لها، فقد أخبر ﷺ في آخر الزمان بملاحم ومعجزات وفتن سوف تقع، وحقًّا فقد وقع بعضها، والآخر سيقع لا محالة.

أتى وابصة بن معبد إلى رسول الله ﷺ وقد أضمر سؤالاً يوجهه إلى رسول الله ولم يخبر به أحدًا، ولكن العليم الخبير أخبر رسوله الأمين بما يضمره ويخفيه وابصة، فلما أتاه؛ قال رسول الله ﷺ: «يا وابصة، جئت تسأل عن البر والإثم؟» فقال له: نعم يا رسول الله، قال: «البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم: ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس».

وهذا خبيب بن عدي يأسره الكفار ويبيعونه لبني الحارث بن عامر بن

---

(١) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب/لابن عبدالبر ٥/٢٢٣.

(٢) المرجع السابق ٥/٢٢٣.

نوفل بن عبد مناف، وكان خبيب قَتَل الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيرًا. قالت ابنة الحارث: والله ما رأيت أسيرًا قط خيرًا من خبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل من قِطْفِ عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر. وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خبيبًا.

فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحل، قال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين، فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتهما، اللهم أحصهم عددًا:

ولست أُبالي حينَ أُقتَلُ مسلمًا ... على أيِّ شقٍّ كانَ للهِ مصرعي
وذلكَ في ذاتِ الإلهِ وإنْ يشأْ ... يبارِكْ على أوصالِ شِلوٍ مُمَزَّعِ

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو أول مَن سَنَّ الركعتين لكلِّ امرئ مسلم قتل صبرًا، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبيُّ ﷺ خبرهم وما أصيبوا[1].

وأصحاب بئر معونة السبعون قارئًا يقتلون جميعهم، فيخبر الرسول ﷺ أصحابه وهم في المدينة أنهم قتلوا رضي الله عنهم أجمعين.

وعن عليٍّ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ والزبير بن العوام وأبا مرثد الغنوي وكلنا فارس، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها صحيفة من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين» قال: فأدركناها تسير على جمل لها، حيث قال لنا رسول الله ﷺ، قال: قلنا: أين الكتاب الذي معك؟ قالت: ما معي كتاب، فأنخنا بها، فابتغينا في رحلها، فما وجدنا شيئًا، قال صاحباي: ما نرى كتابًا، قال: قلت: لقد علمت ما كذب رسول الله ﷺ ـ والذي يحلف به ـ لتخْرِجِنَّ الكتاب أو لأجردنك. قال: فلما رأت الجد مني؛ أهوت بيدها إلى حَجْزَتِها، وهي محتجزة بكساء، فأخرجت الكتاب. قال: فانطلقنا به إلى رسول الله ﷺ فقال: «ما حملك يا حاطب على ما صنعت؟» قال: ما بي إلاّ أن أكون

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٤٥).

مؤمنًا بالله ورسوله، وما غيّرت ولا بدّلت، أردت أن تكون لي عند القوم يد، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس من أصحابك هناك إلاّ وله من يدفع الله به عن أهله وماله، قال: «صدق، فلا تقولوا له إلاّ خيرًا»، قال: فقال عمر بن الخطاب: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني أضرب عنقه، قال: فقال: «يا عمر، وما يدريك لعلَّ الله قد اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة» قال: فدمعت عينا عمر وقال: الله ورسوله أعلم(1).

وجلس عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في مكة في ليلة يتدارسان ما حدث في بدر، ومقتل سبعين رجلاً من المشركين، وأسر سبعين آخرين، وتمنى عمير الذهاب إلى المدينة، ليقتل محمدًا رسول الله ﷺ، ولكن من يكفيه أهله وأولاده. فقال له صفوان: أنا أكفيك أهلك ومالك، فاذهب واقتله. وذهب عمير إلى المدينة، وقابله عمر بن الخطاب فأخذه عمر بن الخطاب، وذهب به إلى رسول الله ﷺ في المسجد، وسأله الرسول: «ما الذي أتى بك يا عمير بن وهب؟» فقال: يا محمد أتيت أفادي الأسارى الذين عندك. فقال له الرسول: «كذبت، أنت جلست مع صفوان بن أمية ليلة كذا وكذا بعد صلاة العشاء في الحرم، وتمنيت أن تأتي إلى هنا لتقتلني، وكفاك صفوان أهلك وولدك ومالك، وما كان الله ليسلطك عليَّ». فقال: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله. من أخبرك بهذا؟! فقال: «نبأني العليم الخبير»، فأسلم عمير ودخل في دين الله(2).

وذكر ابن سعد وابن عساكر أن شيبة بن عثمان بن عبد الدار ـ أصحاب مفاتيح الكعبة ـ خرج يوم حنين مع المسلمين ظاهره الإسلام، وباطنه الكفر والنفاق، والعياذ بالله، خرج ولم يقصد إلاّ أن يقتل رسول الله ﷺ، فلما التقى رسول الله ﷺ بالكفار، وإذا بالكتائب أقبلت، ففر الناس ونزل ﷺ عن

(1) أخرجه البخاري (رقم ٦٢٥٩).

(2) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٢/٢٢٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٤/٢٠٠)، وقال الهيثمي في «المجمع» (٨/٢٨٦): رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

بغلته، وغشيه الناس، فأخذ حفنة من تراب، وذرها في وجوه الكفار، وقال: «شاهت الوجوه». قال: والله ما بقيت عين من عيون الكفار إلاّ دخلها شيء، فرفع شيبة سيفه يريد قتل رسول الله ﷺ، فلمع بارق بينه وبين رسول الله حتى كاد يأخذ بصره، فعاد فوضع يده على بصره وتأخر، فقال رسول الله ﷺ: «ادن مني». فدنوت منه فوضع يده على صدري، قال: «اللهم أعذه من الشيطان»، فوالله ما رفعها إلاّ صار أحبَّ إليَّ من سمعي وبصري وأهلي أجمعين. فأسلم وحسن إسلامه.

هذه بعض معجزاته، ولو توسّعت في ذكرها لطال بي المقام، والمقصود من عرض بعض هذه المعجزات:

أولاً: تعظيم الرسول ﷺ وتوقيره وتقديره.

ثانيًا: زيادة الإيمان بمعرفة هذه البينات والآيات والبراهين والأدلة.

ثالثًا: زيادة الاتباع له ﷺ.

رابعًا: الرقة والخشوع عند ذكر سيرته وسنته، وطلب العلوم التي كادت تنطمس مع الثقافة العصرية الوافدة، وأصبح القليل من يقرأ حديثه، والقليل من يستمع لمعجزاته، والقليل من يَطَّلع على سيرته، والقليل من يطالع تاريخه المشرق، الذي لا يوجد تاريخ أحسن ولا أجمل ولا أصدق من تاريخه ﷺ. فأردنا أن تكون هذه السيرة معينًا لعل الله ﷻ ينير بها القلوب، ويهدي بها النفوس، ويثبتنا على سيرته وسنته حتى نلقاه.

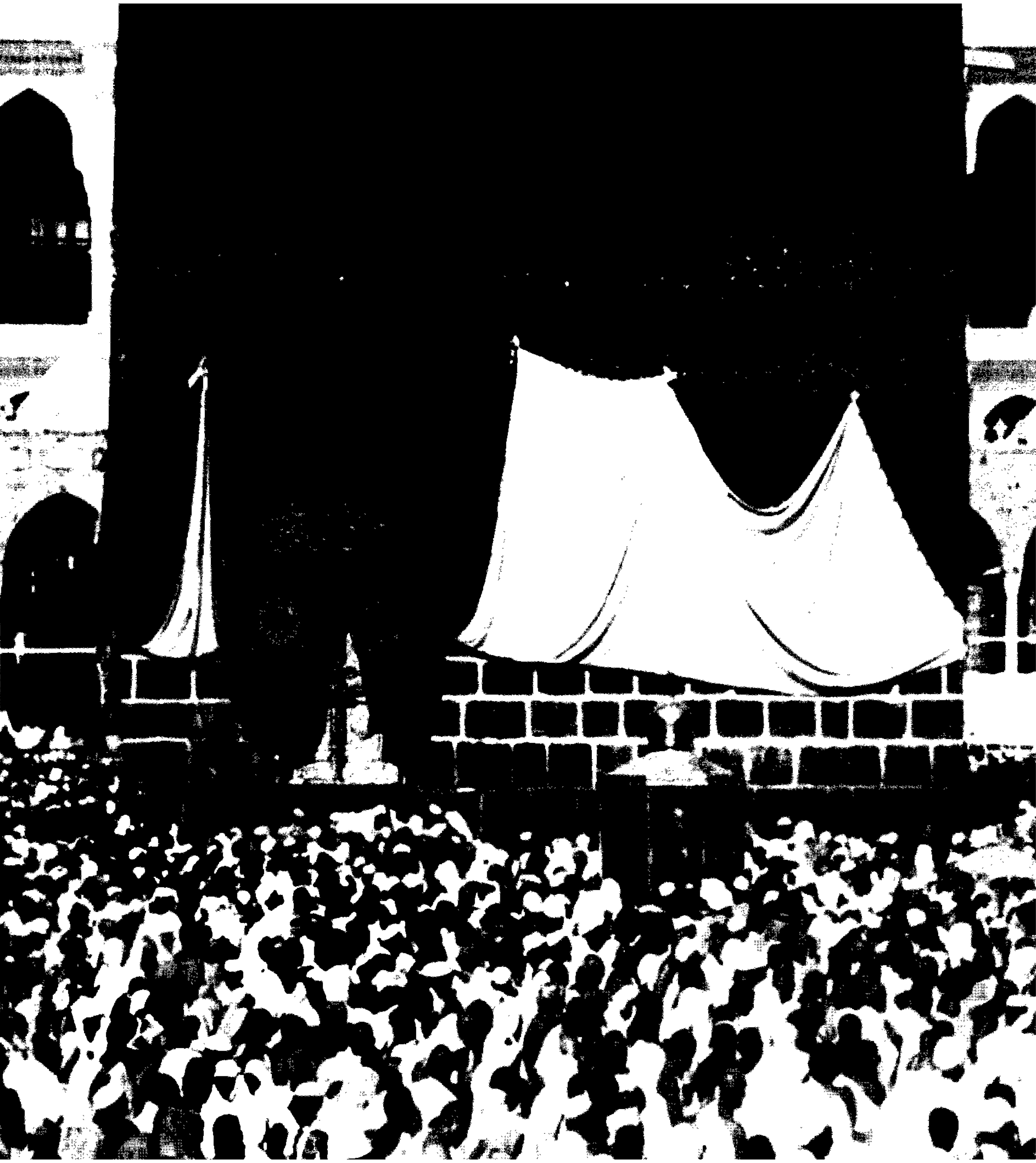

رحلة الطائف

انتهى رسول الله ﷺ من مصاولة أهل مكة ودعوتهم؛ فلم يستجيبوا، فآذوه أشد الإيذاء، وحاربوه، وبلغ الأذى غايته ونهايته، وقد أوصدوا أبواب الهداية عن نفوسهم في طريق الرسول ﷺ، وهو حريص عليهم، وعلى نجاتهم وفوزهم، فلا القريب يستجيب، ولا البعيد يرحم، ولا صاحب الرأي يحمله رأيه ليفاوض هذا النبي الأمي.

تلقى رسول الله ﷺ الأذى بكل أصنافه وأنواعه: الأذى الكلامي، والأذى الفعلي، وأذى الدعاية المشوهة لدعوته ولرسالته ولعرضه ولسمعته ولرأيه وعقله ﷺ. ولكن ماذا يفعل هذا الرسول؟ وهو لا يعرف اليأس والإحباط، وهذا شأن الداعية الناجح، كلما أُغْلِقَ بابٌ يلج بابًا آخر، وإذا لم يستجب له شخص؛ بحث عن آخر، وإن أعرضت عنه قبيلة؛ توجه إلى غيرها، وإن امتنعت عليه قرية؛ انتقل إلى قرية ثانية، فلا يضعف أو يتخاذل، بل يستمر ويواصل.

ولما لم تستجب مكة لهذا النور، ولم تقبل هذه الهداية وردت أمر الله ونداءه؛ انتقل رسول الله ﷺ إلى الطائف، حيث إنها أقرب القرى من مكة.

ذهب رسول الله ﷺ وحيدًا بلا خدم، ولا حشم، ولا قافلة، ولا مركب، ولا رفيق إلاّ الواحد الأحد، ليس معه إلاّ ثوبه وعصاه ومولاه زيد ابن حارثة في أصح الروايات، ذهب يمشي على قدميه الشريفتين، وهذا والله غاية الجهاد، وغاية البذل، والتضحية والعطاء للدعوة والمبدأ والحق، ولكنه في نهاية الرحلة وآخر المطاف؛ نصره ربه وآزره وأيّده، وانتشر نوره

وهداه في العالمين، ومن حكمة الله ﷻ أنه لم ينزل معه جنودًا من السماء، ولا جيشًا عرمرمًا يحمونه، ليلقى الأذى بشخصه الكريم، وليكون قدوة لكل داعية، وإمامًا لكل مجاهد، ومثالاً لكل عالم، فيصبر ويدعو، ويتحمل ويواصل، ويعطي، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ثم تكون العاقبة والخاتمة لأولياء الله.

هذا أشرف خلق الله وأكرمهم وأجلّهم وأفضلهم وأرحمهم، يذهب إلى أهل الطائف وهم يعبدون الأوثان كما يعبد أهل مكة الأوثان والأصنام، ذهب يعرض على الناس دعوته، ويدعو إلى الواحد الأحد، يدعو إلى لا إله إلاّ الله، وأن محمدًا رسول الله، وصل إلى المنتدى الكبير في الطائف الذي يجتمع فيه الأشراف والرؤساء والزعماء والشعراء، فقد كان لهم مجلس يجتمعون فيه، ويتحدثون ويتفكهون، ويتمازحون ويتضاحكون؛ لأنهم ليس لهم عمل، فهم مكفيون بعمل الخدم من الموالي، وصل ﷺ إلى المنتدى الكبير، وقصد رؤساءه ووجهاءه، وعرض عليهم رسالته ودعوته، وقد كان له من الهيبة والعظمة والهمة ما يقابل بها الملوك، ويهزم الكتائب، ويقود الجيوش، ويخوض غمار المعارك، فلا يزعزعه أمر، أو تفت عضده معضلة، بل يكون رابط الجأش، ثابت البنان، قويّ الجنان، ويكون صابرًا محتسبًا.

وها هو ﷺ يصل إلى الطائف، وكان أول ما بدأ دعوته لهؤلاء بعد أن حيَّاهم، قال لهم: «إن الله أرسلني إليكم أن قولوا: لا إله إلاّ الله تفلحوا». يا لها من كلمة، والله لو وضعت السموات السبع في كفة ميزان، ووضعت لا إله إلاّ الله في الكفة الأخرى؛ لطاشت بهن، ورجحت بهن لا إله إلاّ الله.

فسبحان الذي أنزل هذه الكلمة الخالدة التي هي مفتاح الجنة، ومفتاح السعادة، وهي أول ما يدخل بها المسلم الإسلام والإيمان، وهي التي يموت عليها الموحدون.

هؤلاء القوم لم يسمعوا مثل هذا الكلام من قبل، أول مرة تقرع

أسماعهم هذه الكلمات وهذه الأحرف، وهم يعرفون هذا الرجل: إنه محمد بن عبدالله، فتاريخه أبيض، فهو الصادق الأمين، ومعروف لديهم أنه ابن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم.

ولكن أتى الجواب من كبيرهم فقال: لم يجد الله أحدًا غيرك ليرسله؟! وقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. والله ـ سبحانه ـ أعلم حيث يجعل رسالته، فهو ـ سبحانه ـ يعلم القلوب، ويعلم أن هذا يصلح للرسالة، وأن هذا يصلح للدعوة، وهذا يصلح للعلم، وهذا يصلح للجهاد، وهكذا، فهو ﷻ العليم الخبير، أما العظيم عند هؤلاء القوم فهو الذي يملك الأموال، وقد أحسن من قال:

رأيتُ الناسَ قدْ مالوا إلى منْ عندَه مالُ

ومنْ لا عندهُ مالٌ فعنهُ الناسُ قدْ مالُوا

أما العظمة الحقيقية في الإسلام فهي عظمة التقوى، والسجل الحافل بالأخلاق الشريفة، والسجايا الحميدة، والمقامات الرفيعة من الإيمان والعمل الصالح، والخلق الحسن والصدق والوفاء والبذل والتضحية والعطاء، وكل ذلك وأكثر من ذلك مُجْتَمِعٌ في محمد الصادق الأمين ﷺ، بل بلغ في ذلك الأوج والذروة والقمة والنهاية.

وقال له الثاني له: إنك متقول على الله مفترٍ، ما أرسلك الله.

أما الثالث: فتكلم بأبشع كلام، وسب رسول الله ﷺ، وسخر منه، ثم طلبوا منه أن يغادر الطائف فلا يبقى فيها أبدًا، فرحل ـ عليه الصلاة والسلام ـ والظاهر عند بعض أهل العلم أنه مكث خمس عشرة ليلة يذهب إلى الأسواق والمنتديات، وكلما أتى جمعًا؛ سلم عليهم ودعاهم إلى لا إله إلاّ الله.

يقول العدواني أحد الرواة الذين رأوا رسول الله ﷺ: رأيته في سوق عكاظ ناصبًا عصاه هكذا. متكئًا عليها وهو يدعو إلى لا إله إلاّ الله، ثم تلا على الناس ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾ [الطارق: ١]، فإذا تكلم ﷺ كان لصوته جلالة، ولنظرته قوّة، ولخطابته فخامة، ولوعظه أسر.

لكنَّ أهلَ الطائفِ كذّبوا محمدًا ﷺ وآذوه، ولم يقف إيذاؤهم عند هذا الحد وكفى، بل تعداه إلى أن أرسلوا وراءه الموالي والصبيان ليرجموه بالحجارة، حتى سالت قدماه الشريفتان دمًا، فسبحان الذي رفع منزلته بهذا الجهاد الشاق، وعظم أجره بهذا النصب المضني، وجعل له النصر والعاقبة الحميدة في نهاية المطاف.

توالت عليه الحجارة من كلّ جانب، ولاحقته الشتائم من كلّ ناحية، ولم يجد ملجأ إلاّ بستانًا، فمال إليه ودخله، فأتى صاحب البستان وعلم خبره فرحمه، وأخذ قطف عنب وأعطاه إياه، فسأله رسول الله ﷺ عن اسمه؟ فبالرغم مما أصابه ﷺ من الطرد والإبعاد والشتم والسب والرجم وكل أصناف الإيذاء، إلاّ أنّه لا يمل من الدعوة، فهذه وظيفته ومهمته، فإذا قابل إنسانًا دعاه، وإذا ذهب إلى اليهود يدعوهم، تأتيه وفود النصارى فيدعوهم، يقابل المنافقين فيدعوهم، تأتيه رسائل الملوك فتقرأ عليه، فيرد عليهم ويدعوهم إلى الدخول في دين الله، يدعو كلّ الناس في كلّ العالم.

قال لصاحب البستان: «ما اسمك؟» قال: عدّاس. قال: «من أين أنت يا عدّاس؟» قال: من نينوى. من العراق. قال: «نينوى هذه بلدة أخي يونس بن متى عَلَيْهِ السَّلَامُ». قال عدَّاس: من أين لك هذا؟!! والله إني أتيت من العراق ولا يعلم أحدٌ باسم يونس بن متى، وإني أتيت من بلدة نينوى، ولا يوجد فيها عشرة يعرفون اسم هذه البلدة نفسها(1)، ذكر ﷺ النبي يونس الذي ابتلاه الله ﷻ، وترك لنا كلمة خالدة، نعالج بها أنفسنا وأطفالنا ومرضانا، كلمة عظيمة مؤثرة، هي حرز بإذن الله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

هذه الكلمة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ورثناها من ذي النون عَلَيْهِ السَّلَامُ، إنها أحب كلمة إلى الله، وهي كلمة التوحيد التي ترضي الله، ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ يعني أنزهك أن يكون في أفعالك شين أو عيب، ﴿إِنِّي كُنتُ

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام ١/٤٢٣.

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والله يحب الاعتراف بالاقتراف، فإذا اقترفت اعترف: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]. فإذا عثرت وأخطأت فإن الله يحب منك أن تعترف، ولذا قال ابن القيم: «إذا أخطأت فقل: يا رب، أذنبت وأخطأت وأسأت»، فهذا مِمّا يحبه سبحانه، ولذا قال يونس عليه السلام: ﴿إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فاعترف، فنجَّاه الله عز وجل من الغم.

قال عداس: وما أدراك بهذا؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا أخي نبي مثلي». فبكى عداس وانكب على أقدام الرسول ﷺ يقبِّلها؛ لأنه مسلم مؤمن بيونس، ولأن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ دعوتهم الإسلام، وكلهم أهل رسالة، ولكن شرائعهم شتى تختلف.

هكذا طُرِد ﷺ من مكة، وطُرِد أيضًا من الطائف، فماذا يفعل؟ وأين يذهب؟ أقبل الليل وأرخى سدوله، وأصبح النبي ﷺ في ظلمة وفي جوع وأذى وشدة وظمأ وتعب ونصب ووصب وهم وغم وحزن، ولكن يأتي دائمًا الفرج في نهاية الأزمة، ولذلك إذا أتتك أزمة طامة عامة؛ فانتظر الفرج من الواحد الأحد، لذا يقول الشاعر:

عسى فرجٌ يكونُ عسى … نُعَلِّلُ نفسَنا بعَسَى
فلا تجزعْ إذا حَصَّلتَ … همًّا يَقْطَعُ النَّفَسَا
فأقربُ ما يكونُ المرءُ … مِنْ فَرجٍ إذا يَئِسَا

ولما بلغ ﷺ القمة في المعاناة والشدة قال: التفت فوق رأسي فإذا بسحابة، وإذا بجبريل عليه السلام يسلم على رسول الله ﷺ، وهذه حكمة ورعاية من الله أن يترك رسوله ﷺ حتى يعاني مع الناس، ثم يلطف به وينصره ويعلي قدره، قال: فالتفت إلى جبريل فقال جبريل عليه السلام: هذا يا محمد ملك الجبال يستأذنك أن يطبق الأخشبين على أهل مكة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

ولكن الرحمة المهداة يرفض هذا الأمر، عسى الله أن يُخرِج من أصلاب هؤلاء الكفرة من يوحِّد الله ويعبده ولا يشرك به شيئًا، يأمل ﷺ أن

يكون الجيل القادم جيلاً مسلمًا مجاهدًا واعيًا، يصب دمه في معارك الإسلام ويرفع الدين، وقد قال محمد إقبال:

وأصبح عابد الأصنام قدمًا حماةَ البيت والركن اليماني

والحمد لله فقد جاء من نسل أبي جهل وأبي لهب وغيرهم من عبدة الأوثان والأصنام، مَن يحمي البيت والركن اليماني، فهذا عكرمة بن أبي جهل، وخالد ومصعب وغيرهم حماة الدين وأبطال العقيدة قدَّموا أرواحهم ودماءهم لرفعة الدين ونصرة الملة.

وها هو رسول الله ﷺ الرحمة المهداة يسيل عقبيه دمًا في الطائف، ولم يزد على قول: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». فأي حلم، وأي صفح، وأي سماحة، وأي خلق جليل فوق هذا. يطرد الرسول ﷺ من الطائف، فيقوم من الليل يصلي ويدعو قائلاً: «اللهم إليك أشكو ضعف قوَّتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدو يتجهمني، أم إلى قريب ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك سخطٌ علي؛ فلا أُبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الكريم الذي أضاءت له السموات والأرض، وأشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تحل عليَّ غضبك، أو تنزل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلاّ بك»[1].

في هذا الحديث مسائل:

أولاً: تفويض الأمر إلى الواحد الأحد، إذا ضاقت؛ فرّجها سبحانه لا غيره.

ثانيًا: على العبد أن يكون ذا فأل حسن، كما كان ﷺ، ولا يسمح لليأس والإحباط أن يعرفا له سبيلاً.

---

(١) ضعَّفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٨٢).

ثالثًا: أن الله ﷻ متصف بصفة الغضب، يغضب على مَن يشاء سبحانه غضبًا يليق بجلاله، وكذلك يرضى رضًا يليق بجلاله، ويسخط سخطًا يليق بجلاله، وفيه - أيضًا - إثبات صفة الوجه له سبحانه وجهًا يليق بجلاله وعظمته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

رابعًا: أعظم ما يفزع إليه الإنسان عند الكرب والشدة هو الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله ﷻ، فإذا ضاقت عليك الأمور، واشتدت الأزمات؛ فافزع إلى الدعاء، وارفع أكف الضراعة، واسأل الله أن يفرج الهموم والغموم، وقد صحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الدعاء هو العبادة»(١).

قال الله - تعالى -: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]، فإذا أظلمت أمامك السبل بمرض، أو بهمٍّ، أو بمشكلة، أو بمصيبة، أو بدَيْنٍ؛ فعليك بالدعاء فإن الله سوف يفرِّج الهم، ويزيل الكرب.

وها هو رسول الله ﷺ يدعو ربه ليخفف عنه ما يجد من عنت طغاة الطائف وتمرّدهم، فقد كذبوه وآذوه وسبُّوه وطردوه، فطفق يمشي وهو مهموم حزين، حتى وصل إلى وادي نخلة، فأرسل الله إليه الفرج، وعوَّضه خيرًا مِمّا فقد، فها هم الجن يأتون إليه مسلمين، اجتمعوا فصار للوادي جلبة وهمهمة، وأقبل بعضهم على بعض يتراكبون لبدًا، حتى كادوا يلتصقون بالرسول ﷺ، فدعاهم إلى الإسلام والدخول في هذا الدين!

إنه النبي العظيم ﷺ، الذي خاطب الملائكة، وسلم على الأنبياء جميعهم، وصلى بهم، ووصل سدرة المنتهى، وبيت المقدس، وركب البراق، ورأى الجنة والنار رأي عين، والآن يتكلم مع الجن، ويدعوهم إلى هذا الدين، فقالوا: نشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله، ﴿يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا

---

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٣٤٠٧).

سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الأحقاف: ٣٠]. لقد ولَّوا إلى قومهم منذرين ورجعوا يدعون إلى دين الله، وهذا هو شأن الداعية ودأبه، يطلب العلم فيتعلم، ثم لا يحتكر العلم على نفسه، بل يجود به على الآخرين، أهله وإخوانه وجيرانه وأصدقائه.

رجع الجن داعين إلى منهج الله ﷻ وسألوا رسول الله ﷺ لهم ولدوابهم، وأخبرهم أن كلّ عظم من طعام الإنس ذكر اسم الله عليه؛ فهو طعامهم. أما طعام دوابهم؛ فكل روثة؛ فرضوا وانطلقوا داعين، ونزل على رسول الله ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [الجن: ١]، يقول له ربه: أخبر الناس يا محمد بهذا الحدث، أخبرهم أنه جاءك نفر من الجن من نصيبين، فقالوا: ﴿سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ ما سبق مثله: لا في نسقه، ولا في إعجازه، ولا في نظمه، ولا في بيانه وبلاغته، ولا في فواصله، ولا في أدلَّته وبراهينه.

﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ لمن كان له ذوق أدبي، ويفهم الخطابة، وله سليقة عربية، وعنده فطرة حسنة، فمن كان مستقيم الفطرة، طاهر السريرة، حي الشعور، نظيف القلب؛ يستطيع أن يستوعب آياته ويفهم دلالاته.

أما والعياذ بالله من كان عبدًا للشهوة، منقادًا للشبهة، منتكس الفطرة؛ فلا يعي القرآن، ولا يفهمه: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

ثم استمر الخطاب إلى أن قال: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ [الجن: ٨]، أي: أخذنا خبر السماء ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾ [الجن: ٨]، وأنا كنا قبل رسالة محمد ﷺ: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ [الجن: ٩]، فكلما اقترب أحدهم؛ انطلق عليه شهاب فأحرقه وأماته، وفي هذه القصة مسائل:

الأولى: أن الداعية لا يلغي نفسه من أي حقل، فإذا صعب عليه حقل؛ فلينتقل إلى غيره.

الثانية: طمأنة الله لرسوله - عليه الصلاة والسلام - باستجابة الجن لدعوته فأبدله الله ﷻ عوضًا عن صدِّ كفار الطائف وعنادهم استجابة الجن لدعوته وإسلامهم.

الثالثة: أن رسول الله ﷺ رسول للثقلين: الإنس والجن، وهذا مقام شريف ومنزلة عظيمة لم يسمع بمثل ذلك لغيره من الرسل، وأصبح كلّ من على وجه الأرض من إنسي أو جني، سواء كان نصرانيًّا أو يهوديًّا أو زرادشتيًّا أو هندوسيًّا أو من أي ملة أو نِحلة ثم لم يؤمن برسول الله ﷺ إلاّ كان من أصحاب النار، فقد قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولا يؤمن بالذي أرسِلت به؛ إلاّ كان من أصحاب النار»(١).

الرابعة: أن الإنسان الداعية يشتغل بمحيطه، فإن كان رجلاً ففي الرجال، وإن كان شابًّا ففي الشباب، وإن كانت امرأة ففي بنات جنسها: دعوة ووعظًا وتدريسًا وفتيا وتفقيهًا، هذا هو شأن الداعية دائمًا، يخالط مجتمعه ويدعو إلى الله في محيطه قبل أن ينتقل إلى من سواهم.

قال الحافظ ابن كثير: «فخرج رسول الله ﷺ إلى الطائف، لكي يؤووه وينصروه على قومه ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله ﷻ فلم يجيبوه إلى شيء من الذي طلب، وآذوه أذًى عظيمًا، لم ينل منه قومه أكثر مِمّا نالوا منه.

فرجع عنهم، ودخل مكة في جوار المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، وجعل يدعو إلى الله ﷻ فأسلم الطفيل بن عمرو الدوسي، ودعا له رسول الله ﷺ أن يجعل الله له آية، فجعل الله في وجهه نورًا، فقال: يا رسول الله، أخشى أن يقولوا هذا مُثْلَةٌ. فدعا له، فصار النور في سوطه، فهو المعروف بذي النور.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٥٣).

ودعا الطفيل قومه إلى الله فأسلم بعضهم وأقام في بلاده فلما فتح الله على رسوله خيبر؛ قدم بهم في نحو من ثمانين بيتًا[1].

أراد رسول الله ﷺ أن يطوف بالبيت بعد عناء هذه الرحلة المضنية الشاقة، ولكن من يسمح له بالطواف بالبيت، وبخاصة أن كفار قريش آذوه ومنعوه وطردوه، فأتى رسول الله ﷺ إلى المطعم بن عدي وهو من وجهاء وزعماء قريش، وطلب منه أن يجيره ويدخل في حمايته.

قال ابن الجوزي: من هوان الدنيا أن يدخل ﷺ في جوار مشرك، حكمة من الله ألا ينزل صاعقة على الكفار أو يرسل جنودًا لم يروها، أو شيئًا يسخره ـ سبحانه ـ لتدمير الكفرة، ولكن لحكمة يعلمها الله ﷻ أن جعل طريق الدعوة محفوفًا بهذه الأخطار.

أخذت المطعم الحمية والنخوة العربية، فخرج بأبنائه وسلوا السيوف، وقالوا: يا معشر قريش لا يتعرض أحد منكم لمحمد حتى يطوف بالبيت ويأوي إلى أهله. هذه إجارة جاهية عربية من هذا الصنديد، ولذلك حفظها ﷺ له. وقد صدق رسول الله ﷺ القائل: «وإن الله ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر»[2]. مع أن المطعم بن عدي كان كافرًا إلاّ أن رسول الله ﷺ حفظ له هذا الجميل، فقال: «والذي نفسي بيده لو كان المطعم بن عدي حيًّا وكلمني في هؤلاء النَّتْنَى (أي أسارى بدر الكفار) لتركتهم له»[3].

---

(١) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٦٨ ـ ٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٦٢)، ومسلم (رقم ١١١).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣١٣٩).

إلى سدرة المنتهى

طاف رسول الله ﷺ حول الكعبة وهو في جوار المطعم بن عدي، وقد رفضته مكة بأشرافها وساداتها، ورفضته الطائف بعظمائها وزعمائها، رفضته الأرض فاستقبلته السماء وتلقَّاه الملأ الأعلى، رفضه الناس فاستقبله ربّه تبارك وتعالى، وكل يوم يمر عليه يكون فيه أحسن وأفضل وأعز وأكرم وأجل من اليوم السابق، يزداد كلّ يوم عن سابقه رفعة ومكانة ودرجة وعلوًّا وشأنًا، حتى إن بعض المفسرين فسَّر قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤]، قال الشيخ ابن سعدي: أي يومك أحسن من أمسك، وغدك أحسن من يومك. وهكذا كلما أتى عليه يوم؛ كان أحسن وأرفع منزلة، بدأ ﷺ بحال شريفة طيبة طاهرة، وانتهى بحال أرفع ومآل أفضل، ومنزلة أعظم، وحادثة الإسراء حادثة جليلة عظيمة، قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، بدأ الله السورة بـ ﴿سُبْحَانَ﴾ وهي تأتي للتعجب من عظمة هذا الفعل، وعظمة هذا الخلق، وعظمة هذا الحدث، والله ﷻ بيَّن عظمة هذه الرحلة، فلم يسمع بمثلها من قبل، فهي رحلة من الفناء إلى البقاء، من الأرض إلى السماء، من الطين إلى رب العالمين؛ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ ذكر ـ سبحانه ـ أسرى ولم يقل: ذهب أو ارتحل؛ لأنه كان في الليل، واختير الليل؛ لأنه أخفى للحدث، ولأن فيه النفحات، وفيه البركات، وأحسن العبادة: القيام في الليل، وذكر الليل أخفى للسير، وأحفظ للحدث من أعين الحُسَّاد، حتى يقول بعضهم:

قلتُ لليل هلْ بجوفكَ سرّ		عامرٌ بالحديثِ والأسرارِ
قالَ لم ألقَ في حياتي حديثًا		كحديثِ الأحبابِ في الأسحارِ

وقال ـ سبحانه ـ: ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ ولم يقل: برسوله، ولا بنبيه؛ لأنه مقام تشريف وتعظيم، شرَّفه الله بالعبودية، ولقد ذُكِرَ ﷺ بالعبودية في مقامات ثلاثة:

١ ـ في مقام إنزال الوحي، قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١].

٢ ـ في مقام التبليغ، قال ﷻ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].

٣ ـ في مقام الإسراء، قال ﷻ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

فهو ﷺ عَبْد من عباد الله، وهو أعبد مَن عَبَدَ الله، وهو أخلص العباد لربه، وأعرفهم بما تقتضيه مراتب العبودية، وكان من تواضعه ﷺ جلوسه كما يجلس العبد، وأكله كما يأكل العبد، وكان لا يرضى أن يرفعه أحد فوق منزلته التي أنزله الله إياها، وكان يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

فمقام العبودية لله أعظم المقامات، وأرقى المقامات أن يكون الإنسان عبدًا لله ﷻ، فأيُّ تعظيم وتشريف يضاهي هذا التعظيم وهذا التشريف؟!

ومَن لا يعبد الله؛ يعبد غيره لا محالة، وليس هناك حال ثالثة: إما عبد لله، وإما عبد للطاغوت وللشيطان وللهوى ولكل شيء سوى الله.

ثبت في الصحيح أنه ﷺ شُقَّ صدره، والظاهر من السياق أنه شق في ليلة الإسراء، وأخذ قلبه وغُسل بماء زمزم، ثم أُودع حكمة وعلمًا وإيمانًا.

كان جبريل عليه السلام رفيق النبي في إسرائه وصاحبه، وهو الذي يتنزل عليه بالوحي من السماء، وهو الروح الأمين، وهو المؤتمن على الوحي، وهو من أعظم الملائكة.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٤٥).

أما الراحلة التي ركبها؛ فهي البُراق، وهي خَلْقٌ من خَلْقِ الله ﷻ بين البغل والفرس، يضع حافره حيث ينتهي بصره.

انطلق رسول الله ﷺ من دار أم هانئ، ثم مرّ به في الحرم، وكان ذلك بعد صلاة العشاء، لتكون الرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم إلى سدرة المنتهى، فهي أعظم رحلة في التاريخ، وأقصر رحلة في التاريخ، أعظمها عجائب، وأرفعها غرائب، وأكبرها معجزات، ما سمع الناس بمثلها، وما وصل العقل إلى إدراكها، وما دار في الخيال، ولا صار في البال، ولا وصل اكتشاف، أو اختراع إلى مثل هذه الرحلة، فسبحان الباري العظيم، يقول شوقي:

أسرى بك اللهُ ليلاً إذْ ملائكةُ ... والرسلُ في المسجدِ الأقصى على قدمِ
كنتَ الإمامَ لهمْ والجمعُ محتفلٌ ... أعظمْ بمثلكَ منْ هادٍ ومؤتمِّ
لمَّا حضرتَ به التفُّوا بسيدهمْ ... كالشهبِ بالبدرِ أوْ كالجند بالعلمِ
حتى بلغت سماءً لا يُطارُ لهُ ... على جناح ولا يُسعى على قدمِ
وقيلَ: كلُّ نبيٍّ عند رتبتهُ ... ويَا محمدُ هذا العرشُ فاستلمِ

ذكر بعض أهل السير: أن رسول الله ﷺ عندما ركب البراقَ اضطرب البراقُ ولم يستقر، فقال له جبريل: اثبت فوالذي نفسي بيده لا يركبك خير من هذا. وركبه رسول الله ﷺ وأردف خلفه جبريل، فهو رفيقه في هذه الرحلة، فكان يحدثه ويؤنسه، وهو الذي ينزل عليه بالوحي، وحضر معه الغزوات، حتى إن أفخر بيت قاله حسان ومجده الأصمعي وغيره، قال:

وبيومِ بدرٍ إذْ يصدُّ وجوههمْ ... جبريلُ تحتَ لوائِنا ومحمدُ

انطلق رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس على البراق، وقطع المسافات الطويلة التي تقطع في شهور، قطعها في وقت قصير، وقد جمع الله الأنبياء، وصلى بهم محمد إمامًا، وهذه هي إرادة الله وقدرته، يفعل ما يشاء، وهو الفعال لما يريد، لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لأمره، ولا غالب لحكمه، سبحانه وتعالى. صلى ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالأنبياء ركعتين، والتفت إليهم

وتذكَّر قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، فلما صلى بهم والتفت إليهم ورأى وجوههم حيث الطهر والنبوة وأضواء الرسالة، وهو خيرهم وإمامهم وخاتمهم، لما رأى الجلال والجمال والكمال؛ عرف أنه لم يجعل إلهًا غيره يعبد من دونه، واكتفى بالجواب بما رآه. وقد قدموه إمامًا؛ لأنه أفضلهم وأعرفهم بربه، وهو سيدهم وخطيبهم، وصاحب المقام المحمود، والحوض المورود، واللواء المعقود.

صحَّ أن رسول الله ﷺ وجبريل ربطا البراق عند الصخرة، وبعد الانتهاء من الصلاة؛ عُرج بالرسول وجبريل على البراق إلى السماء، وسبحان الذي خلق، بين السماء والسماء مقدار مسيرة خمسمائة عام، ولكن بأي مسافة ـ الله أعلم ـ بالعلم المعاصر تذهب ستة أشهر بعض المراكب أو أكثر أو أقل، ولا تصل إلى القمر أو المريخ: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمن: ٣٣]، يعني بإذن الواحد الأحد.

وصل رسول الله ﷺ ومعه جبريل إلى السماء الدنيا فاستأذن للدخول، قيل له: مَن؟ قال: جبريل. استدل به العلماء على أن المستأذن للدخول يسمي اسمه، ذكر ذلك الحافظ ابن حجر وغيره.

قال ابن كثير: «وأُسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من قولي الصحابة والعلماء من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا البراق في صحبة جبريل عليه السلام، فنزل ثَمَّ، وأمَّ الأنبياء ببيت المقدس، فصلى بهم.

ثم عرج به تلك الليلة من هناك إلى السماء الدنيا، ثم التي تليها، ثم الثالثة، ثم الرابعة، ثم الخامسة، ثم التي تليها، ثم السابعة، ورأى الأنبياء في السموات على منازلهم، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى، ورأى عندها جبريل على الصورة التي خلقه الله عليها، وفرض الله عليه الصلوات تلك الليلة»(١)(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٨٧)، ومسلم (رقم ١٦٤).

(٢) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٦٩ ـ ٧٠).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم أسْري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس؛ راكبًا على البراق، صحبه جبريل ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا وربط البراق بحلقة بباب المسجد.

وقد قيل: إنه نزل ببيت لحم، وصلى فيه، ولم يصح ذلك عنه البتة».

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل؛ ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرد عَلَيْهِ السَّلَامُ ورحَّب به وأقرَّ بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه وأرواح الأشقياء عن يساره، ثم عرج به إلى السماء الثانية فاستفتح له؛ فرأى فيها يحيى بن زكريا، وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما؛ فردَّا عليه ورحَّبا به، وأقرَّا بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الثالثة؛ فرأى فيها يوسف، فسلم عليه؛ فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس فسلَّم عليه ورحَّب به، وأقرَّ بنبوته، ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران فسلَّم عليه، ورحب به، وأقر بنبوته، ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقي فيها موسى بن عمران فسلم عليه، ورحب به، وأقرَّ بنبوته، فلما جاوزه؛ بكى موسى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي؛ لأن غلامًا بعث من بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر مِمّا يدخلها من أمتي، ثم عرج إلى السماء السابعة، فلقي فيها إبراهيم، فسلم عليه، ورحب به، وأقرَّ بنبوته، ثم رفع إلى سدرة المنتهى، ثم رفع له البيت المعمور، ثم عرج به إلى الجبار جَلَّ فدنا منه حتى كان: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ٩ ـ ١٠] وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى، فقال له: بِمَ أمرت؟ قال: بخمسين صلاة. قال: إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار: أنْ نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار ـ تبارك وتعالى ـ، وهو في مكانه، هذا لفظ البخاري في بعض طرائقه، فوضع عنه عشرًا، ثم أُنْزل حتى مرَّ بموسى فأخبره، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد

بين موسى والله ﷻ حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال: قد استحييت من ربي، ولكن أرضى وأسلم، فلما بعد نادى منادٍ: قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»[(١)(٢)].

فكان عبدالله بن مسعود يقول: «أتى رسول الله ﷺ بالبراق، وهي الدابة التي كانت تَحْمِلُ عليها الأنبياءَ قبله، تضع حافرها في منتهى طرفها، فحمل عليها ثم خرج به صاحبه، يرى الآيات فيما بين السماء والأرض، حتى انتهى إلى بيت المقدس، فوجد فيه إبراهيم الخليل، وموسى، وعيسى في نفر من الأنبياء قد جمعوا له، فصلى بهم، ثم أتى بثلاثة أوانٍ: إناء فيه لبن، وإناء فيه خمر، وإناء فيه ماء. قال: فقال رسول الله ﷺ: فسمعت قائلاً يقول حين عرضت عليَّ: إن أخذ الماء غرق وغرقت أمته، وإن أخذ الخمر غوى وغوت أمته، وإن أخذ اللبن هُدي وهديت أمته. قال: فأخذت إناء اللبن، فشربت منه، فقال لي جبريل عليه السلام: هُدِيت وهُدِيت أمتك يا محمد»[(٣)].

واللبن دليل على الفطرة، فمن رأى في منامه لبنًا وأنه يشربه فهو مهتدٍ إن شاء الله، ويدل أيضًا على صلاح وعلم وخير وسنة، فالحمد لله الذي هدى رسولنا لاختيار اللبن، والظاهر أنه لم يكن يدري ﷺ أن في الإناء خمرًا أو لبنًا، فوقعت يده على اللبن توفيقًا من الله وتسديدًا.

وثبت عنه ﷺ أنه قال: «بينما أنا نائم أُتيت بقدح لبن، فشربت حتى إني لأرى الرِّيَّ يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب»، قالوا: ما أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «العلم»[(٤)]، لذلك كان عمر من أعلم الصحابة بعد أبي بكر رضي الله عنهما.

التقى آدم وموسى ـ عليهما الصلاة والسلام ـ فقال موسى: أأنت آدم؟

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٩)، ومسلم (رقم ١٦٤).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٣٤ ـ ٣٦).

(٣) «السيرة النبوية» (٢/٤٣ ـ ٤٤).

(٤) أخرجه البخاري (رقم ٨٢)، ومسلم (رقم ٢٣٩١).

قال: نعم أنا آدم، قال: أنت أبونا الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، خيبتنا وأهبطتنا من الجنة.

كان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جريئًا في حواره مع أبيه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وأسئلته تنبئ بالهمَّة العالية، وهذه طبيعته، فقد سأل ربه الكلام فكلَّمه، وسأله الرؤية فقال: لن تراني، فعتب موسى على آدم لأنه أخرجنا من الجنة، فقال آدم لموسى: أنت موسى بن عمران؟ قال: نعم. قال: الذي كتب الله لك التوراة بيده، واصطفاك على الناس بكلامه؟ قال: نعم. قال: بكم وجدت أن الله كتب عليَّ ذلك. قال: بأربعين عامًا. قال: أتلومني على شيء كتبه الله عليَّ قبل أن يخلقني بأربعين عامًا. فحج آدمُ موسى[1]. أي غلبه، وكانت له الحجة عليه.

وصلَ جبريل ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - إلى السماء السابعة، واجتازها محمد ووقف جبريل، فقال له رسول الله ﷺ متعجبًا: أين يا جبريل؟! يريد أن يكون معه في هذه الرحلة الغريبة العجيبة، فقال جبريل: وما منا إلاّ له مقام معلوم، هذا مكاني، ولو تقدمت؛ لاحترقت.

سبحان الخالق الواحد الأحد! سبحان العظيم في عليائه! سبحان الذي على العرش استوى! هذا جبريل الذي دمر الأمم والقرى، واقتلعها من جذورها، وله ستمائة جناح، كلّ جناح يسد ما بين المشرق والمغرب، يصل إلى منزلة ما يستطيع أن يجتازها، فيقول: لو تقدمت؛ لاحترقت.

فاجتاز رسول الله ﷺ ووصل إلى سدرة المنتهى إلى مكان يسمع فيه صرير الأقلام: أقلام الحسنات والسيئات، والأرزاق والآجال. عالم علوي مشتغل بالعالم السفلي، وقضاء وقدر ومحاسبة ومراقبة، وأرزاق تنزل، وآجال تنتهي، وحسنات تسجل، وسيئات تكتب وتمحى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۝٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]، وهو - سبحانه - الفعال لما يريد، القطر ينزل بحسبان، وما يموت ميت إلاّ بقدر، ولا يولد

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٠٩)، ومسلم (رقم ٢٦٥٢).

مولود إلاّ بقضاء، وما تمحى سيئة إلاّ بحساب، ولا تكتب حسنة إلاّ بأجل، حكمة العزيز الحكيم: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، لا تغيب عنه غائبة، جل في عُلاه، والله: ﴿يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١].

ثم رأى الرسول ﷺ سدرة المنتهى، قال الله: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [النجم: ١٦] لم يسم لنا ما يغشى من هولها.

قال: عليها أشياء عظيمة، لا يملك أحد وصفها أو نعتها، ولكن أوراقها مثل آذان الفيلة، والعقل يحتار عندها، وفرض الله عليه الصلوات لشرفها وعظمها، ولم يفرض عليه فريضة غيرها، فكل شرائع الإسلام نزلت على الرسول ﷺ في الأرض، إلاّ الصلاة لعظم أمرها، وخطورة شأنها، وأنها صلة بين العبد وربّه، حيث إنها علامة الإيمان والحبل المديد، وهي رأس العمل، وهي التي لا تنقطع عنك، فالحج في العمر مرة، والصيام في العام شهر، والزكاة على مَن عنده مال بشروطه، إلاّ الصلاة، فهي على المريض والسليم، والمقيم والمسافر، والرجل والأنثى، وفي الحرب والسلم.

قال ابن القيم رحمه الله: «واختلف الصحابة: هل رأى ربّه تلك الليلة أم لا؟ فصحَّ عن ابن عباس أنه رأى ربَّه، وصحَّ عنه أنه قال: رآه بفؤاده»[١].

وصحَّ عن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقالا: «إن قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣ - ١٤] إنّما هو جبريل»[٢].

وصحَّ عن أبي ذر أنه سأله: هل رأيت ربك: فقال: «نور أنّى أراه»؛ أي حال بيني وبين رؤيته النور، كما قال في لفظ آخر: «رأيتُ نورًا»[٣].

وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على أنه لم يره.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦).
(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧).
(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدَّس الله روحه ـ: «وليس قول ابن عباس: «أنه رآه» مناقضًا لهذا، ولا قوله: «رآه بفؤاده». وقد صحَّ عنه أنه قال: رأيت ربي تبارك وتعالى[1]، ولكن لم يكن هذا في الإسراء، ولكن كان في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤية ربه ـ تبارك وتعالى ـ تلك الليلة في منامه»، وعلى هذا بنى الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ وقال: «نعم رآه حقًّا، فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد»، ولكن لم يقل أحمد ـ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى ـ: «إنه رآه بعيني رأسه يقظة»، ومن حكى عنه ذلك؛ فقد وهم، ولكن قال مرة: رآه، ومرة قال: رآه بفؤاده. فحكيت عنه روايتان، وحكيت عنه الثالثة من تصرف بعض أصحابه: أنه رآه بعيني رأسه، وهذه نصوص أحمد موجودة ليس فيها ذلك.

وأما قول ابن عباس: إنه رآه بفؤاده مرتين، فإن كان استناده إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣﴾ [النجم: ١٣]، والظاهر أنه مستنده، فقد صح عنه ﷺ أن هذا المرئي جبريل، رآه مرتين في صورته التي خلقه الله عليها، وقول ابن عباس هذا هو مستند الإمام أحمد في قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم.

وأما قوله ـ تعالى ـ في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٨]، فهو غير الدنو والتدلي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم: هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة، وابن مسعود، والسياق يدل عليه، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: ٥]، وهو جبريل﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم: ٦ ـ ٨]، فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم الشديد القوى، وهو ذو المِرَّة أي القوّة، وهو الذي استوى ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وهو الذي دنى فتدلى، فكان من محمد ﷺ قدر «قوسين أو أدنى»، فأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء، فذلك صريح في أنه دنو الرب ـ تبارك وتعالى ـ وتدليه، ولا تعرُّض في سورة النجم لذلك، بل فيها أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، وهذا هو

---
(١) أخرجه أحمد (١/٢٨٥).

جبريل، رآه محمد ﷺ على صورته مرتين: مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختلف العلماء: هل رأى ربّه ﷻ أم لا؟ على قولين:

فصح عن ابن عباس أنه قال: رأى ربه. وجاء في رواية عنه أنه رآه بفؤاده. وفي الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها - أنها أنكرت ذلك على قائله. وقالت هي وابن مسعود: إنّما رأى جبريل».

وروى حديث مسلم في صحيحه من حديث قتادة عن عبدالله بن شقيق عن أبي ذر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نورٌ أنّى أراه؟» وفي رواية: «رأيت نورًا» فهذا الحديث كافٍ في هذه المسألة(٢)(٣).

أنكر كفار قريش هذه الرحلة، ولم يصدقوا بهذا الحدث العظيم الجليل، وقال أبو جهل، وهو في ملأ من كفار قريش وصناديدها من المشركين: إنا نذهب يا محمد إلى بيت المقدس في شهر، ونعود في شهر، وأنت تزعم أنك ذهبت إلى هناك، وصعدت إلى السموات السبع، وسدرة المنتهى، وعدت إلى هنا، كلّ ذلك في ليلة؟ إن هذا لا يصدقه عقل، ولكن صف لنا بيت المقدس، فإنا نعرفه بابًا بابًا، وسردابًا سردابًا، وطريقًا طريقًا.

فطفق رسول الله ﷺ يصف لهم بيت المقدس جزءًا جزءًا. فقال الوليد: والله ما زدت على ما رأينا ولا نقصت.

ثم قال ﷺ: وأزيدكم، لكم روائح القافلة، يرعاها رجل منكم، سوف تقدم عليكم بعد طلوع الشمس غدًا، انكسر رِجْلُ بعير فيها، ويتقدمها جمل

---

(١) «زاد المعاد» (٣/٣٦ - ٣٨).
(٢) تقدم تخريجه ص (١٢٦).
(٣) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٧٠).

أورق عليه غرارتان. قالوا: نرتقب، ولما جاء الصباح؛ فإذا بالقافلة تأتي، وإذا بالجمل الأورق في أولها. قالوا: ما بال البعير الفلاني؟ قالوا: انكسرت رجله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلما أصبح رسول الله ﷺ في قومه؛ أخبرهم بما أراه الله عَزَّ وَجَلَّ من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له وأذاهم وضراوتهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس؛ فجلاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئًا[1].

وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلاّ نفورًا، وأبى الظالمون إلاّ كفورًا»[2].

ولكن هل كان الإسراء والمعراج بالروح فقط، أم بالروح والجسد معًا؟

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأسري برسول الله ﷺ بجسده على الصحيح من قولي الصحابة والعلماء».

ثم قال محققا الفصول لابن كثير في الحاشية: «بل هو كما قال القاضي عياض: الحق الذي عليه أكثر الناس، ومعظم السلف، وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين: أنه أسري بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلاّ بدليل»[3].

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: «الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث»، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظاهر الأخبار الصحيحة[4].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٧١٠)ن ومسلم (رقم ١٧٠).
(٢) «زاد المعاد» (٣/٣٨ ـ ٣٩).
(٣) الشفا ١/٢٤٨ بمعناه.
(٤) «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» ص (٦٩).

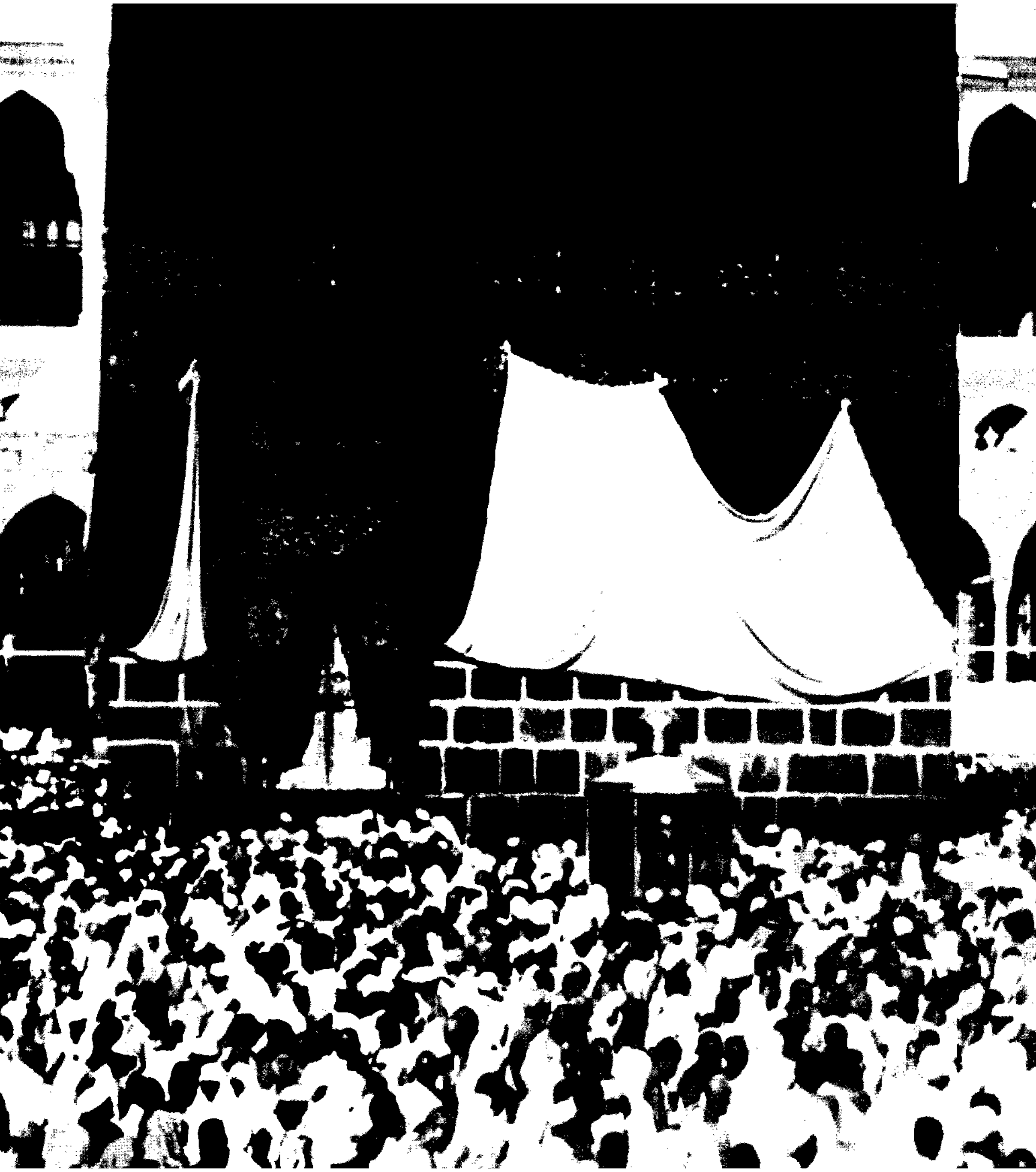

حديث الهجرة

يقول الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال: ٣٠].

عاد رسول الله ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، وهبط إلى الأرض، عاد من أعجب رحلة عرفتها البشرية وأعظم مسيرة وأخطر إسراء. عاد إلى موطنه ومأواه وأهله وعشيرته، عاد ومعه آيات من ربّه بما يؤمن على مثلها البشر، ولكن الكفار والمشركين ما ازدادوا إلا عتوًّا وعنادًا واستكبارًا وإيذاءً له ﷺ، فكان من الحكمة أن يهاجر، وأن يترك وطنه ودياره.

وترك الوطن والديار ومراتع الصبا، مصيبة وأيُّ مصيبة، لا يدرك حجمها وعظمها إلاّ مَن ذاق مرارتها، وقد قرن الله - سبحانه - بين ترك الوطن والقتل، حيث قال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، فدل على أن إخراج الإنسان من الوطن الذي وُلِد فيه وتربى، وحرمانه من مراتع الفتوة، وملاعب الصبا، ومغاني الشباب من أشد الأمور قسوةً على النفس، تخيَّل نفسَك مطرودًا من الأرض التي ولدت وعشت فيها، واستنشقت هواءها، وشربت ماءها، واستظللت بسمائها، تخيَّل نفسَك تخرج من بين أترابك وأقرانك وعشيرتك وإخوانك وقرابتك! لا شك أن ذلك من أشق الأشياء على النفس.

فما من شيء من المشاق والمصائب والأذية؛ إلاّ وقد تعرض له رسول الله ﷺ، فكل ما يخطر بالبال من الشدائد والبلايا قد أصاب

رسول الله ﷺ، ومصداق ذلك قوله ﷺ: «أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه»[1]، ولكن لِمَ هذا العنت وهذا البلاء وهذا الاختبار؟!

الجواب أن يقال: لكي ينال شرف النبوة بحق، وليرتقي في سلم الكمال بصدق، وليكون سيد المبتلين بجدارة، وإمام الصابرين بلا منافسة. وكذا ليكون لأتباعه المثل الأعلى، والقدوة المثلى، والأسوة الحسنة، فأنت أيها الداعي إذا وجهت لك كلمة نابية مؤذية جارحة؛ فاعلم أن قدوتك نبي الله محمد ﷺ، وجهت إليه مئات الكلمات الجارحة المؤذية التي آذت قلبه، وجرحت مشاعره، وآلمت نفسه، وأحزنت فؤاده، مئات الكلمات؛ بل ألوف الكلمات كانت عليه أشد من ضربات السيوف ورشق السهام، لتنال من عرضه، وشرفه، وطهارته، كلمات يندى لها الجبين، وينفطر منها القلب.

وإذا جعت أيها الداعية؛ فإن قدوتك محمد ﷺ كان يربط على بطنه الحجر من شدة الجوع، وإذا طردت عن بلدك وموطنك؛ فقد أجبر قدوتك ﷺ على الخروج من موطنه، وإذا حوصرت وحبست؛ فقد حوصر ﷺ وحبس في الشعب ثلاث سنوات حتى أكل هو وأصحابه أوراق الشجر، وإذا جرحت؛ فقد جرح، وإذا تحزب عليك الأعداء وتآمروا عليك؛ فقد تحزبت عليه طوائف الكفر والشرك والطغيان، وتآمروا عليه، وتربصوا به، وآذوه في أسرته وزوجته وقرابته وذريته، فكان ﷺ في القمة من الصبر، والتحمل، والصمود، والجهاد، فاستحق ـ بحق ـ أن يكون أفضل الخلق.

اجتمع الكفر، وتآمر الشرك ضد الدعوة الجديدة لوأد الإسلام والقضاء على الرسول الخاتم ونسف الدين، فاجتمعوا في دار الندوة من أجل النظر في شأن محمد وأتباعه.

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أصحابه من

(١) صحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٩٩٢).

المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلاّ من حبس أو فتن إلاّ علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق - رضي الله عنهما - وكان أبو بكر كثيرًا ما يستأذن رسول الله ﷺ في الهجرة، فيقول له رسول الله ﷺ: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبًا»[1]. فيطمع أبو بكر أن يكونه.

قال ابن إسحاق: «ولما رأت قريش أن رسول الله ﷺ قد صار له شيعة وأصحاب من غيرهم، بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا دارًا، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم، فاجتمعوا له في دار الندوة، وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمرًا إلاّ فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه».

قال ابن إسحاق: «فحدثني من لا أتهم من أصحابنا، عن عبدالله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج وغيره ممن لا أتهم عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - قال: لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله ﷺ غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة، فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل فوقف على باب الدار، فلما رأوه واقفًا على بابها؛ قالوا: مَنِ الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له، فحضر معكم؛ ليسمع ما تقولون،و عسى ألا يعدمكم منه رأيًا ونصحًا، قالوا: أجل فادخل، فدخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش من بني عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبي سفيان بن حرب[2] . . .» ثم ذكر باقيهم.

وقال ابن القيم رحمه الله: «فلما رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أن الدار دار منعةٍ، وأن القوم أهل حلقةٍ وشوكةٍ وبأسٍ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/١٧٧).

(٢) «السيرة النبوية» (٢/١٣٥ - ١٣٧).

فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم، فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلف أحد من أهل الرأي والحجا منهم يتشاورون في أمره، وحضرهم وليهم وشيخهم إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد، مشتمل الصماء في كسائه، وتذاكروا أمر رسول الله ﷺ فأشار كلّ أحد منهم برأي، والشيخ يرده ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: قد فُرِق لي فيه رأي ما أراكم قد وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كلّ قبيلة من قريش غلامًا نهدًا جلدًا، ثم نعطيه سيفًا صارمًا، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته، فقال الشيخ: لله درُّ الفتى، هذا والله الرأيُ.

قال: فتفرقوا على ذلك، واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه - تبارك وتعالى - فأخبره بذلك، وأمره ألا ينام في مضجعه تلك الليلة»[(١)].

وفي بعض نصوص الشرع: أن الشيطان يتولاهم وينزغهم ويؤزهم، فهو معهم. قالوا: ما رأيكم في محمد، فهو يشهر بنا ويسب آلهتنا ويكفر آباءنا ويسفِّه أحلامنا. قال بعضهم: نرى أن يحبس فلا يخرج ولا تخرج دعوته ولا يلتقي بالوفود، فإن له سحرًا يأسر به الناس، ولكنَّ شيخَ الضلالة إبليس قال: هذا ليس برأي، نعم، لأنه إذا حُبس فسوف تنطلق دعوته من وراء الحبس؛ لأن الأفكار لا يمكن حبسها؛ ولأن العلم لا يمكن حكره وحدّه؛ لأنه لا بد أن يزوره أحد فينقل كلمة، ويوصي بجملة، ويعهد إلى غيره بعبارة، وينشر حكمة. فحبسه إذًا غير مفيد، وهذا هو رأي الشيطان، فماذا إذن ينفع مع محمد؟ قالوا: ننفيه من مكة، فيكون طريدًا شريدًا بعيدًا فريدًا وحيدًا، وبذلك نستريح، قال لهم: لو نفيتموه لأتاكم بعد قليل بجيش جرار وغزاكم في عقر دياركم. إذن ما الحل؟ وما العلاج؟ وماذا نفعل مع محمد؟ قالوا: نقتله. قال: هذا هو الرأي! وهذه هي أمنية إبليس. القتل،

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٠ - ٥١).

أخذوا مجموعة من الشباب من قبائل شتى حتى يتفرق دمه بين القبائل، وأعدوهم بالسيوف، ولكن قدر الله نافذ، ومشيئته غالبة، أجمعوا أمرهم، فأتاه الخبر من السماء، وأوحى إليه ربه ألا تنام في فراشك تلك الليلة، ففعل رسول الله ﷺ وأخلف مكانه عليّ بن أبي طالب، وأخذ قبضة من التراب بيده الشريفة فحثى في وجوههم التراب، ويقول: شاهت الوجوه، وتلا قوله تعالى:

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾

[يس: ٩]، فأمسوا في ظلام بهيم، وعماية مستحكمة، وعلاهم النعاس فمالت رؤوسهم، وسقطت سيوفهم فانهزموا، ونصر الله محمدًا ﷺ وأيّده وانطلق - عليه الصلاة والسلام - مهاجرًا إلى ربه، يعبده في أرض طيبة، ويخرج من بلده ويودعها، وهو يلتفت إليها فتدمع عيناه، ويبكي فؤاده وهو إمام الصابرين، ويقول: «إنك من أحب بلاد الله إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت».

يقول ابن الرومي:

وَلي وطنٌ آليتُ ألا أبيعهُ ... وألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
عهدتُ بهِ شرخَ الشبابِ ونعمةٍ ... كنعمةِ قوم أصبحوا في ظلالكا
وحببَ أوطانَ الرجالِ إليهمُ ... معاهد قضّاهَا الشبابُ هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهمُ ... عهودهم الصِّبا منها فحنُّوا لذلكا

قالت عائشة: «فبينما نحن يومًا جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي بكر: هذا رسول الله ﷺ متقنعًا، في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فِدًا له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلاّ أمر.

قالت: فجاء رسول الله ﷺ فأذن له فدخل، فقال النبي ﷺ لأبي بكر: «أخرِج مَن عندك». فقال أبو بكر: إنّما هم أهلك، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال: «فإني قد أُذِن لي في الخروج» فقال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين، قال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

قالت عائشة: فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين.

قالت: ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبدالله بن أبي بكر، وهو غلام شابٌّ، ثقفٌ لَقِنٌ، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرًا يُكْتادان به إلاّ وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر مِنحةً من غنم، فيريحها عليهما حتى تذهب ساعةٌ من العشاء، فيبيتان في رِسْلٍ - وهو لبن مِنْحتِهما ورَضيفِهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس، يفعل ذلك في كلّ ليلة من تلك الليالي الثلاث. واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلاً من بني الديل، وهو من بني عبد عدي هاديًا خِرِّيتًا - والخريت الماهر بالهداية - قد غمس حِلْفًا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه؛ فدفعا إليه راحِلتَيهما، وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث ليال، فأتاهما براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدَّليل، فأخذ بهم طريق السواحل[1].

يقول رسول الله ﷺ: «ليس أحد منكم أمنَّ بماله، ونفسه من أبي بكر، واساني بماله، وصدقني حين كذبني الناس، وزوجني ابنته. وقال - أيضًا -: ما من أحد له عندنا يد إلاّ كافأناه بها إلاّ أبو بكر، فإن له عندنا يدًا عسى الله - تعالى - أن يكافئه عليها».

ومن الحكمة أن رسول الله ﷺ جعل مسيره اتجاه جنوب مكة، والمدينة شمال مكة؛ لأن كفار قريش سوف يبحثون عنه في اتجاه شمال مكة، لاحتمال أن يهاجر النبي إلى المدينة المنورة، حيث يوجد له فيها أتباع؛ لأنه بايعه الكثيرون من أهلها، وأرسل إليها رسوله مصعب بن عمير، إذًا فالمدينة هي البلدة التي سوف يهاجر إليها رسول الله ﷺ.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٠٥).

وانظروا إلى التضحيات التي قدمت إلى رسول الله ﷺ: هذا علي بن أبي طالب الغلام الشاب في أشجع مواقفه وأجرئها على الإطلاق، وهو في هذا السن، ينام في فراش رسول الله ﷺ والكفار حول بيته يتربصون وقت خروجه، فينقضون عليه انقضاض الأسد على فريسته، فيعملون فيه بسيوفهم، فيعرِّض عليٌّ - رضي الله عنه - حياته للخطر، وللقتل المحقق، وللموت الأكيد، فيخرج على الكفار برباطة جأش، وقوة فؤاد، وثقة بالله عز وجل يخرج عليهم فيبهتهم.

وهذا أبو بكر الصديق يدخل الغار قبل رسول الله ﷺ خشية عليه من أن يصيبه مكروه، أو أذى من ثعبان، أو حشرة مؤذية، فيدخل الغار، ويسد الثقوب التي بالغار بعمامته يقطعها ويسد بها، وعندما أحكم الثقوب دخل رسول الله ﷺ.

ويروى أن أبا بكر رضي الله عنه سد أحد الثقوب برجله، فلدغته عقرب فأخذ يتلوى من شدة الألم ويبكي، والدموع تتحدر على لحيته، والنبي ﷺ نائم على فخذ أبي بكر، ولما أفاق رسول الله ﷺ مسح رجله فبرئت بإذن الله.

أعلن كفار مكة أن من يأتي بمحمدٍ؛ فله جائزة مائة ناقة. فقام الصعاليك، وتجهزوا كلّ يريد أن يفوز بالجائزة، الكل يأمل في العطية أي: في مائة ناقة فراحوا يفتشون في جبال مكة ويبحثون وينقبون والطرق والمنعطفات والكهوف والمغارات في كلّ وجهة، وفي كلّ مكان، يقلبون خلف كلّ حجر ومدر وشجر، وفي كلّ وادٍ، وعلى كلّ جبل، يبحثون عن أعظم إنسان وأفضل مخلوق؛ ليرتكبوا أبشع جريمة، وأفظع مجزرة في تاريخ البشرية، يريدون قتل محمد ﷺ، حريصون على قتل الخير والحق والعدل والطهر والعفاف والسماحة والإسلام والإيمان والإحسان والنور والفضيلة، ولكن ما كان الله ليسلطهم عليه، فهو ﷺ محفوظ بحفظ الله، وعناية الله، وتوفيق الله. وقد وصل هؤلاء المشركون إلى الغار الذي فيه الصاحبان: محمد ﷺ وأبو بكر.

يروي أهل السير أن الله عز وجل سخَّر العنكبوت فبنت بيتها على فم

الغار، والعنكبوت أضعف المخلوقات، والله ﷻ لا يقاتل الطغاة إلاّ بأضعف مخلوقاته، فلم يدل على بلقيس إلاّ الهدهد، ولم يفجر دماغ النمرود إلاّ البعوضة، وتحدى الله البشر بذبابة؛ ليبين سبحانه قوته، فكيف لو استخدم القوّة العظمى، وسلط ملائكته، فنعوذ بالله من غضبه، وعقابه، وشر عباده.

وعند أهل السير ـ أيضًا ـ أن الحمامة باضت في عشها على فم الغار، فصرف الله الكفار عن الغار، يقول الشاعر:

ظنُّوا الحَمامَ وظنُّوا العنكبوتَ على
خيرِ البريةِ لمْ تنسجُ ولمْ تحمِ
عنايةُ اللهِ أغنتْ عنْ مضاعفةٍ
منَ الدروعِ وعنْ عالٍ منَ الأطمِ

صعدوا إلى الغار، وأبو بكر ينظر إليهم ويقول: يا رسول الله؛ والله لو نظر أحدهم لموضع قدميه؛ لرآنا، ورسول الله يبتسم ويقول: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]».

ولندع ابن القيم يحكي لنا طرفًا من قصة المؤامرة والمطاردة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمر ﷺ عليًا أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صيرِ الباب، ويرصدونه ويريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها، فخرج رسول الله ﷺ عليهم فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذُرُّهُ على رؤوسهم، وهم لا يرونه، وهو يتلو: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩]، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر فخرجا من خَوْخَةٍ في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجل ورأى القوم ببابه، فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمدًا. قال: خبتم وخسرتم قد والله مرَّ بكم وذرّ على رؤوسكم التراب. قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم: أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وأمية بن خلف، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأبي بن خلف، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، فلما أصبحوا؛ قام عليٌّ عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به.

ثم مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه، وضرب العنكبوت على بابه. وكانا قد استأجرا عبدالله بن أريقط الليثي، وكان هاديًا ماهرًا بالطريق، وكان على دين قومه من قريش، وأمناه على ذلك، وسلّماه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث. وجدَّت قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافلة، حتى انتهوا إلى باب الغار فوقفوا عليه، ففي الصحيحين أن أبا بكر قال: يا رسول الله؛ لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه؛ لأبصرنا، فقال: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]»، وكان النبي ﷺ وأبو بكر يسمعان كلامهم فوق رؤوسهما، ولكن الله ـ سبحانه ـ عمَّى عليهم أمرهما، وكان عامر بن فهيرة يرعى عليهما غنمًا لأبي بكر، ويتسمع ما يُقال بمكة، ثم يأتيهما بالخبر، فإذا كان السحر سرَحَ مع الناس.

ثم قال: وذكر الحاكم في مستدركه عن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر، فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ فسأله فقال له: يا رسول الله؛ أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فقال: «يا أبا بكر لو كان شيء أحببتَ أن يكون بك دوني؟» قال: نعم، والذي بعثك بالحق، فلما انتهى إلى الغار؛ قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله؛ حتى أستبرئ لك الغار، فدخل، فاستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه؛ ذكر أنه لم يستبرئ الحجَرَةَ، فقال: مكانك يا رسول الله؛ حتى أستبرئ الحجرة، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل، فمكثا في الغار ثلاث ليالٍ حتى خمدت عنهما نار الطلب، فجاءهما عبدالله بن أريقط بالراحلتين، فارتحلا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة وسار الدليل أمامهما وعين الله تكلؤهما وتأييده يصحبهما وإسعاده يرحلهما وينزلهما.

ولما يئس المشركون من الظفر بهما؛ جعلوا لمن جاء بهما دية لكلّ واحد منهما، فجدَّ الناس في الطلب، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]، فلما مروا بحي بني مدلج مصعدين من قديد؛ بصر بهم رجل من الحي، فوقف على الحي، فقال: لقد رأيت آنفًا بالساحل أسودة ما أراها إلا محمدًا

وأصحابه، ففطن بالأمر سراقة بن مالك، فأراد أن يكون الظفر له خاصة، وقد سبق له من الظفر ما لم يكن في حسابه، فقال: بل هم فلان وفلان، خرجا في طلب حاجة لهما، ثم مكث قليلاً، ثم قام فدخل خباءه، وقال لخادمه: اخرج بالفرس من وراء الخباء، وموعدك وراء الأكمة، ثم أخذ رمحه، وخفض عاليه يخط به الأرض حتى ركب فرسه، فلما قرب منهما وسمع قراءة رسول الله ﷺ، وأبو بكر يكثر الالتفات، ورسول الله ﷺ لا يلتفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله؛ هذا سراقة بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض، فقال: قد علمت أن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما عليَّ أن أرد الناس عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق، وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتابًا، فكتب له أبو بكر بأمره في أديم، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة، فجاءه بالكتاب، فوفَّاه له رسول الله ﷺ وقال: «يوم وفاءٍ وبرٍّ»، وعرض عليهما الزاد والحِملان، فقالا: لا حاجة لنا به، ولكن عَمِّ عنا الطلب، فقال: قد كفيتم، ورجع فوجد الناس في الطلب، فجعل يقول: قد استبرأت لكم الخبر، وقد كفيتم ما هاهنا، وكان أول النهار جاهدًا عليهما، وآخره حارسًا لهما»[(1)].

خرج سراقة خلف رسول الله ﷺ ليستلم الجائزة ويسلم محمدًا لأعدائه، ولكنَّ سراقة الآن يطلب الأمان من محمد ﷺ وصاحبه فكتب أبو بكر له الأمان، وقال رسول الله ﷺ لسراقة: كيف بك يا سراقة إذا تسورت بسواري كسرى؟! قال سراقة متعجبًا: كسرى أنوشروان؟!.. هكذا والرسول ﷺ مطارد، لا يجد كسرة خبز، ويعد سراقة بأنه سوف يتسور بسواري كسرى، أكبر إمبراطور، وأعظم حاكم لدولة فارس، من يتصور هذا؟ أو يتخيل أنه سوف يكون؟

دارت الأيام، وفتح الله على المسلمين دولة فارس، هدمها سعد بن أبي وقاص، وداس عرش كسرى وسحبوه من على سريره ذليلاً مهانًا، وأخذوا سواريه غنيمة، فأتى بالسوارين، وقيل: أين سراقة بن مالك؟ فجاءه

---

(1) «زاد المعاد» (٣/٥١ ـ ٥٥).

فسوَّروه فبكى سراقة، وقال: صدق خليلي ﷺ، وهكذا تحققت نبوءة محمد ﷺ، وثبتت المعجزة، وتبينت الآية.

كان رسول الله ﷺ يتقدم على أبي بكر فيقول الناس لأبي بكر: من هذا؟ فيقول: هذا هادٍ يهديني الطريق. والناس يفهمون من كلام أبي بكر أنه يهديه الطريق إلى المدينة، وإنما مراد أبي بكر يهديه إلى طريق الحق والنجاة والإيمان.

عن البراء قال: «ابتاع أبو بكر من عازب رَحْلًا، فحملته معه، قال: فسأله عازب عن مسير رسول الله ﷺ قال: أخذ علينا الرصد، فخرجنا ليلًا فأحثثنا ليلًا ويومنا حتى قام قائم الظهيرة، ثم رفعت لنا صخرة فأتيناها ولها شيء من ظل، قال: ففرشت لرسول الله ﷺ فروة معي، ثم اضطجع عليها النبي ﷺ فانطلقت أنفض ما حوله، فإذا أنا براعٍ قد أقبل في غنيمة يريد من الصخرة مثل الذي أردنا فسألته: لمن أنتَ يا غلام؟ فقال: أنا لفلان، فقلت له: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت له: هل أنت حالبٌ؟ قال: نعم، فأخذ شاة من غنمه، فقلت له: انفض الضرع، قال: فحلب كثبة من لبن ومعي إداوة من ماء عليها خرقة، قد روّأتها لرسول الله ﷺ فصببت على اللبن حتى برد أسفله، ثم أتيت به النبي ﷺ فقلت: اشرب يا رسول الله؛ فشرب رسول الله ﷺ حتى رضيت، ثم ارتحلنا والطلب في إثرنا»[1].

طاردتْ في الغار من بوأها سؤددًا لا يبلغ النجم مداه
سؤددًا عالي الذرى ما شاده قيصرٌ يومًا ولا كسرى بناه

فالذي رفعنا إلى أعلى القمم وحررنا وجعل لنا تاريخًا هو محمد ﷺ بفضل الله ﷻ.

قال ابن شهاب: «فأخبرني عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقي الزبير في ركب من المسلمين، كانوا تجارًا من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩١٧).

بكر ثياباً بيض، وسمع المسلمون بالمدينة مخرج رسول الله ﷺ من مكة، فكانوا يغدون كلّ غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يومًا بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم، لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، فعدل بهم ذات اليمين، حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين من شهر ربيع الأوّل، فقام أبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامتًا، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يُحيِّي أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك، فلبث رسول الله ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وصلى فيه رسول الله ﷺ ثم ركب راحلته، فسار يمشي معه الناس، حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين، وكان مربدًا للتمر، لسهيل وسهل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد؛ ليتخذه مسجدًا، فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدًا. وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللَّبِنَ في بنيانه، ويقول وهو ينقل اللَّبِنَ:

هذا الحمالُ لا حمالُ خيبرْ ... هذا أبرُّ - ربنَا - وأطهرْ

ويقول:

اللهمَّ إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرهْ ... فارحمِ الأنصارَ والمهاجرهْ

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسمَّ لي»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٠٦).

استقبلته ﷺ القبائل، كلّ قبيلة تود أن ينزل في ضيافتها، وكلهم يعرض نفسه على رسول الله ﷺ: عندنا يا رسول الله العدة والعتاد، والسلاح والنصر، فيقول رسول الله ﷺ: «دعوها ـ أي الناقة ـ فإنَّها مأمورة»؛ أي اتركوا الناقة تسير، فإذا بركت في مكان فهو الذي رضيه الله لي، استقر رسول الله ﷺ في ضيافة أبي أيوب الأنصاري، فاز بها أبو أيوب، فاز بضيافة أفضل الخلق، وأشرف البشرية وأطهرها جمعاء محمد ﷺ.

لم تكن حياته ﷺ ـ سواء في مكة أو المدينة ـ حياة فتورٍ أو كسل أو خمول، بل حياة جد واجتهاد وعمل دائب، فحياته كلها جهاد ودعوة وتضحية ومواعظ ودروس وفوائد وإخاء ووفاء، ثلاث وعشرون سنة كلها عطاء، أفاد منها العلماء والفقهاء، والمفسرون والمُحَدِّثون، والأصوليون والمؤرخون.

فكلهمُ منْ رسولِ اللهِ ملتمسٌ

غرفًا منَ البحرِ أوْ رشفًا من الدِّيَمِ

أول ما بدأ رسول الله ﷺ في المدينة ببناء المسجد، منطلق النور والهداية، ومصدر الإشعاع والبركة، والسعادة والخير، والحق والعدل، والإنصاف والسماحة، وهكذا ينبغي للمسلم أن يحافظ على المسجد، ويتعلق قلبه به، حتى يظل في ظل الله يوم القيامة، ويكون من الأصناف السبعة الذين ذُكِرُوا في الحديث[1]. ويروى: «إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد؛ فاشهدوا له بالإيمان»[2].

---

(١) حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله..» أخرجه البخاري (رقم ٦٦٠)، ومسلم رقم (١٠٣١).

(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٢٦١٧، ٣٠٩٣).

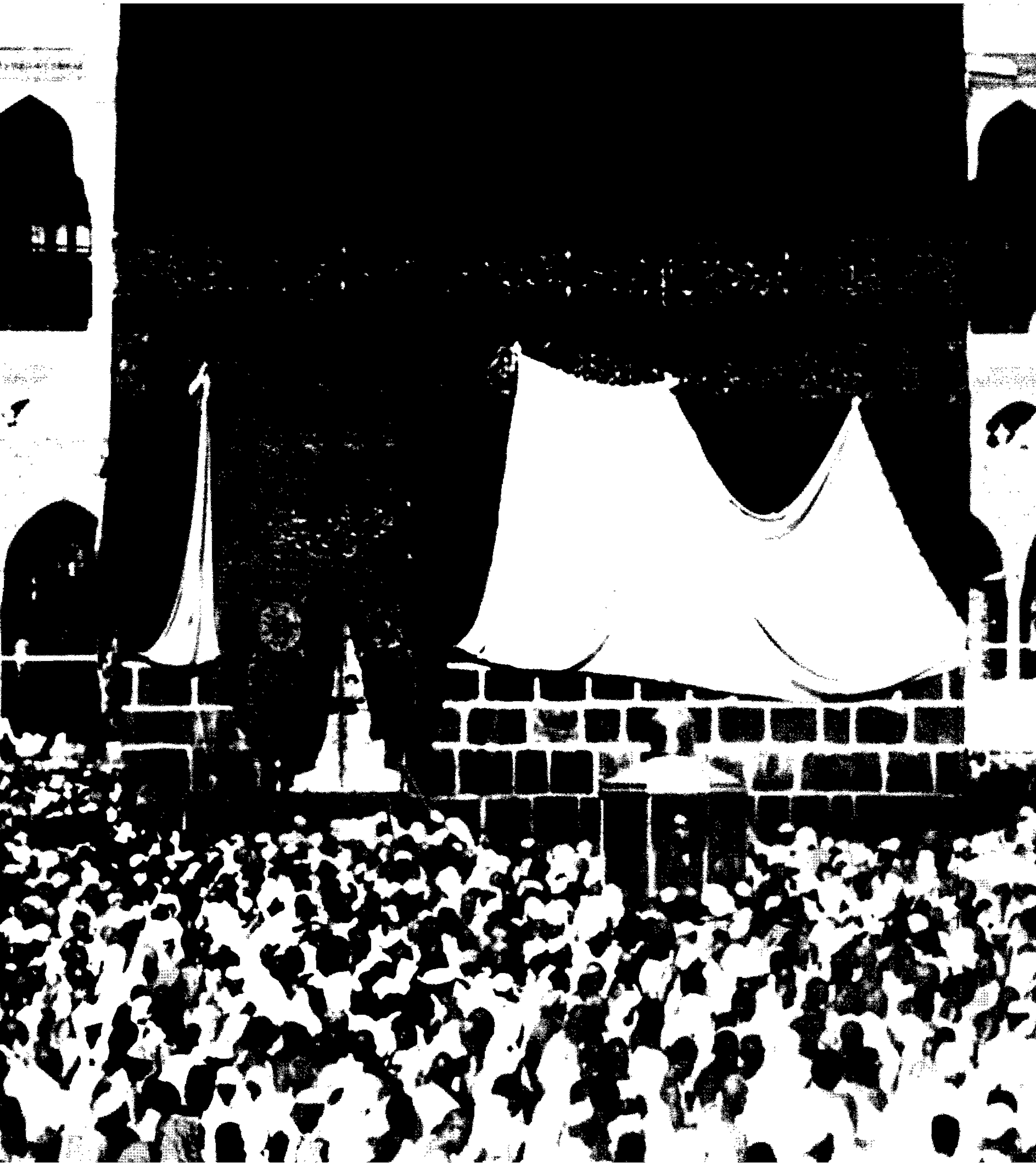

العهد المدني

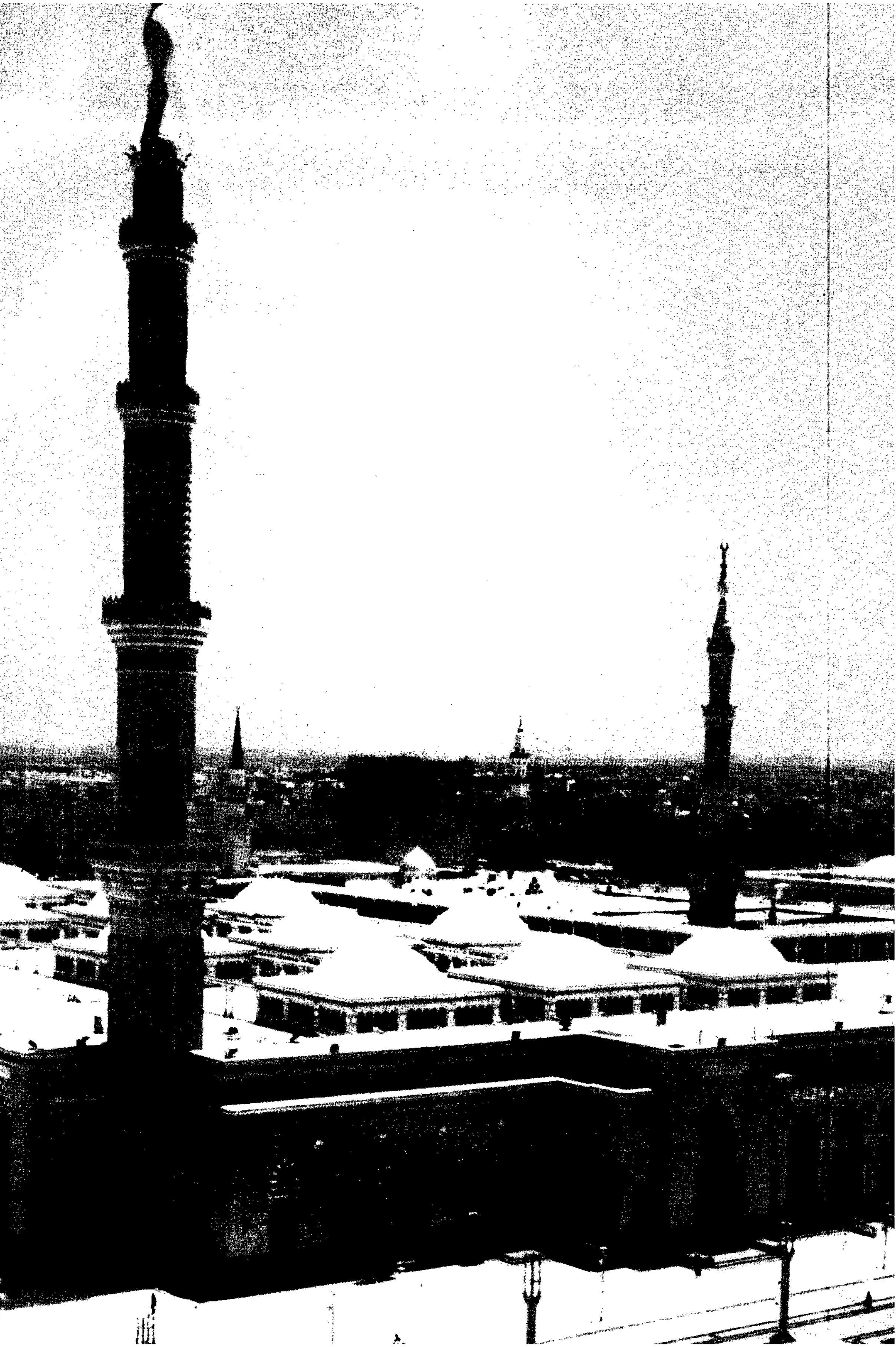

بدر

إن الحديث عن غزوة بدر الكبرى، هو حديث في حياة النبي ﷺ المشرقة، وسيرته الندية العطرة، حديث عن سلمه وحربه، عن رضاه وغضبه، إن هذه الغزوة، هي يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، هي ملحمة الحسم والبيان، هي الملحمة التي أعزَّ الله فيها عباده المجاهدين الصابرين المحتسبين، وهم قلة في العتاد والعدد، وقد نصرهم على أعدائهم أئمة الكفر، وسدّ عليهم طريق المدد؛ فباتوا بِشَرٍّ ليلة تتمزق قلوبهم من الحسد:

ألا قل لمن بات لي حاسدًا ... أتدري على من قد أسأت الأدبْ
أسأت إلى الله في فضله ... لأنك لم ترض لي ما وهبْ
فكان جزاؤك أن زادني ... وسد عليك طريق الطلبْ

قال الحافظ ابن كثير - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «لما كان في رمضان من هذه السنة الثانية بلغ رسول الله ﷺ أن عيرًا مقبلة من الشام في صحبة أبي سفيان، صخر بن حرب في ثلاثين أو أربعين رجلاً من قريش، وهي عير عظيمة تحمل أموالاً جزيلة لقريش، فندب ﷺ الناس للخروج إليها، وأمر من كان ظهره حاضرًا بالنهوض، ولم يحتفل لها احتفالاً كثيرًا، إلاّ أنه خرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً لثمان خلون من رمضان، واستخلف على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم، فلما كان بالروحاء رد أبا لبابة بن عبد المنذر، واستعمله على المدينة»[1].

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٩٢)، ط مكتبة المعارف.

إنه يوم تنزلت فيه الملائكة، وشاركت في القتال، يوم نزل جبريل مع الرسول عليه الصلاة والسلام، إنها المعركة الكبرى الفاصلة في تاريخ الإسلام، إنها بداية النصر، وبداية دحر الباطل، وارتفاع كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، يوم هاجر الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى المدينة، هاجر طريدًا شريدًا مسبوبًا محاربًا من الكفار فبقي ﷺ مظلومًا هناك يتربص بقريش الظالمة الجائرة الدوائر، حتى أمكنه الله منهم، وقد سمع ﷺ وهو في المدينة أن أبا سفيان بن حرب قدم بقافلة من الشام تريد مكة، قافلة محملة بالحبوب والزبيب والثياب وفواكه الشام، فاستنفر ﷺ الناس لما سمع الخبر، وجاءه الخبر ضحى، ولم يكن عند الناس وقت طويل حتى يعدوا للأمر عدته إنما أخبرهم ﷺ فجأة؛ فأخذوا سيوفهم ورماحهم، وانطلق معه ﷺ ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً باعوا أنفسهم من الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [التوبة: ١١١]، وهم على عدد أصحاب طالوت يوم عبر بهم النهر، والعجيب أنه لما خرج كان في قلة من ذات اليد، فكان يتعاقب هو وبعض أصحابه على بعير قيل ثلاثة هم: علي والمقداد وقيل مع رجل آخر، فكان يركب ﷺ قليلاً ثم ينزل، ثم يركب الآخر ثم ينزل فاستحيوا منه؛ لأنهم عرفوا الفرق بين النفس التي تحملها أجسادهم، والنفس التي يحملها جسده ﷺ.

ومبلغ العلم فيه أنه بشرٌ وأنه خير خلق الله كلهم

إنه محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، رسول الله ﷺ، كيف يمشي وهم يركبون؟! فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا يوم بدرٍ كلّ ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعليٌّ بن أبي طالب، زميلي رسول الله ﷺ. قال: وكانت عُقبةُ رسول الله ﷺ، قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال ﷺ: «**ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما**»[1] فكان يركب قليلاً

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/٤١٢، ٤١٩) وأبو يعلى (رقم ٥٣٥٩)، والبغوي في شرح السنة (رقم ٢٦٨٦)، وابن حبان (٤٧٣٣)، والحاكم (٢/٩١) و (٣/٢٠)، وقال: صحيح على =

وينزل ﷺ، استمروا على ذلك حتى نزلوا عند الماء قريبًا من بدر، ولما أصبحوا عند الماء، وقف ﷺ في أعلى الوادي فجاءه الحباب بن المنذر وهو أنصاري صاحب رأي، وهو المجرب المحنك؛ لكثرة رأيه وجودة ذهنه، وهو صاحب الشورى في سقيفة بني ساعدة فقال: يا رسول الله هل المنزل هذا الذي نزلته منزل أنزلك الله ﷻ وأوحى الله به لك وحيًا من السماء، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال ﷺ: «**لا.. بل هو الرأي والحرب والمكيدة**»[1]، أي أنه ما أتاني وحي، ولست مأمورًا بشرع فيه، قال: يا رسول الله فانزل في أسفل الوادي، واحجز المياه خلف ظهرك؛ لأنه إذا حجزها ﷺ عن معسكر الباطل وعن جيش الضلالة؛ فإنهم سوف يموتون عطشًا، فقال ﷺ للناس: ارتحلوا؛ استجابة لرأي الحُباب، وفي ذلك دليل على أنه ﷺ يقبل الرأي، وأنه يشاور أصحابه، ولعل في ذلك عبرةً للقادة، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، وقال عز من قائل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾، وهو يدل على تواضعه عليه الصلاة والسلام حتى مدحه الله بذلك وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾، فهي رحمة الله التي نالته ونالتهم، فجعلته ﷺ رحيمًا بهم لينًا معهم، ولو كان فظًّا غليظ القلب ما تألفت حوله القلوب، ولا تجمعت حوله المشاعر.

وبهذا النص القرآني الخالد: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ يقرر الإسلام هذا المبدأ في نظام الحكم، حتى ومحمد رسول الله ﷺ هو الذي يتولاه. وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًا في أن الشورى مبدأ أساس، لا يقوم

= شرط مسلم ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/٧١ ـ ٧٢): رواه أحمد والبزار... وفيه عاصم ابن بهدلة، وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/٤٢٦ ـ ٤٢٧)، وسكت عنه. وقال الذهبي: حديث منكر. وانظر سيرة ابن هشام (٢/٣١٢ ـ ٣١٣) وأشار محققا السيرة إلى ضعف الحديث.

نظام الإسلام على أساس سواه، أما شكل الشورى والوسيلة التي تتحقق بها، فهذه أمور قابلة للتحوير والتطوير، وفق أوضاع الأمة، وملابسات حياتها، وكل شكل وكل وسيلة تتم بها حقيقة الشورى ـ لا مظهرها ـ فهي من الإسلام.

وبناء على هذه المشورة؛ فقد نزل ﷺ أسفل الوادي، وأمر أن تحفر الآبار خلف ظهره، ونزل كل إنسان تحت شجرة، فمنهم من عبأ الحوض، ومنهم من اشتغل بنفسه، ومنهم من اشتغل بسلاحه، فهم يستعدون لليوم الفاصل، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه، فتكلم كثير من المهاجرين فأحسنوا، ثم استشارهم ـ وهو يريد ما يقول الأنصار ـ فبادر سعد بن معاذ رضي الله عنه، فقال: يا رسول الله، كأنك تعرض بنا، فوالله يا رسول الله لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، فَسِرْ بنا يا رسول الله على بركة الله.

فَسُرَّ ﷺ بذلك، وقال: «سيروا وأبشروا، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين»(١)». إما أن يأخذوا الإبل تذهب غنيمة جزاءً نكالاً لهؤلاء الأشرار الذين أخرجوهم من مكة، وإلا يواجهون ذات الشوكة، والله سبحانه يقول ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧] يقول: كنتم تريدون الإبل والحبوب والزبيب، ولكن الله أراد أمرًا آخر، يريد الله أن يتم أمره فيأتي بذات الشوكة يعني بالسيوف والرماح، يريد أن يتواجه الحق والباطل، وأن يتواجه الدم بالدم، والسيف بالسيف، والرمح بالرمح؛ حتى

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٩٤ ـ ٩٥)، وقال محققا الفصول: وقال ابن كثير في البداية (٣/٢٦١): وله شواهد من وجوه كثيرة. وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٦).

قلت: ثبت عن طارق بن شهاب قال: سمعت ابن مسعود يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهدًا، لأن أكون صاحبه أحب إليَّ مِمّا عُدِل به: أتى النبي ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: لا نقول كما قال قوم موسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسَرَّه، يعني قوله. أخرجه البخاري (رقم ٣٩٥٢).

يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، يريد أن تلتقي السماء والأرض، والحق والباطل، ويشترك الملائكة والمؤمنون في قتال الباطل والشيطان، ونزل ﷺ من تلك الليلة وأخذ يتهجد ودعا الله وابتهل، وبكى حتى سقطت بردة أو خميصة عن أكتافه ﷺ. عن عبدالله بن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلاً فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني. اللهم آتِني ما وعدتني. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فما زال يهتف بربه مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه. وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فأمدَّه الله بالملائكة»[(١)]. قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ: قال ابن إسحاق: «وقد ارتحلت قريش حين أصبحت فأقبلت فلما رآها رسول الله ﷺ تصوَّب من العقنقل ـ وهو الكثيب الذي جاؤوا منه إلى الوادي ـ قال: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة**»[(٢)].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: وبات رسول الله ﷺ تلك الليلة يصلي إلى جَذْم شجرة هناك، وكانت ليلة الجمعة السابع عشر من رمضان، فلما أصبح وأقبلت قريش في كتائبها، قال ﷺ: «**اللهم هذه قريش قد أقبلت في فخرها وخيلائها، تحادّك وتحادّ رسولك**»[(٣)].

يقول ابن تيمية ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: «وحال الرسول ﷺ أعظم وأعرف بالله،

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣).
(٢) السيرة النبوية (٢/٣١٤) وأشار محققا السيرة إلى ضعف الخبر.
(٣) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص٩٨)، وقال محققا الفصول: وأشار الذهبي في المغازي إلى ضعفه، فقال: فيما زعموا. وانظر زاد المعاد (٣/١٧٩).

فإن الله يحب الملحين في الدعاء، وهذا هو الذي يريده سبحانه وتعالى من العبد، يريد أن يلح عليه، وأن يدعوه وأن يكثر من المسألة وأن يرجوه، وهذا الإلحاح والكثرة في الدعاء يمثل جانب العزة عند العبد حين يفقد كل وسائل الارتباط والنجاح بالبشر، ويربطها برب البشر، ولذلك ورد في بعض السنن: «أن الله يحب الملحين في الدعاء»(١)، وقال أبو بكر في آخر عمره: «ألحوا على الله، فإن الله يحب الملحين في الدعاء».

ولما أتى أبو سفيان من الشام، أقبل إلى بدر وجاءه الخبر لأمر أراده الله، أتاه جاسوس من مزينة أو بعض قبائل العرب، وقال: يا أبا سفيان؛ إن محمدًا قد خرج بجيش يريد القافلة، فذهب أبو سفيان إلى بدر ليتأكد بنفسه، فأتى إلى بدر قبل أن يصل إليها ﷺ، وقال لأناس يسقون على ماء بدر: هل أتى أحد؟ هل سمعتم بأناس؟ قالوا: لا.. لكن أتى رجلان على جملين، يعني جسا في المكان، فلقد أرسلهم ﷺ لذلك، ثم جاء أبو سفيان فأتى إلى بعر الجمال وقدها، ثم قال: والله إن فيها تمر يثرب، وإن محمدًا أرسلها، فشرد مع القافلة ونجا بنفسه وذهب إلى مكة، وأرسل أبا ضمضم إلى قبيلته من قريش قبل أن يصل إلى بدر وقبل أن يأتيه الخبر، وأخبرهم أن القافلة قد ذهبت؛ لأنه ظن أنه سوف يقع في المصيدة، ثم أتى أبو ضمضم هذا على جبل أبي قبيس، وشق ثوبه نصفين، وحول وجهه إلى آخر البعير وظهره إلى رأس البعير وقال: اللطيمة اللطيمة يا قريش، اللطيمة.. اللطيمة(٢)، وإذا بالصوت من طرف أبي قبيس إلى قينقاع، ومن أطراف مكة يمينًا ويسارًا. وسمع القوم الخبر، فخرجوا إلى الحرم ألف مقاتل بالسيوف وقالوا: قافلة أبي سفيان سوف يأخذها محمد، ثم اجتمعوا في الحرم، وقام عاقل منهم اسمه الأحنف بن شريح وقال بعد نجاة القافلة: إن ذهبتم إلى محمد؛ تقتلون أبناءكم وإخوانكم، وإن غلبكم

(١) قال الألباني في السلسلة الضعيفة (رقم ٦٣٧): وهذا سند ضعيف جدًّا، بل موضوع. وكذا قال في ضعيف الجامع (رقم ١٧١٠).

(٢) قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ في النهاية (٢٥١/٤): اللطيمة: الجمال التي تحمل العطر والبَزَّ، غير الميرة. ولطائم المسك: أوعيته. وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢٩٨/٢).

محمد؛ فهي هزيمة للعرب فابقوا مكانكم، فكأنهم استملحوا رأيه، وقام عتبة من كبارهم واستملح هذا الرأي، فقام الشرير الآثم أبو جهل فرعون الأمة، وقال: أقسم باللات والعزى ما نبقى في أماكننا، وأننا سوف نذهب إلى بدر ونبقى فيها ثلاثًا، ونقتل محمدًا وأصحابه، وتغني لنا القيان، ونشرب الخمر، ولا تزال العرب ترهبنا أبد الدهر[1]، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٤٧]، فكانوا بين رجلين: إما خارج وإما باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلم يتخلف من أشرافهم أحد سوى أبي لهب، فإنه عوَّض عنه رجلاً كان له عليه دين، وحشدوا فيمن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلاّ بني عدي، فلم يخرج معهم منهم أحد، وخرجوا من ديارهم كما قال تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وأقبلوا كما قال رسول الله ﷺ: «بحدهم وحديدهم تحاده وتحاد رسوله»، ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَـٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾، وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله ﷺ وأصحابه لما يريدون من أخذ عيرهم، وقتل من فيها، وقد أصابوا بالأمس عمرو بن الحضرمي، والعير التي كانت معه، فجمعهم الله على غير ميعاد، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]»[2].

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن إسحاق: «وحدثني عبدالله بن أبي نجيح أن أمية بن خلف كان أجمع القعود وكان شيخًا جليلاً جسيمًا ثقيلاً، فأتاه عقبة بن أبي معيط وهو جالس في المجلس بين ظهراني قومه بمجمرة يحملها، فيها نار وجمر، حتى وضعها بين يديه، ثم قال: يا أبا علي استجمر فإنما أنت من النساء. قال: قبحك الله وقبح ما جئت به، قال: ثم تجهز فخرج مع الناس»[3].

---

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ص (٩٦)، والسيرة النبوية، (٢/٣١٠ ـ ٣١١).
(٢) زاد المعاد (٣/١٧٢ ـ ١٧٣).
(٣) السيرة النبوية (٢/٢٩٨ ـ ٢٩٩).

ومن معجزات النبي ﷺ أنه أخبر بمقتل أمية بن خلف قبل المعركة، وقد أخبر أمية بذلك قديمًا في مكة، ولما خرج أمية متجهزًا للحرب أخذ لا ينزل منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل كذلك حتى قتله الله ببدر، ويروى أن امرأته لما علمت بمقولة النبي ﷺ عن مقتله قالت: والله إن محمدًا لا يكذب.

ومن قصصه ﷺ أنه نزل قريبًا من بدر فركب هو ورجل من أصحابه - قيل أبو بكر- حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم. فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا أخبرتنا أخبرناك»، فقال: أو ذاك بذاك؟ قال: «نعم». قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدًا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدق الذي أخبرني؛ فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله ﷺ، وبلغني أن قريشًا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا للمكان الذي به قريش، فلما فرغ من خبره قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: «نحن من ماء»[1] ثم انصرفا عنه. وهذه من المعاريض الصادقة التي تستخدم في الحرب، والحرب مكيدة وخدعة.

ثم رجع ﷺ إلى أصحابه، وفي المساء طلب أن تجس المنطقة ويلتمس الخبر له، وبعث لذلك عليًّا والزبير وسعد بن أبي وقاص، فأصابوا رواية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله قائم يصلي فقال لهما رسول الله: «كم القوم؟» قالا: كثير. قال: «ما عدتهم؟» قالا: لا ندري، قال: «كم ينحرون كل يوم؟» قالا: يومًا تسعًا ويوم عشرًا، قال: «القوم ما بين تسعمائة إلى ألف لأن المائة يكفيهم جمل». قال ابن القيم رحمه الله: «فأنزل الله عز وجل في تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلاً شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طلاً طهرهم

(١) السيرة النبوية (٢/٣٠٦ ـ ٣٠٧).

به، وأذهب عنهم رجس الشيطان ووطّأ به الأرض، وصلّب به الرمل، وثبّت الأقدام، ومهّد به المنزل، وربط به على قلوبهم[1]. وتقارب القوم لأمر أراده الله - سبحانه وتعالى -، وأتت الليلة الفاصلة فلم يبق إلا ليلة واحدة، وتبدأ أول معركة في تاريخ الإسلام، وأول حرب بين الكفر والإيمان، وأول وقعة رفع الله بها الدين وارتفعت بها «لا إله إلا الله»، وهذه الليلة عند أهل العلم هي الليلة التي قامها ﷺ ولم ينمها جميعًا، يقول أبو بكر وعمر: «ما منا أحد في تلك الليلة إلا نام إلا محمد - عليه الصلاة والسلام -، والله ما نام حتى أصبح وهو القائد - عليه الصلاة والسلام -، فهو أعبد الناس، وأخشى الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس، فلابد أن يكون هو الأول والأعلى والأعظم، يدعو الله ويبكي ويسجد ويتلهف؛ لأنه يحمل إيمانًا ودينًا سوف يبلغه الدنيا بأسرها، فسأل ﷺ بعض الناس عن الذين خرجوا من قريش، فقالوا: خرج عتبة وخرج شيبة أخوه والوليد بن عتبة وأبو جهل، قال: «أيها الناس؛ هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها»[2]، ثم أتى ﷺ فوعظ الناس وخطبهم ﷺ وهم جلوس فقال: «ما ترون أيها الناس؟ إن الله وعدني إحدى الطائفتين، فماذا ترون؟»، فقام المهاجرون ومنهم أبو بكر وقام المقداد، والرسول ﷺ كان واثقًا من المهاجرين، ولكنه كان ينتظر رأي الأنصار؛ لأنه ﷺ وعدهم وبايعهم على أن يحموه في ديارهم في المدينة، فالرسول ﷺ يريد كلمة منهم؛ لأن أكثر المقاتلين في بدر من الأنصار، فالمهاجرون بين سبعين أو ثمانين، فيريد ﷺ الكلمة الحاسمة والنهائية، فلما كثر الكلام؛ قام سعد بن معاذ؛ «الذي اهتز له عرش الرحمن»[3] فقال: يا رسول الله كأنك تريدنا، قال: نعم، قال: يا رسول الله صل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وحارب من شئت، وسالم من شئت، وأعط من شئت، وامنع من شئت، فإنَّا لصدقٌ في الحرب، صبرٌ في اللقاء، وعسى الله أن يريك منا

(١) زاد المعاد (٣/١٧٥).
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٨).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٠٣)، ومسلم (رقم ٢٤٦٦).

ما تقر به عينك، والله لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، فَسِرْ على بركة الله، فتهلل وجهه ﷺ ودعا لسعد وترحم عليه، وشكر ﷺ هذه المواقف من الأنصار، وكانوا كلهم على كلمة سعد، ثم أتى الصباح وما أدراك ما الصباح، إنه صباح اليوم الخالد؛ السابع عشر من رمضان، وهذا التاريخ لا يجب أن يمر علينا هكذا كأي تاريخ؛ بل يجب أن يسجل ويحفظ في ذاكرة كل مسلم، ويكتب بالدم في سويداء القلوب، وعلى الخدود، وارتفعت «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، فصف عليه الصلاة والسلام الصحابة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يجيب دعاء الناس في موطنين، إذا اصطفوا للصلاة، وإذا اصطفوا في الحرب، فصفهم ﷺ صفًّا طويلاً ثم صفًّا بعده، وأخذ يسوي الصفوف، ثم أخذ ﷺ عصى ووكز سواد بن غزية في صدره وقال له: تأخر؛ لأنه كان متقدمًا، فقال: يا رسول الله؛ آلمتني وأنت لا تقبل الحيف والظلم؛ لأنه يريد أن يستشهد ويقتل في المعركة في ذلك الوقت، قال: أريد القصاص، قال ﷺ: اقتص، فرفع ﷺ له وبيد سواد العصا، ثم وضع العصا وألقى بها ووضع رأسه ولحيته في صدر المصطفى ﷺ، وبكى أمام الناس، قال: أريد أن يكون آخر عهدي ووجهي بصدرك يا رسول الله، ثم أنزل ﷺ الناس منازلهم وقال: انضحوهم عنكم بالنبل أي لا تبدؤوا؛ ولا تتمنوا لقاء العدو واصبروا، ووعظهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ موعظة بليغة، ثم نظروا إلى الكفار وإذا جبل عقنقل أقبل، كأن الجبل أقبل معهم بخيلاء وكبر، ومعهم أبو جهل ومعهم القيان والجواري يضربن بالدفوف، فنظر ﷺ إليهم ودعا عليهم، وسأل الله أن يمكن المسلمين منهم، واقتربت الصفوف، وبدأت المعركة. قال عتبة وهو كبيرهم: يا محمد أخرج لنا ثلاثة نبارزهم، فكان من عادة العرب قبل أن تلتحم الصفوف أن يخرج ثلاثة يقابلهم ثلاثة من الطرف الآخر ثم تبدأ المعركة، فقام ثلاثة من الأنصار قال: معكم فلان وفلان وفلان، قال عتبة: ما نريد الأنصار فالأنصار أكفاء وكرام، لكن نريد منا من قريش، من المهاجرين. فقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو القائد الأعظم الذي يؤثر الناس على نفسه، والذي يَقْدم أقاربه ويقدم دمه ـ عليه

الصلاة والسلام ـ ويقدم رحمه على الناس: قم يا عبيدة بن الحارث وهو ابن عمه، قم يا حمزة بن عبد المطلب أسد الله في أرضه وسيد الشهداء، قم يا علي بن أبي طالب أبو الحسن أمير المؤمنين. فقام الثلاثة وتبارزوا، فتقدم عتبة والتقى به عبيدة فكل منهما أنطق قدم الآخر، وأتى حمزة إلى شيبة وذبحه، وأتى عليٌّ إلى الوليد فنحره، ثم اجتمع حمزة وعلي على شيبة فقتلاه، ثم بدأت الصفوف تتدانى[(١)]، وكان عبدالرحمن بن عوف في الصف الأول يسوي الناس ويقول: وإذا أنا بين معوذ ومعاذ ابْنَيْ عفراء، قال: فلما بدأت المعركة قال معوذ ومعاذ: يا عماه ـ يقصدان عبدالرحمن بن عوف وهو ـ يومئذ ـ رجلٌ جاوز الأشد ـ أين أبو جهل؟ إذ لم يكونا يعرفان أبا جهل، قال: ترون الرجل الذي عليه الدرق ـ وقد كان أبو جهل في رماح وشوكة مدجج بالسلاح ـ هو ذاك، قالوا: والله لا يفارق سوادنا سواده هذا اليوم حتى نذبحه، قال: فلما بدأت المعركة انطلق الاثنان يتسابقان، ثم اقتحما البنية من السيوف، ثم اقتحما الكوخ، ثم اقتحما الرماح، ثم وصلا إليه، أما أحدهما فنحره وقطع رأسه، وأما الآخر فضربه بالسيف في بطنه[(٢)]، وأتيا يتسابقان إلى محمد ﷺ كل منهما يقول: أنا قتلته، قال ﷺ: كلاكما قتله وقطعا رأسه، ثم

---

(١) عن حارثة بن مضرب عن علي قال: تقدم ـ يعني عتبة بن ربيعة ـ وتبعه ابنه وأخوه، فنادى: من يبارز؟ فانتدب له شباب من الأنصار. فقال: من أنتم؟ فأخبروه، فقال: لا حاجة لنا فيكم، إنّما أردنا بني عمنا، فقال رسول الله ﷺ: «قم يا حمزة، قم يا علي، قم يا عبيدة بن الحارث»، فأقبل حمزة إلى عتبة وأقبلت إلى شيبة، واختلف بين عبيدة والوليد ضربتان، فأثخن كلّ واحد منهما صاحبه ثم ملنا على الوليد، فقتلناه، واحتملنا عبيدة. أخرجه أبو داود (رقم ٢٦٦٥)، وأحمد (١/١١٧ ـ ١١٨). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٧٩): روى أبو داود منه طرفًا، رواه أحمد والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة.

(٢) قال عبدالرحمٰن بن عوف: إني لفي الصف يوم بدر، إذ التفت فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عم أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، وما تصنع به؟! قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه. فقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله. قال: فما سرني أني بين رجلين مكانهما، فأشرت لهما إليه، فشدّا عليه مثل الصقرين حتى ضرباه، وهما ابنا عفراء. أخرجه البخاري (رقم ٣٩٨٨)، ومسلم (رقم ١٧٥٢) باختلاف.

بقي في جلده وبقي في آخر رمقه ودمه يصب في الأرض، فصعد ابن مسعود على صدر أبي جهل وكان نحيلاً، ولقد أهان أبو جهل ابنَ مسعود وعذبه في مكة، قال أبو جهل: لمن الدائرة هذا اليوم يا ابن مسعود أخبرنا؟ قال: عليك يا عدو الله، قال: لقد ارتقيت مرتقًى صعبًا يا رُويعي الغنم(١)، فأخذ ابن مسعود بسيف كان معه، فقال: خذ ذاك السيف أي أنه كان يريد من ابن مسعود أن يريح نفسه فأخذه فجز رأسه، ثم أتى به يسحب رأسه فألقاه، فأمر بجثته أن تلقى في القليب، فقال الصحابة: ما عرفنا جثة أبي جهل يا رسول الله، فقال: التمسوه في القتلى وفي ركبته آثار من جراح قد أثرت فيه، فإني قد صرعته على مائدة ابن جدعان ونحن شببة - يعني شبابًا -؛ لأن عبدالله بن جدعان كان من كرماء مكة ومن أسيادها، وكان يضيف الناس ويغديهم، فكأن الرسول ﷺ تقدم على أبي جهل وهم في سن واحد فأراد أبو جهل أن يرده، فأخذه الرسول ﷺ فرفعه فلطمه في الأرض فجرح جرحًا عظيمًا، فبقيت في ركبته آثاره، فعرفوه فسحبوه إلى القليب، وأتبع أهل القليب لعنة.

عن أنس ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برد. قال: أأنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته، قال: وهل فوق رجل قتلتموه أو رجل قتله قومه»(٢).

ومن الوقفات في هذا المشهد العظيم ما قاله ابن هشام رحمه الله: قال ابن إسحاق: «وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، حليف بني عبد شمس بن عبد مناف يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة. فلما أخذه من رسول الله ﷺ هزه، فعاد سيفًا في يده طويل القامة شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف

(١) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٦٢)، ومسلم (رقم ١٨٠٠).

يسمى: العَوْن. ثم لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قتل في الردة، وهو عنده»[1].

ومنها أن الملائكة شاركت بألف ونزلوا مسومين من السماء، ونزلوا على جبل عقنقل ثم اشتركوا مع المؤمنين في قتال الكافرين، حتى قيل: إن قائد الملائكة جبريل عليه السلام، وقائد الصحابة محمد ﷺ.

قال العباس: «سمعت يوم بدر ملكًا من الملائكة عليه عمامة بيضاء يقول: أقدم حيزوم»[2]، وقال آخر من الكفار: «والله ما ضربنا الناس، كنا نرى الضربة ما ندري من أين أتت، ثم نرى فإذا رأس الرجل يُطن به ويخرج عن جثته»، مما يدل على أن الملائكة كانت تشارك، قال الله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الانفال: ١٢]؛ قالوا: فكان ضرب الصحابة في الأعناق وفي الرؤوس وفي الصدور والبطون، أما الملائكة فكانت تضرب في البنان والأصابع فتطيرها، وتضرب على العنق ضربة واحدة فتطن بالرأس مرةً واحدة فكأن الرجل بلا رأس.

قال أبو زميل: «فحدثني ابن عباس: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيًا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه كضربة السوط، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ. فقال: «صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة»، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين»[3]. فمشاركة الملائكة تأييد من الواحد الأحد مسومين عليهم عمائم بيض[4].

---

(١) السيرة النبوية (٢/٣٣٦).

(٢) قال ابن الأثير في النهاية (١/٤٦٧): أقدم حيزوم: جاء في التفسير أنه اسم فرس جبريل عليه السلام، أراد: أقدم يا حيزوم، فحذف حرف النداء، والياء فيه زائدة.

(٣) أخرجه مسلم (رقم ١٧٦٣).

(٤) انظر السيرة النبوية (٢/٣٣٠ ـ ٣٣١).

قال بعض أهل العلم: نزل جبريل معه كوكبة، ثم نزل وراءه ناس، ثم توزعوا ثم شاركوا في صف مع المؤمنين فكانت الدائرة على الكفار، واستأسر وقتل ـ عليه الصلاة والسلام ـ وأصحابه من الكفار وقتل الملائكة سبعين، جزروهم جزرًا فأمر بهم ﷺ أن يوضعوا في قليب وهي البئر المعطلة التي ليس فيها ماء، فجمعت الجثث ثم طرحوها في القليب[١].

عن أبي طلحة أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه وقالوا: ما نرى ينطلق إلاّ لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركيِّ، فجعل يناديهم بأسمائهم، وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟!»، قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم». قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا[٢].

ثم أتى ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الأسارى وكان عمه العباس من ضمنهم، يقول أبو حذيفة أحد الصحابة رضوان الله عليهم: سمعت الرسول ﷺ يقول: «من وجد عمي العباس فلا يقتله»؛ لأنه خرج مكرهًا مع قريش. وأثّر عليه من قرابته، فخرج ﷺ على نيته مع كفار قريش، قال أبو حذيفة: يا رسول الله نقتل أبناءنا وإخواننا وأعمامنا ولا نقتل العباس؟! والله لئن وجدته لألحمنه بالسيف في وجهه، قال عمر: دعني أضرب عنقه يا رسول الله فقد نافق، ثم قال أبو حذيفة: والله الذي لا إله إلا هو لقد عملت لها أعمالاً وإن خفت ما أخاف إلا من هذه الكلمة، وقد تبت من

(١) انظر السيرة النبوية (٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٧٦) ومسلم مختصراً (رقم ٢٨٧٥).

هذه الكلمة إلى الله، وإني أسأل الله أن يرزقني الشهادة تكفر عني هذه الكلمة، فرزقه الله الشهادة، فقتل شهيدًا ﷺ وأرضاه[1].

أتى - عليه الصلاة والسلام - إلى السبعين أسيرًا فأمر أن يقيدوا وأن يساقوا، وقام - عليه الصلاة والسلام - أمامهم قال: «والذي نفسي بيده لو كان المطعم بن عدي حيًّا فسألني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[2]. فقد كان للمطعم بن عدي موقف مع الرسول ﷺ؛ فقد أجاره من سادات قريش حتى يطوف بالبيت، ومات مشركًا، ثم مشوا فسمع ﷺ في الليل العباس يئن لأنهم شدوا يديه إلى عنقه، فمن عدله ما قام - عليه الصلاة والسلام - ليفك الحبل عن عمه العباس؛ لأن في القوم مأسورين مثله، فأتى في الصباح فقال: والذي نفسي بيده ما نمت البارحة من أنين عمي العباس، ولم أستطع أن أحل القيد عنه؛ فقاموا فحلوه وأرخوا له في الحبل، وقال الصحابة: يا رسول الله، وإن أردت عفونا عنه وأطلقناه لك، قال: «والذي نفسي بيده لا تطلقونه ولا تعفون عنه ولا تتركون من ديته درهمًا واحدًا».

هُزم كفار قريش وحلَّ بهم الويل والثبور، فهذا أمية بن خلف الذي عذب بلالاً في رمضاء مكة، أتى يوم بدر ومعه ابنه علي وقال لعبدالرحمن بن عوف - وكان صديقه في الجاهلية -: أنقذني هذا اليوم، فأنا عندك وصديقك في الجاهلية، قال: تعال، فأخذه وقال للناس: أيها الناس هذا أمية بن خلف وابنه علي صديقي في الجاهلية، وشريكي في التجارة لا يقربه أحد، قال المهاجرون والأنصار: سمعًا وطاعة احترامًا لعبدالرحمن بن عوف، وإذا بلال بن رباح يصيح في آخر الصفوف: عدو الله أمية بن خلف لا نجوت إن نجا! فلما سمع الصحابة صوته ثارت في رؤوسهم تلك الأيام الكالحة السود فأقبلوا على أمية بن خلف، فوضع عبدالرحمن بن عوف نفسه فوق أمية بن خلف، قال: فوالله لقد استخلصوه

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٢٤ - ٣٢٥) وضعف محققا السيرة هذا الحديث.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣١٣٩، ٤٠٢٤).

وأدخلوا السيوف من تحتي حتى نحروه، ثم أخذوا ابنه فمزقوه إربًا إربًا[1].

أما أخو أبي جهل الحارث رضي الله عنه ففر ذلك اليوم يقال: ما اعتذر أحد في الفرار مثل ما اعتذر هو، وقد كان شجاعًا وخطيبًا من خطباء العرب ورجلًا كريمًا، ولكنه ما استطاع أن يقاوم كتائب الإيمان، ففر بناقته، فهجاه حسان بقصيدة، فكان الحارث يبكي عندما يسمع القصيدة، ويقول: والله الذي لا إله إلا هو إن قصيدة حسان أشد على نفسي من هزيمتنا يوم بدر؛ لأن حسان ألقى عليه قذائف من الشعر ولذلك يقول ﷺ لحسان: «اهجهم وروح القدس يؤيدك، والذي نفسي بيده إنه أشد عليهم من نضح النبل»[2]، وكان ﷺ يقرب المنبر لحسان، ممّا يدل على أن الإعلام والكلمة الراشدة والفكر الصحيح والعلم النافع أشد - أحيانًا - من القنابل، وهذا مؤشر على أن المسلمين بحاجة إلى علم مؤصل، وإلى أدب راشدٍ قوي، يقف طودًا شامخًا في وجه العواصف والحملات المغرضة الآثمة المعادية. ومن أبيات حسان في الحارث بن هشام يهجوه يقول:

تَبلت فُؤادَك في المنَامِ خَرِيدةٌ ... تشفي الضجيع ببارِدٍ بسامِ
إن كنتِ كاذبةَ الذي حدثتني ... فنجوت منجى الحارث بن هشامِ
ترك الأحبة إنْ يقاتل دونهم ... ونجى برأس طِمِرّةٍ بلجامِ

---

(١) عن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه قال: كاتبت أمية بن خلف كتابًا، بأن يحفظني في صاغيتي بمكة، وأحفظه في صاغيته بالمدينة، فلما ذكرت الرحمن، قال: لا أعرف الرحمن، كاتبني باسمك الذي كان في الجاهلية فكاتبته: عبد عمرو، فلما كان في يوم بدر أخرجت إلى جبل لأحرزه حين نام الناس، فأبصره بلال، فخرج حتى وقف على مجلس من الأنصار، فقال: أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا أمية، فخرج معه فريق من الأنصار في آثارنا، فلما خشيت أن يلحقونا خلفت لهم ابنه لأشغلهم فقتلوه، ثم أبوا حتى يتبعونا، وكان رجلاً ثقيلاً، فلما أدركونا قلت له: ابرك فبرك، فألقيت عليه نفسي لأمنعه، فتخللوه بالسيوف من تحتي حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، وكان عبدالرحمن بن عوف يرينا ذلك الأثر في ظهر قدمه. أخرجه البخاري (رقم ٢٣٠١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٣، ٤١٢٣، ٤١٢٤)، ومسلم (رقم ٢٤٨٦).

لكن الحارث أسلم ﷺ وحسن إسلامهُ، وحضر (اليرموك) ليكفر الله عنه أسوأ ما عمل في (بدر) فقاتل الأعداء حتى قُتل، وهو من الذين قدم لهم خالد قدح الماء مع عكرمة وابنه في سكرات الموت فرفض أن يشرب فأعطوا عكرمة فأبى، ثم أعطوا ابنه فقال: حتى يشرب عمي الحارث، فأعطوا الحارث، فقال: لا أشرب حتى يشرب عكرمة، فماتوا جميعًا بلا ماء، شهداء عند أرحم الراحمين.

ومن الصور المشرقة في (بدر)، والتي تصور جهاد الصحابة وصدقهم رضوان الله عليهم، ما حصل مع عمير بن الحمام ﷺ، فقد خطب الرسول ﷺ الناس فقال: «أيها الناس والذي نفسي بيده ما بينكم وما بين الجنة إلا أن تلقوا هؤلاء فيضربوا أعناقكم وتضربوا أعناقهم»، وكان عمير بن الحمام ﷺ يأكل تمرات وهو من الأنصار الشجعان، قال: يا رسول الله ما بيننا وبين الجنة إلا أن يقتلنا هؤلاء، قال: «ما بينكم وبين الجنة إلا أن يقتلكم هؤلاء»، فرمى التمرات وقال: والذي نفسي بيده إنها لحياة طويلة إذا بقيت أن آكل هذه التمرات بخ.. بخ - أي ما أحسن هذا الكلام - فقاتل حتى قُتِل شهيدًا ﷺ، وفيه وأمثاله يقول الشاعر:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياةً مثل أن أتقدما
فليس على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

دروس وعبر من غزوة بدر:

◆ التذكار بنعمة الله علينا، بنصره للمؤمنين في بدر؛ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] فالنصر من عند الواحد الأحد والمنّة له سبحانه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

◆ إن غزوات الإسلام وانتصاراته كانت في رمضان، فهو شهر القرآن وشهر التقى فيه الجمعان، وشهر انتصار كتائب الرحمن وجنود الإيمان، فكانت (بدر) في رمضان، و(فتح مكة) في رمضان، وعين جالوت في

رمضان، وكذلك حطين والقادسية في رمضان، فهو الشهر المبارك الذي نصر الله الأمة فيه.

◆ إن على الإنسان أن يتواضع للواحد الأحد، فلا يعجب بعلمه، ولا بإنتاجه، ولا بإبداعه وفكره وأدبه، يقول الله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالمنة للواحد الأحد، ولذلك تواضع ـ عليه الصلاة والسلام ـ قبل الغزوة وبعد الغزوة، وأما المشركون وساداتهم فافتخروا وتكبروا وخرجوا رياءً وبطرًا، فأذلهم الله، فاحذر أن تتكبر بعلم، أو بمنصبٍ أو بشهرة أو بمكانة، فالفضل كله للواحد الأحد جل في علاه.

◆ إن على العبد أن يدعو في الأزمات أكثر مما يدعو في وقت الرخاء، وأن يلح على الله ﷻ، لأن الإلحاح طريق للعبودية، وبخاصة في السجود وأدبار الصلوات، وفي آخر الليل، وبين الأذان والإقامة، وفي ساعة الاستجابة يوم الجمعة، وفي عرفات، وغيرها من المناسبات.

◆ إن على الإنسان أن يعرِّض في كلامه إذا خاف من عدو كافر، لأن الرسول ﷺ قال للرجل الذي سأله عن خبره هو وصاحبه: «نحن من ماء».

◆ إن قائد الجيش يرسل الكتائب الاستطلاعية التي تجس المكان وتكتشف قوة العدو، وتعرف ما عنده وما لديه حتى يكون الإنسان على بصيرة.

◆ إن تسوية الصفوف سنة في المعركة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصَّف: ٤].

◆ إن على القائد أو العالم أو المسؤول أن يشاور أصحابه، ويختار من أهل الرأي والبصيرة والدين والأمانة من يستشيرهم في أمره وفي أمور المسلمين، ويعود إلى رأيهم إذا كان صائبًا، ويتباحث معهم، فإن هذا مما يقوي الرأي؛ فالمشورة فتح من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على العبد، فما خاب من استشار وما ندم من استخار، فإذا أقدمت في موضوع فاستشر أهل

الرأي، استشر العاقل الذي يخاف الله، المتقي الذي عُلم منه سداد الرأي والتجربة.

◆ على العبد أن يكون عادلاً، فإن الرسول ﷺ عدل في الأسارى، وفي الغنائم، وفي موقفه مع العباس دليل على ذلك.

◆ إن على العبد إذا أتاه ما يسره؛ أن يخبر من يحب، فإن الرسول ﷺ أرسل رجالاً يخبرون أهل المدينة أنه انتصر ﷺ، فإذا آتاك ما يسرك فأخبر من تحب، وانقل البشرى له حتى يدعو لك وتدخل عليه السرور.

◆ ومن دروس بدر أنه ﷺ شارك في المعركة، وحثا التراب في وجوه الكفار، وهو أشجع الناس عليه الصلاة والسلام.

أنت الشجاع إذا لقيت كتيبةً ... أدبت في هول الردى أبطالها
وإذا وعدت وفيت فيما قلته ... لا من يكذِّب قوله أفعالها

مِنْ أقْوَال أهْل العِلْم في بَدْر:

قالوا: «أفضل الغزوات على الإطلاق غزوة بدر، والسبب في ذلك أن الرسول ﷺ شهد لأهل بدر فقال: «يا أهل بدر إن الله قد اطلع عليكم فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»(١)، ولا يعني ذلك أن اعملوا ما شئتم فارتكبوا المنكرات والفواحش، أو ارتكبوا المحرمات. لا، ولكن معناه الإكرام لهم، فكأنه قال: لو حصل أنه صدر منكم ذنب، فإن حضوركم في بدر وقتالكم يكفر الذنب بإذن الله، ولذلك في الصحيح أن أعظم غزوة هي غزوة بدر، وأعظم الناس وأفضلهم هم أهل بدر، ولذلك كان يفضل ـ عليه الصلاة والسلام ـ أهل بدر، فكان في الغنائم وفي البيعة يقدمهم، وهم من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار رضوان الله عليهم، وكان الرجل من الصحابة الذي لم يحضر بدرًا، يتحسر إذا ذكرت له بدر، والمترجمون

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٠٧)، ومسلم (رقم ٢٤٩٤).

في كتب الحديث يقولون: هذا الصحابي بدري، أي حضر بدرًا، يعني شرف له ومفخرة ومنقبة أنه حضر غزوة بدر، الغزوة العظيمة التي انتصر فيها الإسلام.

أُحُد

غزوة أحد هي الغزوة الثانية التي قادها محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ ضد كفار قريش بعدما انتهت غزوة بدر الميمونة، التي انتصر فيها رسول الله ﷺ، أراد الله ـ كما يقول أهل العلم ـ أن يظهر أنه القوي الناصر فلا نصر بدونه جل في علاه، وأن العبد قد يغلب لحكمة أرادها الله وقد يُهزم، ليثبت ـ سبحانه ـ أنه لا ناصر ولا غالب إلا الله: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

اجتمع كفار قريش وأرسلوا جيشًا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل إلى مدينة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وجاءه ﷺ الخبر بأنهم قد أشرفوا على المدينة، وأصبحوا على مرمى قوس، ونزلوا على جبل أحد، وأخذ أبو سفيان وهو قائدهم، يأخذ السوارح من الإبل والغنم، فقام ـ عليه الصلاة والسلام ـ على المنبر، وأعلن الجهاد والتضحية، وصبَّر المؤمنين، ووعدهم بنصر الله وبثوابه وأجره، وما أعد الله للشهداء، ورأى ﷺ رؤيا فذكرها لأصحابه، يقول ﷺ ورؤياه حق: «كأنني أدخلت يدي في درع حصينة، ورأيت بقرًا تُنحر، ورأيت أن ذبابة سيفي قد كُسرت»، قالوا: ما أولت ذلك يا رسول الله، قال: «أما البقر التي تُنحر فما يصاب به المؤمنون من القتل في سبيل الله، وأما ذبابة سيفي فسوف يقتل رجل من أعز أهل بيتي، وأما إدخال يدي في الدرع فسوف أعود إلى المدينة في حصنة وفي منعة وفي عزة»[١]، ثم شاور الناسَ ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الخروج إلى أحد

---

(١) عن أبي موسى أُراه عن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض =

أو بالبقاء في المدينة، وكان رأيه ﷺ أن يبقى هو في المدينة؛ ليكون أكثر تحصينًا وأكثر استعدادًا، وليكون الجيش على الأسطح وعلى سقوف المنازل[1]، فوافقه بعض الناس، ولكن شباب الصحابة خرجوا من المسجد وخرج جماعة منهم فركبوا على صدورهم ريش النصر، وهذا عند العرب علامة الموت، ومنهم من غرزه في عمامته. وصاح شاب بأعلى صوته من آخر المسجد ورسول الله ﷺ على المنبر والناس في المسجد، قال: يا رسول الله لا تمنعني دخول الجنة، فوالله الذي لا إله إلا هو لأدخلن الجنة، اخرج بنا يا رسول الله إلى أحد، فقال ﷺ وهو على المنبر: «تدخل الجنة بماذا؟» قال: بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف، ثم أتى شببة من المهاجرين والأنصار قالوا: يا رسول الله، لا تمنعنا من الشهادة، بل نخرج إلى أحد، كيف تؤخذ سوارحنا وإبلنا وبقرنا ونبقى نقاتل في داخل المدينة؟ فقال ﷺ: «لنخرج»، فنزل ﷺ والناس جلوس، ودخل في بيته فاغتسل ولبس اللأمة والدرع، ثم جلس على المنبر، فجاء الصحابة وقالوا: لعلنا أكرهناك يا رسول الله، قال: «ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً»[2].

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة ... فإن فساد الرأي أن تترددا

= بها نخل، فذهب وَهَلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه: أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته بأخرى فعاد بأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقرًا، والله خيرٌ، فإذا هم المؤمنون يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا الله بعد يوم بدر». أخرجه البخاري (رقم ٣٦٢٢) ومسلم (رقم ٢٢٧٢).

(١) قال الحافظ ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد (٣/١٩٣)»: واستشار رسول الله ﷺ أصحابه: أيخرج إليهم أم يمكث في المدينة؟ وكان رأيه ألا يخرجوا من المدينة، وأن يتحصنوا بها، فإن دخلوها قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة والنساء من فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأي عبدالله بن أبي، وكان هو الرأي. وانظر الفصول في سيرة الرسول ﷺ، ص ١٢١.

(٢) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦/١١٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

فقادهم ﷺ وبشرهم، إما بالنصر أو بجنة عرضها السموات والأرض، ولذلك يقول سبحانه وتعالى للمنافقين على لسان المؤمنين: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنفال: ٥٢] أنتم تنتظرون منا: إما نصر في الدنيا وعزةٌ ورفعة، وإما الشهادة وجنة عرضها السموات والأرض، وانطلق ـ عليه الصلاة والسلام ـ وخرج بألف مقاتل، وفي الطريق جاء رأس الكفر والنفاق عبدالله بن أبي بن سلول وهو من أهل المدينة ومن قبائل الأنصار، فانفرد بنفر من الجيش وجلس بهم وقال: ما أطاع رأينا، لماذا تخرجون إلى أحد تقدمون نحوركم للموت، ولو جلسنا في المدينة لكان أحسن، فخذلهم فأطاعوه: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٧] فانخذل بثلاثمائة منهم، فبقي ﷺ في سبعمائة، وعاد عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري الذي كلمه الله بلا ترجمان، فحثا في وجه عبدالله بن أبي والثلاثمائة التراب، وخوفهم بالله وحذرهم: لا تخذلوا المسلمين، لا تفشلوا، فرجع العنيد الفاجر الغادر إلى المدينة بثلاثمائة[1]، وأراد بنو الحارث وبنو سلمة أن يفشلوا فنظروا إلى عبدالله بن أبي وقالوا: منا وصاحبنا وصاحب رأي يمكن أن يكون صوابًا، فهمّوا بالرجوع معه، فعصمهم الله، إذْ قام عبدالله بن عمرو بن حرام أيضًا وقال: لا نفعل أبدًا، وقام عبدالله بن جبير أحد الرماة وهو

(١) قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ في السيرة النبوية (٣/٩٢ ـ ٩٣): قال ابن إسحاق: حتى إذا كانوا بالشوط بين المدينة وأحد، انخذل عنه عبدالله بن أبي بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، وأتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، يقول: يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عددهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أنه يكون قتال. قال: فلما استعصوا عليه وأبوا إلاّ الانصراف عنهم قال: أبعدكم الله أعداء الله فسيغني الله عنكم نبيه. وانظر: زاد المعاد (٣/١٩٤).

قائدهم، وسألهم بالله، وذكرهم موعود الله، فثبتوا، يقول سبحانه وتعالى ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢]؛ أي هموا أن يفشلوا، قال جابر بن عبدالله: والله الذي لا إله إلا هو ما أريد أنما هممنا أن نفشل، يقول: ما أُريد أنه تخلف الأمر؛ لأن الله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ فصمدتُ ومشيت، وأراد ﷺ أن يسير الجيش في خط مستقيم؛ ولا يشتِّت الجيش، فأمر الصحابة أن يمشوا في خط مستقيم، ولا بأس إذا مروا بالمزارع، وفي هذا أن الإمام إذا رأى من المصلحة أن يمر على أراضي رعيته ومزارعهم لمصلحة الجهاد فلا بأس بذلك، فمروا على منافقٍ أعمى، كان واقفًا وقال: لا تدخلوا مزرعتي، فدخلها الجيش، فأخذ حفنة من التراب، قال: لوما أدري أنه ما تصيب إلا وجه محمد لرميته بها، فأخذ أحد الصحابة قوسه، فضربه على وجهه حتى أدماه. وانطلق - عليه الصلاة والسلام - بالجيش ووصل الموقع، وأبو سفيان خلف جبل أحد بثلاثة آلاف، فكان أول قرار اتخذه ﷺ أن جعل جبل الرماة خلف ظهره، وجعل عبدالله بن جبير قائد الرماة، وكان عدد الرماة ثمانين، وقيل: سبعين، قال لهم ﷺ: «احموا ظهورنا، ولو رأيتم الطير تتخطفنا من السماء لا تنزلوا»[(١)].

وبدأت المعركة، يقول أهل العلم: إنها بدأت بالمبارزة، والظاهر أن علي بن أبي طالب هو الذي أشعلها ﷺ، بقتل طلحة بن عثمان من بني عبد الدار، ثم جاء آخر منهم فغضب وركب البعير فلحقه حمزة، قال: انزل يا ابن مقطعة البظور، أتيت تحاد الله ورسوله، فرفض أن ينزل فضربه حمزة

---

(١) عن البراء ﷺ قال: لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشًا من الرماة، وأمَّر عليهم عبدالله، وقال: «لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا»، فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفعن عن سوقهن، قد بدت خلاخلهن، فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة. فقال عبدالله: عهد إليَّ النبيُّ ﷺ أن لا تبرحوا، فأبوا، فلما أبوا صرف وجوههم، فأصيب سبعون قتيلاً.... أخرجه البخاري (رقم ٤٠٤٣). وانظر: زاد المعاد (١٩٤/٣)، والسيرة النبوية (٩٥/٣)، والفصول، ص (١١٤).

من على الجمل فوطأه، فقتل حمزة ستة من قادات اللواء من بني عبد الدار، يقول أحدهم: والله ما كأننا يوم أحد أمام حمزة إلا المعزى تفر من الأسد، وكان من أشجع الناس ﷺ، وأقواهم قلبًا، وجسمًا، وكان يعلق ريشة على صدره ﷺ، ولذلك هو سيد الشهداء، لشجاعته وقوته، لكن أعد له كمين، حيث أتت هند بنت عتبة تريد الثأر؛ لأن أباها وعمها وأخاها قُتلوا في بدر، فوعدت وحشي وهو مولى جبير بن مطعم، ماهر في الرمي، بالعتق والمال على أن يقتل حمزة.

وعن جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قال: «خرجت مع عبيدالله بن عدي بن الخيار، فلما قدمنا حمص قال لي عبيد الله بن عدي: هل لك في وحشي، نسأله من قتل حمزة؟... وفيه، قال: ألا تخبرنا بقتل حمزة؟ قال: نعم، إن حمزة قتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة بعمي فأنت حُرٌّ، قال: فلما أن خرج الناس عام عينين، وعينين جبل بحيال أحد، بينه وبينه واد، خرجت مع الناس إلى القتال، فلما أن اصطفوا للقتال خرج سِبَاعٌ فقال: هل من مبارز؟ قال: فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع، يا ابن أم أنمار مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله ﷺ؟ قال: ثم شد عليه، فكان كأمس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحربتي فوضعتها في ثُنَّته حتى خرجت من وركيه، قال: فكان ذاك العهد به، فلما رجع الناس رجعت معهم، فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ رسولاً، فقيل لي: إنه لا يهيج الرسل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول الله ﷺ، فلما رآني قال: «آنت وحشيٌّ؟» قلت: نعم. قال: «آنت قتلت حمزة؟» قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، قال: «فهل تستطيع أن تُغَيِّبَ وجهك عني»، قال: فخرجت، فلما قبض رسول الله ﷺ وخرج مسيلمة الكذاب، قلت: لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله فأكافئ به حمزة، قال: فخرجت مع الناس، فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار، كأنه جمل أورق، ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي، فأضعها بين ثدييه

حتى خرج من بين كتفيه، قال: ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسيف على هامته»[1].

وأخذ الصحابة يصبرونه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وظهر الحزن والأسى واللوعة والأسف على عمه، فدعا له وأمر أن تجمع أطرافه وتجمع كبده التي أخرجتها هند بنت عتبة من بطنه ﷺ وأرضاه فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] أنت تنتقم لنفسك، الأمر للواحد الأحد، حمزة الذي أكرمه بالإسلام هو الله، والذي أكرمه بحضور بدر وأحد هو الله، والذي أكرمه بالشهادة هو الله، والذي جعله سيد الشهداء هو الله، فالرابح هو حمزة ﷺ، أما وحشي فقد أسلم متأخرًا، فدخل على الرسول ﷺ فقال ﷺ: من؟ قال: أنا وحشي، قال: قاتل حمزة؟ كان قبل إسلامه، قال: اغرب عني لا تراك عيني أبدًا. وفي عهد عمر ﷺ كان يشرب الخمر وهو شيخ كبير، قال عمر بن الخطاب: والله إني علمت أن دم حمزة لا يذهب هدرًا، يقول: إن قاتل حمزة لا يوفق. وكان عمر يجلده لكن أمره إلى الله، وعلى كلّ حال فهو من المسلمين وعلمه عند ربه في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى، ولقد تجلت بطولات الصحابة ﷺ أجمعين على أروع ما يكون في (أحد)، حتى يقول بعض أهل العلم: «أكثر ما برز الصحابة رضوان الله عليهم وتنافسوا وسابق الواحد منهم أخاه ونافس قرينه كان في ذاك اليوم»، ومن ذلك، أن النبي ﷺ أتى قبيل المعركة وقال: من يأخذ مني هذا السيف بحقه؟ قالوا: كلنا يا رسول الله، ثم قالوا: وما حقه؟ قال: حقه أن يضرب به في الأعداء حتى ينحني السيف، قال أبو دجانة: «أنا آخذه بحقه يا رسول الله»، وهو أنصاري وكان من أشجعهم[2]، وإذا حمي الوطيس وغضب ﷺ، أخذ عصابة حمراء وربط بها رأسه، وأخذ غمد السيف وكسره على ركبته ورمى بالغمد وأخذ السيف، فأخذ يضرب يمنة ويسرة بالناس حتى انحنى السيف، وهو يقول:

---

(١) أخرجه البخاري، (رقم ٤٠٧٢).

(٢) قال ابن هشام رحمه الله في السيرة النبوية (١١٨/٣ ـ ١١٩): وترّس دون رسول الله ﷺ أبو دجانة بنفسه، يقع النبل في ظهره، وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل.

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن في السفح لدى النخيلِ
أن لا أقوم الدهر في الكيول[1] أضرب بسيف الله والرسولِ

ثم أتى ﷺ فإذا سعد بن أبي وقاص يرمي المشركين رميًا ما رماه أحد، فاقترب منه ﷺ فينظر الرمية فتقع في عين الرجل فيسقط، فيتبسم ﷺ ويقول: «ارم سعد فداك أبي وأمي»[2]. قال أهل العلم: لم يفدِ الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ بأبويه في تاريخه أحدًا من الناس إلا خاله سعد بن أبي وقاص، وكان يفخر به ﷺ في المجالس ويقول: «هذا خالي، فليرني امرؤٌ خاله»[3]. ولذلك أثبتت النبوة أنه رجل المواقف، وهو الذي داس دولة فارس وحطمها بقدميه، فأخذ ﷺ يعطيه السهام ويقول: «ارم سعد فداك أبي وأمي»، قال رجل: والله إني كنت أرى رسول الله ﷺ يتطاول إذا رمى سعد السهم يسوقه سعد رضي الله عنه ويقول: بسم الله، حتى يقول ﷺ: «اللهم أجب دعوته وسدد رميته»[4]، فكان سعد رضي الله عنه إذا دعا تأتي دعوته كفلق الصبح لا تتأخر أبدًا.

ومن الأبطال يوم أحد عبدالله بن جبير قائد الرماة رضي الله عنه وأرضاه، ففي أول المعركة كانت الدائرة على الكفار والنصر للمسلمين، وبدأ جمع الغنائم فطمع الصحابة حتى يقول سبحانه وتعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فأراد الرماة النزول، فقال لهم عبدالله بن جبير: لا تنزلوا، إن رسول الله ﷺ نهاني، فأصروا على النزول، فقال: والله لا أغادر مكاني، فبقي مكانه ونزلوا، فالتف عليه خالد بن الوليد

---

(١) الكيول: مؤخرة الصفوف.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦١٨٤)، ومسلم (رقم ٢٤١١).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٧٥٢)، وقال: هذا حديث حسن غريب، والحاكم (٣/٤٩٨)، وقال: هذا حديث على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/٩٣)، والخطيب البغدادي في تاريخه (١/١٤٤)و الحاكم (٣/٥٠٠)، وقال: هذا حديث تفرد به يحيى بن هاني بن خالد الشجري، وهو شيخ ثقة من أهل المدينة. ووافقه الذهبي. وقال الألباني في تحقيقه للمشكاة (٣/١٧٢٨ رقم ٦١١٥): وإسناده ضعيف عندي.

وكان في صف المشركين يومئذ، فقتل في مكانه شهيدًا، وبدأت الهزيمة والغلبة تقع، والله المستعان: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وأتى أنس بن النضر وتقدم في المعركة، وقال: اللهم إنها قد فاتتني غزوة بدر، والله لئن أظفرني الله بغزوة ليرين الله ما أصنع، فبدأ ﷺ وقاتل كثيرًا وأقبل على الكفار فقال له سعد بن ربيعة: «يا أنس مهلًا مهلًا! يعني الهزيمة بدأت والجيش أمامك، قال: إليك عني يا سعد والله الذي لا إله إلا هو إني أجد ريح الجنة من دون أحد»، فقاتل فضرب بثمانين ضربة فقتل شهيدًا رضي الله عنه[(١)].

ورأى عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري في المنام قبل أحد بليلة أن المعركة بدأت وأنه قتل، وأنه كلم الله بلا ترجمان، فأيقظ ابنه جابر بن عبدالله وقال له: أستوصيك خيرًا في أخواتك فإني سوف أكون من القتلى غدًا، وفي النهار قاتل قتالاً ما فعله أحد، حتى قُتل، فأُتي به وهو مقتول مجدّع، ووضع بين يدي الرسول ﷺ، فأنزل ﷺ رأسه ودمعت عيناه، فأتت أخته فاطمة تصيح[(٢)]: أين أخي عبد الله؟ أين يكون يا رسول الله؟ قال ﷺ: أهبلتِ؟ أجننتِ؟ أهي جنة واحدة؟ والذي نفسي بيده إنها لجنان، وإن أخاك في الفردوس الأعلى»، ثم التفت إلى ابنه جابر وكان متأسفًا يبكي، وقال له: «لقد كلم الله أباك كِفَاحًا بلا ترجمان»[(٣)]، فقال: تَمَنَّ يا عبدي. قال:

---

(١) عن أنس رضي الله عنه: أن عمه غاب عن بدر، فقال: غبت عن أول قتال النبي ﷺ لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ ليرين الله ما أجد، فلقي يوم أحد، فهزم الناس، قال: اللهم إني أعتذر إليك مِمّا صنع هؤلاء - يعني المسلمين - وأبرأ إليك مِمّا جاء به المشركون، فتقدم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد، إني أجد ريح الجنة دون أحد، فمضى فقتل، فما عرف حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم. أخرجه البخاري (رقم ٤٠٤٨)، ومسلم (رقم ١٩٠٣).

(٢) عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه وأبكي وينهوني عنه، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: «تبكين أو لا تبكين، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه». أخرجه البخاري (رقم ١٢٤٤)، ومسلم (رقم ٢٤٧١).

(٣) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠١٠)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. قال: إني كتبت على نفسي أنهم إليها لا يرجعون فتمن. قال: أتمنى أن ترضى عني فإني قد رضيت عنك. قال: فإني قد أحللت عليك رضواني لا أسخط عليك أبدًا. فجعل الله روحه وأرواح إخوانه في حواصل طير خضر ترد الجنة فتشرب من أنهارها، وتأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش حتى يرث الله الأرض ومن عليها[1]، قال أنس: وفيه وفي إخوانه أنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

وتقدم طلحة بن عبيدالله في (أحد)، فقاتل قتالاً مشهودًا، قيل إنه كان عنده سيفان يقاتل بهما، وهو القائل: والله ما بقي في جسمي شبر إلا وأتاه ضربة أو طعنة أو رمية. ثم شَلَّت يده اليمنى، فقاتل بيده اليسرى، ثم انكب فجعل جسمه تحت رسول الله ﷺ، حتى صعد ﷺ على ظهره على صفا، قال أبو بكر: أما يوم أحد فذهب به طلحة بن عبيد الله كله! وكأن أبا بكر يقول: كل الجهاد أصبح لطلحة من تفانيه رضي الله عنه وأرضاه.

وقتادة بن النعمان أقبل يقول لرسول الله ﷺ: يا رسول الله انكسر سيفي! فأعطاه ﷺ خشبة فهزها في يده فتحولت سيفًا وقاتل بها، وبعد قليل أتى وإذا بعينه معلقة على خده قال: يا رسول الله ضُربت عيني ونزلت، وإذا هي معلقة بعرقٍ على خده رضي الله عنه وأرضاه، فقال ﷺ: «ادنُ مني» فدنا فردها ﷺ مكانها وهو يقول: «بسم الله»، فصارت أجمل من الثانية[2]:

هذا الذي رد عينًا بعدما فقئت ... وريقه قد شفا عين الإمام علي
هذا الذي جاء والأبحار مالحة ... فمجَّ فيها فصار الماء كالعسلِ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٨٧).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/٢٩٥)، وسكت عنه الذهبي. وقال الهيثمي في المجمع (٦/١١٦) رواه الطبراني وفيه من لم أعرفه. وانظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣/١١٩).

وأتت أم عمارة نسيبة الأنصارية فقاتلت وقدمت ولدين لها، قالت: لا أراكما إلا مقاتلين، فضربها كافر على نحرها ﵂ أو على كتفها حتى أوغلها جراحًا، وأخذت تداوي الجرحى، وضربت مرةً بخنجر معها كافرًا فضحك ﷺ من شجاعتها ومن جبن الكافر؛ لأنه اقترب منها فلما فر أدركته فقتلته، فضحك ﷺ ودعا لها ولأبنائها، ومن أبنائها حبيب بن زيد الذي ذهب برسالة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى مسيلمة الكذاب في اليمامة؛ لأنه ﷺ صعد على المنبر وقال: «أيها الناس إني سوف أراسل ملوك الأرض فلا تختلفوا عليّ»، ثم نادى: «يا حبيب بن زيد خذ هذه الرسالة إلى مسيلمة»، فودع حبيب أمه وودَّعته، فذهب إلى مسيلمة فلما أتاه قال له مسيلمة: أتشهد أن لا إله إلا الله قال: نعم، قال: أتشهد أن محمدًا رسول الله قال: نعم، قال: تشهد أني رسول الله قال: لا أسمع شيئًا، فأعاد عليه السؤال، لكنه لم يجب، فقطعه قطعة قطعة، فصار شهيدًا من الشهداء الكبار في الإسلام(١).

وتقدم عبدالله بن جحش ﵁ وهو من مهاجري الحبشة، فألقى خطبة قال فيها: يا سعد بدأت المعركة، وبدأ الدم، وبدأ القتل، تعال ندعو الله ﷻ لعل الله أن يهيئ لنا يوم إجابة، فإنه يُجاب عند استقبال الصفوف، قال سعد: فأتيت، قال: ادعُ، قلت: ادعُ أنت، قال: فرفع يديه، فقال: اللهم إنك تعلم أني أحبك، اللهم إذا لقيت العدو فلاقِ بيني وبين عدوٍّ شديد حرجه، غضوب شرس، قوي بأسه يقتلني، فيبقر بطني ويجدع أنفي، ويفقأ عيني، ويقطع أذني، فإذا أتيتك يوم القيامة فقلت لي: يا عبدالله لماذا فُعِل بك؟ فأقول: فيك يا رب. قال سعد: فدعوت الله وما استطعت أن أدعو بمثل ما دعا، قال: فبدأت المعركة، قال سعيد بن المسيب: والله ما غادروا المعركة حتى وجد مقتولاً قد فُقئت عيناه، وقطعت يداه وأذناه، وجُدع أنفه، وأسأل الله له أن يلبي ما سأل(٢).

---

(١) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٢/٦٤ ـ ٦٥ رقم ١٤٤). والسيرة النبوية لابن هشام (٣/١١٨).

(٢) أخرجه الحاكم (٣/١٩٩ ـ ٢٠٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين لولا إرسال فيه.

وتقدم عمرو بن الجموح وهو من الأنصار رضي الله عنه وأرضاه، وكان أعرج يتحامل على رجل، فحاول أن يعذره ﷺ كما في منطوق القرآن أنه ليس عليه حرج، قال: والله لأقاتلن ولأطأن بعرجتي هذه الجنة، فقاتل وقُتل رضي الله عنه وأرضاه[(١)].

وأما حنظلة الغسيل، فإنه تزوج تلك الليلة بفتاة جميلة، وإذ هو مع زوجته وإذا الصائح يصيح في (أحد) وإذا منادي الجهاد، فاخترط سيفه وذهب إلى المعركة وعليه جنابة فقاتل فقُتل، فحملته الملائكة بين السماء والأرض، ثم أتت بصحاف من ذهب من الجنة فيها ماء الغمام فغسلته بين السماء الأرض، والتفت ﷺ ثم أشاح بوجهه وقال: «رأيت الملائكة تغسل حنظلة بين السماء والأرض»[(٢)]، ودخل الجنة مغسَّلاً رضي الله عنه وأرضاه، وهو حنظلة الغسيل صاحب الشرف العظيم الذي لا يعادله شرف رضي الله عنه وأرضاه.

وأُتي بيهودي اسمه مخيرق، قذف الله النور في قلبه وهو في المدينة، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ثم أخذ سيفه فلحق بالمسلمين فقاتل حتى قُتل، فدعا له ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسأل الله أن يثيبه على ما فعل[(٣)].

وجاء أُصيرم بن عبد الأشهل وهو من الأنصار، أسلم في المعركة، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فقُتل لتوه.، لم يسجد لله سجدة! قال أبو هريرة: أخبروني برجل دخل الجنة ولم يسجد لله سجدة؟

---

(١) عن أبي قتادة أنه حضر ذلك قال: أتى عمرو بن الجموح إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلت في سبيل الله حتى أُقتل أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة، وكانت رجله عرجاء، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فقُتل يوم أحد هو وابن أخيه ومولى لهم، فمر عليه رسول الله ﷺ فقال: «كأني أنظر إليك تمشي برجلك هذه صحيحة في الجنة». فأمر رسول الله ﷺ بهما وبمولاهما فجعلوا في قبر واحد. أخرجه أحمد (٥/٢٩٩)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣/١٧٣): سنده حسن.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٧ ـ ١٠٨).

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٣/١٢٩).

قالوا: ما ندري، قال: أصيرم بن عبد الأشهل، إنما أسلم في المعركة، ولم يتمكن من أداء صلاة فقتل شهيدًا فدخل الجنة، ﷺ وأرضاه[1].

وعلى الضد من ذلك أتى رجل اسمه قزمان من الموالي كان يقول: ما خرجت معكم للجهاد ولا حب الاستشهاد، وإنما خرجت للمدافعة عن المدينة فقط، فأصابه جراح في رأسه، فأخذ يولول من الألم، ويصيح من الوجع، ثم اعتمد على ذباب سيفه حتى خرج من ظهره فمات، فقال الصحابة: هنيئًا له الشهادة، قال ﷺ: «كلا والذي نفسي بيده إنه من أهل النار»[2]، فسألوا عنه فوجدوه هو الذي نحر نفسه ولم يُقتل في المعركة، جزاءً وفاقًا.

واشتد كرب المؤمنين بعد أن تداعت الصفوف حِكمة من الله ﷻ، وقتل سبعون من أصحاب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقام ﷺ على الشهداء، وقال: «أنا شهيد عليكم عند الله سبحانه وتعالى»، وصفهم ودعا لهم ﷺ، وأمر أن يدفن الثلاثة والأربعة في قبر، وقال: أيهما أكثر أخذًا للقرآن فقدموه إلى القبلة، فكان يُقدم أكثرهم حفظًا للقرآن تجاه القبلة، ثم دعا لهم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وهو شهيد لهم عند الله، عسى الله أن يجمعنا بهم في جنات النعيم.

قال طلحة بن عبيد الله ـ وقيل أبو طلحة ـ: لما كثر الهمُّ والغمُّ، أنزل الله سبحانه وتعالى علينا النعاس أمنة، قال أبو طلحة: والله لقد سقط سيفي مرتين من النعاس، نعسهم الله حتى سقطت سيوفهم ليرتاحوا، وأنزل عليهم السكينة؛ لأنه أُشيع أن محمدًا ﷺ قُتل، فمنهم من سقط سيفه من الخوف، ومنهم من تقدم حتى قُتل، ومنهم من فر، وظهر أخيرًا أن المقتول هو مصعب؛ لأنه يشبه الرسول ﷺ، وأن الرسول ﷺ باقٍ لم يمُت.

ومن المواقف التي لا تُنسى في (أحد) أن امرأة من المسلمين قيل لها: قُتل زوجك، قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: قُتل أخوك،

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٢٥٣٧)، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في الإصابة (٥١٩/٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٠٧) ولكن لم يذكر اسمه ولم يذكر اسم الغزوة.

قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: قُتل أبناؤك الأربعة، قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قال: قُتل أبوك، قالت: ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: حي، قالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل، يعني سهلة! فلما انتهى ﷺ من المعركة؛ تقدم وصلى بالناس العصر، وقال: «صفوا ورائي لأثني على ربي»، فأثنى على الله، لأن الله يُحْمد في الضراء والسراء، وفي الشدة والرخاء، فإنه لا معقب لأمره سبحانه وتعالى، وكل قضائه وحكمته رحمة، سواءً في الشدة أو الرخاء، أو في النصر والهزيمة؛ فإنه قد يكون في المصائب من الحكم العظيمة ما الله بها عليم، فأحيانًا يكون الحبس، والنكبة المالية، والخسارة، والمرض المزمن، وموت الأبناء، واحتراق الدور ونحو ذلك، قد يكون فيها من المصالح العظيمة الشيء الكثير: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] ولذلك يقول أبو تمام:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعمِ

فقد ينعم الله عليك بمصائب ونكبات تتضجر وتبكي منها وتخاف وتحزن وهي عين المصلحة، وقد يعطيك الله من العطايا والهبات والهدايا وهي عين المفسدة، وفيها من الضرر العظيم، فاسأل الله أن يختار لك من قضائه وقدره ما يسددك ويرحمك به.

وأنزل الله في (أحد) بعض الآيات كقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] يعني الرماة، فمنهم من أراد الشهادة، ومنهم من أراد الغنائم، وأنزل الله سبحانه وتعالى فيها:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وأنزل الله فيها: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾ [آل عمران: ١٤١ ـ ١٤٣] والمعنى أن من تمنى الموت فليقدم الشهادة والدليل على شجاعته، وأخبر سبحانه وتعالى أن الرسول ﷺ لو قتل، فقد قتل أنبياء

من قبله، وأن الرسالة ليست مرهونة في شخصه ﷺ؛ فقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، أي أننا لا نعبد الرموز والأشخاص، فالمعبود هو الواحد الأحد وحده، والدين منصور إلى قيام الساعة، والأمة فيها خير كثير، والأمة محفوظة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩] فالمقصود أن محمدًا وهو رسول الله ﷺ يقول عنه سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ولماذا قال الشاكرين هنا؟! يقول ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: الناس أمام القضاء والقدر على أربع أحوال: شاكر، وراضٍ، وصابر، وجازع، فالشاكر هو الذي إذا أتته مصيبة كمن مات ابنه لا يكتفي بالرضا ولا بالصبر، بل يشكر الله فيقول: الحمد لله الذي رزقني موت ابني، الحمد لله الذي أعطاني وجعلني مكرمًا، الحمد لله الذي اصطفاني من بين الناس بهذا الفضل العظيم، وفي الحديث القدسي يقول الله سبحانه وتعالى: «إذا قُبض ابن العبد المؤمن، قال: قبضتم ولد عبدي المؤمن؟ قالوا: قبضناه ـ والله سبحانه يعلم ـ قال: قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: قبضنا ثمرة فؤاده، قال: ماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع، قال: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد[(١)]»، ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾، فلا يكفي الرضا أو الصبر بل شكر الله ـ سبحانه ـ على هذه النعم التي ساقها للمسلمين في أحد.

أحكام وعبر من غزوة أحد:

◆ الجهاد يلزم بالشروع فيه، فإذا توجه الإنسان لعمل عبادة معينة وعقد النية ودخل فيها، فعليه أن يتمها.

فإذا دخل الإنسان في الجهاد فلا يفر من المعركة، لأن الرسول ﷺ يقول: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله»[(٢)]. كذلك: لا

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٠٢١)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه البخاري معلقاً في كتاب الاعتصام، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ص ١٤٠٤، ط بيت الأفكار الدولية.

يلزم المسلمين إذا طرقهم العدو في ديارهم أن يخرجوا إليهم، بل لهم أن يتترسوا في المدن وليس هذا من الجبن، فإذا كانت الحكمة العسكرية تقتضي أن يقاتل الناس في المدن والشوارع، فلا يلزمهم مناجزة العدو في خارج المدينة.

◆ جواز سلوك الإمام بعسكره في بعض أملاك رعيته؛ لأنه إذا اشتد الخطب؛ جاز أن يتبرع الرعايا ببيوتهم ومزارعهم ومشروعاتهم للمصلحة العامة، وحماية حوزة الأمة والدولة؛ لأن هذا من المصالح العامة، فللإمام أن يتصرف ويتخذ ما فيه المصلحة العامة لحماية الأمة ونصرة الدين.

◆ عدم الإذن بالقعود لمن يطيق القتال، فإن عبدالله بن أبيّ بن سلول لم يأذن له الرسول ﷺ، بل هو انسحب من نفسه، وشرع يخذل المسلمين، يقول سبحانه: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨]، واسمع رد القرآن: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، فأنتم أيها المنافقون ستموتون، لكنكم لن تموتوا كما يموت الشرفاء والشهداء من المجاهدين الصادقين، وبالفعل أتاه موته فجأة وكان كبيرًا، طويلًا، صبيحًا، فصيحًا. يقول حسان بن ثابت:

لا بأس بالقوم من طول ومن عِظم جسم البغال وأحلام العصافيرِ

ويقول سبحانه وقوله أبلغ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]، فهم كالخشب المسندة على الجدار، قلوبهم خاوية، ليس عندهم ضمير ولا إيمان ولا علم، ولذلك لا تغتر بالأجسام والمظاهر؛ بل عليك أن تبحث عن الضمير والقلب والإيمان والشعور، كان ابن مسعود ﷺ على طول قامة الرجل وهو جالس، جسم نحيف وساقان ضعيفتان نحيلتان هزيلتان، صعد مرة ليأخذ سواكًا للرسول ﷺ من شجرة فاهتز الغصن به، فضحك الصحابة، قال ﷺ: «تضحكون من دقة ساقيه، والذي نفسي بيده إنها في الميزان أثقل عند الله من جبل أحد»(١) لما حمل من الإيمان والصدق والتضحية.

(١) أخرجه أحمد (٤٢٠/١ ـ ٤٢١) وأبو يعلى (رقم ٥٣١٠) وأبو نعيم في الحلية (١٢٧/١).

ولما مات عبدالله بن أبيّ وقف ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليه في الجنازة ليصلي عليه، وأتى بجبة للعباس ـ ثوب ـ فكساه ﷺ قالوا: ما لك يا رسول الله؟ قال: «كسا عمي العباس ثوبًا في الحياة فأنا أريد أن أقاضيه الآن»، فكساه ثوبًا وجعله كفنًا له، ولما أراد القلب الرحيم ﷺ أن يكبر على جنازته، على المجرم الذي كانت حربته ـ دائمًا ـ في ظهر الرسول ﷺ والصحابة، وقف بينه وبين الجنازة عمر ﷺ وقال: يا رسول الله تصلي عليه! أليس هو الذي انخذل بالجيش في أحد بثلاثمائة؟ قال ﷺ: «دعني يا عمر»، قال: يا رسول هو الذي قال: ليخرجن الأعز منها الأذل، قال: «دعني يا عمر»، قال: يا رسول الله يقول سبحانه: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠] قال: «دعني يا عمر والذي نفسي بيده لو أعلم أني أستغفر لهم أكثر من سبعين مرة فيغفر الله لهم؛ لاستغفرت لهم أكثر من سبعين»، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ثم تأخر عمر وكان يبكي ﷺ ويقول: والله إني عملت لهذا أعمالاً، يقول: أين عقلي؟ أين قلبي؟ أتكلم مع محمد ﷺ بهذا الكلام، قال: فصلى رسول الله ﷺ عليه، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤]؛ أي: لا تحضر الجنازة ولا تصلِّ ولا تستغفر، دعهم في غيهم، هؤلاء آثمون لا حل لهم أبدًا؛ لأنهم آذوك وخذلوك، بخلاف المؤمن الذي يعذر ـ إذا عصى أو ارتكب منكرًا أو كبيرة ـ بتوبته وبكائه وندمه، فهذا على النقيض، أما المنافق الذي يترصد للإسلام وعلماء الإسلام، وكتّاب الإسلام، ودعاة الإسلام، ويريد هدم الدين، وتشويه المسجد، والحجاب، فهذا وأمثاله يقول الواحد الأحد فيهم: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [التوبة: ٨٤].

◆ ومن الوقفات: جواز الغزو بالنساء، والاستعانة بهن دون القتال، فالمرأة لا تباشر المعركة.

ولكنها تداوي الجرحى، وتحمل الماء، حتى إن عمر ﷺ لما أتى بغنائم أتى بحلي لهن، وإذا نساء المسلمين أمامه قال: هذه حلي لأم

سُليط، أين أم سليط؟ قالوا: حاضرة، قال: كانت تحمل قربتين في أحد، والنساء يحملن قربة.. قربة[1]، فعمر ﷺ له مراتب في تكريم الناس، فأفضلهم عنده أفضلهم جهادًا وتضحيةً، وصدقًا لله وتقدمًا في مرضاة الله.

◆ ومن الوقفات: جواز الانغماس في العدو، كما فعل أنس بن النضر ﷺ، فيجوز لك أن تنغمس في العدو، وأن تلقي بنفسك فيهم؛ قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن إسحاق: «وحدثني القاسم بن عبدالرحمٰن بن رافع أخو بني عدي بن النجار قال: انتهى أنس بن النضر عم أنس بن مالك إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل رسول الله ﷺ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل»، وبه سمي أنس بن مالك[2].

◆ وإذا جُرح الإمام صلّى بأصحابه قاعدًا وصلوا قعودًا، فيروى أنه ﷺ صلى جالسًا في أحد لما جُرح وصلى الصحابة وراءه جلوسًا، قال أهل العلم: إنما جُرح إثباتًا من الله أن محمدًا عبدٌ لله وأنه بشر، وأنه يتضرر كما يتضرر الناس، وليس بإله، فلو كان إلـٰهًا ما جُرح، ولا جاع ولا مرض، فأثبت الله بشريته بهذا، لكنه معصوم ﷺ وليس رجلًا عاديًا؛ أي أن قدره ليس كبقية الناس، إنه رسول الله يوحى إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فيجب أن يقدر ويهاب: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣].

---

(١) قال ثعلبة بن أبي مالك: إن عمر بن الخطاب ﷺ قسم مروطًا بين نساء المدينة، فبقي مرط جيد، فقال له بعض من عنده: يا أمير المؤمنين أعط هذا ابنة رسول الله ﷺ التي عندك، يريدون أم كلثوم. فقال عمر: أم سليط أحق. وأم سليط من نساء الأنصار، ممن بايع رسول الله ﷺ. قال عمر: فإنَّها كانت تزفر لنا القِرَب يوم أحد.
قال أبو عبدالله: تزفر: تخيط. أخرجه البخاري (رقم ٢٨٨١).

(٢) السيرة النبوية (٣/١١٩ ـ ١٢٠).

◆ جواز الدعاء بالقتل في سبيل الله، وليس ذلك من تمني الموت المنهي عنه؛ يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الصحيح، وقيل إنها في أحد: «والذي نفسي بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل»[1]، فرزقه الله الشهادة؛ لأنه مات مسمومًا فكان نبيًّا شهيدًا ﷺ، فيجوز للإنسان أن يقول: اللهم اقتلني في المعركة، اللهم اسفك دمي في سبيلك، كما فعل الصحابة، وقد دعا عمر لنفسه أن يرزقه الله الشهادة، قال: أسألك قتلة في سبيلك، وميتة في بلد رسولك، فقال الصحابة: كيف يا أمير المؤمنين تقتل في سبيل الله وفي المدينة؟ قال: هكذا سألت الله، وأسأل الله أن يلبي لي ما سألت، فساق الله له أبا لؤلؤة المجوسي فطعنه وقتله في صلاة الفجر، وكرمه الله بالشهادة.

◆ ومنها أن المسلم إذا قتل نفسه فهو من أهل النار، فمن تحسَّى بسُمٍّ جعل الله السم في يده يتحسى به في نار جهنم، ولذلك حرم الانتحار بالإجماع، وهذا الذي حصل ـ والعياذ بالله ـ في بعض شباب الأمة يوم صدفوا عن المسجد والمصحف، وعن ذكر الله ﷻ، وعن رياض الصالحين، وعن حصن المسلم، واشتغلوا بالمعاصي والكبائر، وملأوا قلوبهم هوًى وغيًّا ولعبًا، وأصبح عندهم من الفراغ القاتل، والكابوس الجاثم ما يدعوهم إلى الانتحار، وقد رأيت كاتبًا مشهورًا،له مؤلفات كثيرة وحصل على العديد من الجوائز، ولكن المسكين لا يعرف الصلاة وما مرغ وجهه في الأرض لله، وما فتح المصحف، شهرة عالمية، وجوائز، وفي النهاية ألقى بنفسه من الدور الثاني عشر!

ووجد من بعض الشباب من نحر نفسه بسكين، ومنهم من علق حبلًا وخنق نفسه؛ والسبب أنه وصل إلى طريق مسدود، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، من أعرض عن المسجد والمصحف يموت من الداخل؛ فلا يريه الله السعادة، ولو انصبت

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦)، ومسلم (رقم ١٨٧٦).

عليه الأموال والذهب والفضة والجوائز والأوسمة والتيجان أبدًا، بل يعيش معيشة ضنكًا، وهذا في الدنيا، وأما الآخرة:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طـه: ١٢٤ ـ ١٢٦]. فـهـذا الانتحار يفعله من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، أما المؤمن فلا ييأس ولا يقنط من رحمة الله، مهما أُغلقت الأبواب في وجهه، مهما تعثر، مهما واجه من مصائب فإن الفرج قريب، وإن بعد العسر يسرًا: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ [الشَّرح: ٦].

فلا بد لليل أن ينجلي	ولا بد للقيد أن ينكسرْ

وهذه مدرسة السعادة لمن أراد أن يتعلم فيها:

عسى فرجٌ يكون عسى	نعلل نفسنا بعسى
فلا تجزع إذا حصلـ	ـت همًّا يقطع النفسا
فأقرب ما يكون المر	ء من فرج إذا يئسا!

◆ السنة في الشهيد ألاّ يُغسل ولا يُكفن في غير ثيابه؛ بل يُدفن فيها، فشهيد المعركة الصحيح أنه لا يُغسل بالماء؛ لأنه طاهر طهَّره الله بدمه فلا يحتاج إلى ماء.

ألم تر أني كلما زرت زينبًا	وجدت بها طيبًا وإن لم تطيبِ

فعنده من طيب الإيمان والشهادة ما يكفيه عن الغسل، وأيضًا لا يكفن؛ لكن يدفن في ثيابه حتى يبعث يوم القيامة لونه لون دم، والريح ريح المسك، يفوح مسكه في العرصات، ويكسى حُلة على رؤوس الأشهاد، ويشفع في عشرة من أهل بيته، ويدخل الجنة بلا حساب.

◆ ذكر ابن كثير وغيره أن الرسول ﷺ، صلَّى على شهداء أحد، وذكر غيرهم أنه لم يصلِّ، والجمع أنه دعا لهم ﷺ ولم يصل عليهم وقت القتل، لكن بعد سنوات ذهب فودعهم ﷺ قبل أن يموت بليالٍ، ولذلك قصة طريفة كما في صحيح مسلم تقول، عائشة: «بات عندي رسول الله ﷺ

في ليلة فنمت، ونام بجانبي، قالت: ثم استيقظت من الليل فلمست فراشه فلم أجده فالتفت في الغرفة فلم أجده؛ فظننت أنه ذهب عند إحدى زوجاته في ليلتها، فقامت، قالت: فلبست مدرعتي وذهبت وخرجت من البيت فإذا هو في ظل القمر ﷺ فاختفيت، حتى وصل إلى مقبرة الشهداء في أحد»، هو ﷺ في شأن، وهي في شأن آخر ﵂، لقد جاءه الخبر ﷺ أنه سوف يموت قريبًا، وأمره الله أن يذهب إلى الشهداء ليودعهم، ويدعو لهم، وهي تظن أن في المسألة شيئًا آخر، فوقف فدعا لهم ﷺ وبكى وقال: «أنا شهيد لكم عند الله يوم القيامة»، ثم عاد فعادت قبله فدخل ﷺ، فإذا هي تلهث فقال: حشيًا رابية، يقول: أنت شحمانة، ماذا حدث؟ قالت: يا رسول الله قمت وافتقدتك فظننت، قال: «أتظنين أن الله يحيف عليك ورسوله؟!»، إن محمدًا ﷺ هو أعدل الناس في لفظه، ومع أهله، ورعيته، والأمة، وهو الذي أتى بالعدل ﷺ، فكأنه يقول: التمسي هذا عند غيري فأنا العادل، ولكن أنا في شأن آخر، ثم قال: «إن الله أخبرني بدنو أجلي وأمرني سبحانه أن أودع شهداء أحد فذهبت أودعهم»، قالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أنا في شأن وأنت في شأن[(١)]، يعني كأنها متأسفة.

◆ ومن السنة أن يدفن الشهداء في مصارعهم ولا ينقلوا وهو الأحسن[(٢)]، وقد ركب الشهداء على الجمال ليذهبوا بهم إلى المدينة، فأمر منادي رسول الله ﷺ، أن تعود الجمال بالشهداء فعادوا بهم، ومنهم عبدالله بن عمرو الأنصاري الذي ضُرب ثمانين ضربة، وهو الذي كلمه الله فدفنوه وبقي أربعين سنة مدفونًا، فلما أراد معاوية أن يجري عينًا إلى المدينة، مروا بقبره فكشفوا القبر فوجدوا جسمه مثلما دُفن. يقول: والله ما تغير فيه شيء، وجاءت المسحاة على أذنه فإذا الدم ينزل بعد أربعين سنة مثله يوم قُتل، وهو من الشهداء.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٩٧٤).

(٢) السنة الموافقة لأمر رسول الله ﷺ، فقد ثبت عن جابر ﵁ أنه قال: لما كان يوم أحد، جاءت عمتي بأبي لتدفنه في مقابرنا، فنادى منادي رسول الله ﷺ: «ردوا القتلى إلى مضاجعهم». أخرجه الترمذي (رقم ١٧١٧)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

◆ إن المتخلف عن الجهاد لمرض أو عرج أو شيخوخة يجوز له الخروج وإن لم يجب عليه كما فعل عمرو بن الجموح، فإن الإنسان له فسحة ورخصة ألا يخرج، لكن إذا أراد أن يشارك، أو أصر أن يخرج فليخرج.

فهذا عبدالله بن أم مكتوم مؤذن رسول الله ﷺ، خرج الناس إلى القادسية وهو أعمى، فقالوا له: عذرك الله، قال: والله لا يمكن إلا أن أخرج، قالوا: أنت أعمى، قال: انصبوني في أول المعركة وأعطوني الراية أحملها لكم[1]، فحفر حفرة لجسمه إلى ركبتيه، وبقي يحمل العلم والراية فقتل في حفرته رضي الله عنه، وهو الذي يقول ﷻ فيه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [عبس: ١ ـ ٣]؛ يقول بعض المعلقين: ولا تدري أن هذا الأعمى سوف يكون منارة من منارات الأرض تستقبل نور السماء، أما هؤلاء الجفاة الملحدون المنحرفون فلا خير فيهم أبدًا، ولا يريد الله أن يزكيهم.

وأبو أيوب الأنصاري كان رجلاً سمينًا وشيخًا كبيرًا، جاء الغزو في القسطنطينية فخرج مع المجاهدين، قيل: في خلافة يزيد بن معاوية مع جيش الإسلام، فقالوا: أنت معذور أنت شيخ كبير، قال: لا، الله يقول: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، والله لأنفرن، فقتل هناك.

◆ **ومن الفوائد أيضًا**: إذا قتل المسلمون واحدًا منهم خطأً؛ فعلى الإمام دفع الدية من بيت المال، وسبب هذه القصة أن حذيفة بن اليمان أحضر أباه، وكان أبوه شيخًا كبيرًا فجعله عنده فتزاحم المسلمون، فلما اختلط الجيش؛ ظنوا أنه من الكفار فقتلوه، وهو مسلم، فقال ﷺ لحذيفة:

---

(١) وكان رضي الله عنه بعد أن يغزو يقول: ادفعوا إليَّ اللواء، فإني أعمى لا أستطيع أن أفر، وأقيموني بين الصفين. وعن أنس أن عبدالله بن زائدة ـ وهو ابن أم مكتوم ـ كان يقاتل يوم القادسية وعليه درع له حصينة سابغة. وقال الواقدي: شهد القادسية معه الراية، ثم رجع إلى المدينة، فمات بها. قال الذهبي: ويقال: استشهد يوم القادسية. انظر طبقات ابن مسعد (١٥٤/١/٤)، وسير أعلام النبلاء (٣٦٥/١).

أنا أدفع الدية من بيت المال، قال: يا رسول الله والله لا آخذ درهمًا واحدًا، إنما آخذ أجري في والدي من الله، وعفا الله عن المسلمين، قالوا: فما زال الخير في حذيفة حتى لقي الله بسبب العهد.

هذه بعض الدروس من هذه الغزوة الشهيرة العظيمة، غزوة أحد، عسى الله أن يجمعنا برسولنا محمد ﷺ وبأصحابه في جنات النعيم، وعسى الله أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى(١).

(١) للاستزادة انظر فصل فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام والفقه في كتاب زاد المعاد (٣/٢١١ ـ ٢١٨).

الأحزاب

نحن مع محمد رسول الله ﷺ بقلوبنا ودعائنا وصلاتنا وسلامنا وتحياتنا، فنسأل الباري أن يبلغه صلاتنا وسلامنا؛ جزاءً وفاقًا على ما قدم للأمة، وعلى ما هدى، وعلى ما جاهد، وعلى ما نصح، ونشهد شهادةً يسجلها الدهر، ويسمعها التاريخ، ويشهد عليها الثقلان الجن والإنس أنه أدى الرسالة، ونصح الأمة، وبلغ الدعوة، وجاهد في الله حق جهاده.

مع حياته العطرة، مع أيامه الغالية، مع دقائقه الثمينة، نعيش بقلوبنا وبدمائنا وبأرواحنا معه، ونسأل الله ﷻ أن يحشرنا في زمرته، وأن يسقينا من حوضه ﷺ شربة لا نظمأ بعدها أبدًا، يوم يظمأ الناس ويجوع الناس ويخاف الناس، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢].

هذه غزوة الأحزاب، غزوة الخندق[1]، التي عاشها ﷺ في زمن الخوف، في زمن مواجهة المكائد، إلى الدرجة التي قال الله فيها: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، حتى كبار الصحابة بدأ عندهم شيء

---

(١) سميت غزوة الأحزاب بغزوة الخندق، لما ثبت عن أنس ؓ قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمدًا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

والرسول ﷺ يجيبهم ويقول:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ... فبارك في الأنصار والمهاجرة

أخرجه البخاري (رقم ٢٨٣٥)، ومسلم (رقم ١٨٠٥).

من الظن في تأخر النصر، وبلغت القلوب الحناجر، وزلزل المؤمنون زلزالاً شديدًا، وظنوا بالله الظنون ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١١][1].

سميت غزوة الأحزاب بهذا الاسم؛ لأن قبائل العرب من المشركين مع اليهود تحزبوا ضد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فأتى أبو سفيان بهم، قيل: في ثلاثة آلاف، وقيل: في خمسة آلاف وتحزب اليهود معه، بنو قريظة وبنو النضير وغطفان من قبائل العرب وبنو أسد، كلهم على راياتهم فاجتمعوا يدًا واحدة، وتألبوا وتحزبوا وكادوا، وحبكوا حبكة لإنهاء الإسلام نهاية مميتة في نظرهم، ولكن: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، والحقيقة أنّ من أعظم الغزوات وأشد المكائد التي مرت بالصحابة غزوة الأحزاب، فقد طوق الأحزاب المدينة من كل جهة ومنعوا عنها الإمداد والدعم، ومنعوا عنها كل شيء، وكانوا مقاتلين أشاوس، فلما اجتمعوا أتاهم أبو سفيان في قريش وسادات اليهود قاتلهم الله، ككعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق سلام، وطلحة بن خويلد الأسدي الذي ادعى النبوة ـ فيما بعد ـ، وعيينة بن حصن، وغيرهم كثير، فاجتمع هذا الجمع ونزلوا بجانب المدينة، وأما رسول الله ﷺ فجاءه الخبر، فاستشار الصحابة: ماذا يفعل ﷺ؟ فأشار سلمان الفارسي وهو من أرض فارس، وعنده دراية في الحرب، قال: إذا هُوجمت المدن فلا بد من حفر خندق حول المدينة[2]، فوافق الرسول ﷺ على هذه الخطة، قال: نحفر حول المدينة خندقًا يدور بالمدينة فنبقى في الداخل ونقاتلهم. أما المنافقون ففروا إلى الحصون وإلى رؤوس الجبال، وأما الرسول ﷺ فأخذ كبار السن والنساء والأطفال فوضعهم في حصون أخرى، وأما هو فبرز بنفسه ـ عليه

(١) فعن عائشة ﵂ ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ قالت: كان ذاك يوم الخندق. أخرجه البخاري (رقم ٤١٠٣)، ومسلم (رقم ٣٠٢٠).

(٢) انظر: السيرة النبوية (٣/٢٩٨ ـ ٣٠٠)، والفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ١٣٧ ـ ١٣٨)، وزاد المعاد (٣/٢٧٠ ـ ٢٧١).

الصلاة والسلام ـ، وبدأ الصحابة يحفرون، وبدأ سيدهم يحفر معهم، لم يكن في خيمة مُخَصَّصَة، ولا في غرفة مُخَصَّصة، بل كان ﷺ يأخذ المسحاة ويضرب في الأرض، وينشد الصحابة:

والله لـولا الله مـا اهـتـديـنـا ولا تـصـدقـنـا ولا صـلـيـنـا[1]

فيلحق آخر القافية ﷺ وينشد معهم: «ما اهتدينا»، «ولا صلينا»، ويجوع معهم وهو يحفر، حتى يقول جابر: رأيت الواحد منا يوم الخندق يربط الحجر على بطنه من الجوع ورسول الله ﷺ يربط حجرين على بطنه، وأخذ يحفر معهم، يحمل مرة ويجهز أخرى، وهو أكرم خلق الله ﷺ. وعرضت للناس كُدْيَة ـ صخرة كبيرة ـ، فضربوها بالفؤوس فلم ينفع فيها الضرب، حاولوا تحطيمها أو زحزحتها فعجزوا؛ فأتى ﷺ فقال: «أنا رسول الله، أنا عبدالله، بسم الله»، ثم شمر عن ساعديه الشريفتين، ثم أخذ الصخرة بين يديه، ثم رمى بها في خارج الخندق، قال الصحابة: نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: وبقيت لها كُدْيَة في الأرض رفضت أن تُقتلع.

فأخذ ﷺ الفأس الذي يحفر به فضربها، فبرق بارق أضاء قصور الشام، بارق من الأرض إلى السماء، حتى رأى الصحابة الشعاع، قال: «أُريت قصور كسرى، وسوف يفتحها الله عليّ»، ثم ضرب الضربة الثانية فمرت على قصور قيصر في الشام، قال: «أُريت قصور قيصر وسوف يفتحها الله عليّ»[2]، أما المنافقون فقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا، والمجرم المنافق الخسيس النجس يقول: أحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته من

---

(١) عن البراء ﷺ قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه، وهو يقول:

اللَّهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

أخرجه البخاري (رقم ٢٨٣٧)، ومسلم (رقم ١٨٠٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية (٣/٣٠٥ ـ ٣٠٦)، وحسَّن الحديث محققا السيرة.

الخوف، ومحمد يقول: سوف يفتح قصور كسرى وقيصر، أما أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وخيار الصحابة وأبطالهم وشهداؤهم، فقالوا: صدقت وبررت في موعود الله، والحمد لله أن الله سوف يفتح علينا، فأنزل الله في المنافقين: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، وفي المؤمنين: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، واستمر ـ عليه الصلاة والسلام ـ يحفر، وبقي في الحفر أيامًا مديدة، وبقي الحصار عليهم أربعة وعشرون يومًا، وقيل خمسة وعشرون يومًا، والمدينة مطوقة لا يخرج منها شيء ولا يدخل إليها شيء، لا تمرة، ولا سلاح، فهم محاصرون تمامًا، يقول سبحانه: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: ٢٥]، ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، هذا وصف القرآن لهم، فقد أصبحوا في موقف ليس له من دون الله كاشفة، فلا يكشف هذا الخطب إلا الواحد الأحد، فلما وقع الأمر، قال جابر: «رأيت وجه الرسول ﷺ محمرًا من الجوع، وهو سيد الخلق الذي عُرضت له جبال الدنيا أن تكون ذهبًا وفضة، فرفض، وأعطي مفاتيح الدنيا، جاء بها ملك الجبال قال: خذ هذه مفاتيح الدنيا نحولها لك بكلمة كن فيكون ذهبًا وفضة، قال: «لا، أجوع يومًا وأشبع يومًا حتى ألقى الله»»[1] حتى يقول البوصيري:

وراودته الجبال الشم من ذهب ... عن نفسه فأراها أيما شممِ
وأكد الزهد فيها ضرورته ... إن الضرورة لا تعدو على العصمِ

وقال آخر:

كفاك عن كل قصرٍ شاهق عمد ... بيت من الطين أو كهفٌ من العلمِ
تبني الفضائل أبراجًا مشيدةً ... نصب الخيام التي من أروع الخيمِ
إذا ملوك الورى صفوا موائدهم ... على شهي من الأكلات والأدمِ

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٣٤٧)، وأحمد (٥/٢٥٤).

صفت مائدةٌ للروح مطعمها عذبٌ من الوحي أو عذبٌ من الكلمِ
إن كان أحببت بعد الله مثلك في بدو وحضرٍ ومن عرب ومن عجمِ
فلا اشتفى ناظري من منظرٍ حسن ولا تفوه بالقول السديد فمي

هذا محمد ﷺ، يجوع في الخندق[1] إلى درجة أن يربط حجرين على بطنه، لا تمر ولا شعير، قال جابر بن عبدالله: «ذهبت إلى أهلي وقلت: هل عندكم شيء من طعام؟ قالت: عندنا عناق مربوطة في البيت ودقيق شعير يكفي ثلاثة أو أربعة، قال: ضعوا الدقيق في البرمة، وأتى هو على العناق فذبحها رضي الله عنه لأكرم ضيف ﷺ، قال: ذبحت العناق وسلختها ووضعتها في برمة أخرى، تغلي على النار، وبرمة الشعير على النار، قال: فأتيت أهمس همسًا للرسول ﷺ، والرسول ﷺ معه ألف مقاتل في الخندق وكلهم جائعون، ألف يعملون أيامًا مديدة وما ينامون إلا قليلاً، ألف في خوف وفي رعب وفي مواجهة، قال: فاقتربت من أذنه الشريفة ﷺ، قلت: يا رسول الله صنعت لك طعامًا يكفي الاثنين والثلاثة، فتعال أنت واثنان أو ثلاثة معك، قال: وما انتهيت من كلامي إلا والرسول ﷺ يصيح في أهل الخندق، «يا أهل الخندق إن جابر بن عبدالله صنع لكم طعامًا فحيهلا بكم»[2]، قال جابر: فضاقت عليّ الأرض بما رحبت، قال: فلما سمع الجيش دعوته ﷺ انقض أولهم على آخرهم، ثم صفوا أنفسهم يمشون، قال جابر: فسبقت الرسول ﷺ، ودخلت على زوجتي، قلت: دعوت الرسول ﷺ واثنين، فدعا الجيش كله، وكانت زوجته عاقلة قالت: الله ورسوله أعلم، وما لنا من حيلة، فتقدم ﷺ أمام الجموع، قال: يا جابر لا تنزل اللحم ولا الشعير من على البرمة؛ فلما دخل عليهم وإذا البرمة حاضرة، فكشف اللحم ثم قال: بسم الله أنا رسول الله ونفث فيه، وأتى على الشعير وقال: أنا رسول الله ثم نفث، وقال: ادخلوا عليّ عشرة عشرة، ثم أنزل اللحم ﷺ وأخذ يضيف الصحابة،

---

(١) فعن البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق، حتى اغمر بطنه، أو اغبر بطنه. أخرجه البخاري (رقم ٤١٠٤)، ومسلم (رقم ١٤٠٣) .
(٢) أخرجه البخاري رقم (٤١٠١)، ومسلم (رقم ٢٠٣٩).

ويباشر على الناس ومعه جابر صاحب البيت، والرسول ﷺ واقف قد عُصر بطنه من الجوع، قال: أدخل الناس عشرة، قال: فأدخلناهم عشرة، قال: فقدم لهم اللحم والشعير، قال: والله الذي لا إله إلا هو إنه يأكل العشرة حتى ينتهوا ويشبعوا ثم يقوموا، قال: علي بعشرة، حتى أَدخَلَ مائة، فلما انتهى قال: تعال يا جابر، قال جابر وهو يقسم ـ وكان أعمى في آخر عمره ـ: والله الذي لا إله إلا هو، والذي أعطاني بصري، وأخذه مني أنا أتينا اللحم والشعير ما نقص منه شيء!! ثم جلس ﷺ بعد مائة دفعة وجلس جابر بجانبه، وأخذ ﷺ يلتفت إلى جابر، ويقول لجابر: أشهد أني رسول الله. قال جابر: أشهد أنك رسول الله، قال: يا جابر الآن بقي أهل المدينة، فإذا أكلتم فسوروا لأهل المدينة، ووزعوه فيهم، قال جابر: فوزعناه على الجيران وعلى أهل المدينة، والله ما أمسى بيت في المدينة إلا وفيه لحم وشعير من ذاك اللحم والشعير!! ثم رجع ﷺ بالجيش، وواصل الحفر»، وبردت المناوشات، وأتى إلى عمار بن ياسر رضي الله عنه الصادق المخلص المولى الذي شرفه الإسلام، فأصبح سيدًا من السادات رفيع القامة رضي الله عنه، وإذا هو يحمل لبنتين أو حجرين، والناس يحملون حجرًا واحدًا، فأخذ ﷺ ينكث التراب عن لحيته وعن رأسه، ويقول: «ويح عمار تقتله الفئة الباغية»(1)، فهو يخبر ﷺ بخبر الغيب في تلك اللحظة، فمن علَّمه إلا الواحد الأحد، ليثبت نبوّته للناس، ومرّت السنوات وقُتل عمار شهيدًا.

ووصف الله ﷻ الكفار لما تألبوا على الرسول ﷺ، فقال: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قيل: جاء من أمامهم الأحزاب، ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ بنو قريظة، ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]، إذْ بلغ بهم الرعب والخوف ما الله به عليم، أما المنافقون فانخذلوا، وفشلوا وافتضحوا، وأما المؤمنون فزادهم هذا الحصار صرامة وثقة، وقاتلوا ودافعوا، وقد حاول بعض المقاتلين من الكفار اجتياز الخندق، وكان الخندق متسعًا ولا يستطيع أحد أن يجتازه بسهولة، فخرج عمرو بن ود مقنعًا

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨١٢).

بالحديد، ينادي المسلمين: من يبارز؟ فقام عليّ بن أبي طالب فقال: أنا لها يا رسول الله! فقال النبي ﷺ: «إنه عمرو، اجلس»، وذلك لخوف الرسول على عليّ بن أبي طالب؛ لأن عمرًا كان من أشجع العرب، ثم نادى عمرو: ألا رجل يبارز؟ وجعل يؤنب المسلمين ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قتل منكم دخلها، أفلا تبرزون إليّ رجلاً؟! فقام عليّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال: «اجلس، إنه عمرو»، ثم نادى مرة ثالثة فقال:

ولقد بححت من النداء ... لجمعهم هل من مبارزْ
ووقفت إذ جبن المشجع ... موقف القرن المناجزْ
ولذاك إني لم أزل ... متسرعًا قبل الهزاهزْ
إن الشجاعة في الفتى ... والجود من خير الغرائزْ

فقام عليّ رضي الله عنه وقال: يا رسول الله أنا، فقال: «إنه عمرو»، فقال: وإن كان عمرًا، فأذن له الرسول ﷺ فمشى إليه وهو يقول:

لا تعجلن فقد أتاك ... مجيب صوتك غير عاجزْ
في نية وبصيرة ... والصدق منجى كل فائزْ
إني لأرجو أن أقيـ ... ـم عليك نائحة الجنائزْ
من ضربة نجلاء ... يبقى ذكرها عند الهزاهزْ

فقال له عمرو: من أنت؟ قال: عليّ، قال: ابن عبد مناف؟ قال: أنا عليّ بن أبي طالب. فقال: يا ابن أخي مِنْ أعمامك مَنْ هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك؟ فقال له عليّ: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضبًا، واستقبله عليٌّ بدرقته فضربه عمرو في درقته فقدّها، وأثبت فيها السيف وأصاب رأسه فشجه، وضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج، وسمع رسول الله ﷺ التكبير فعرفنا أن عليًا قد قتله(١).

---

(١) انظر: السيرة النبوية (٣/٣١٢ ـ ٣١٣)، والفصول (ص ١٣٩ ـ ١٤٠).

أعليّ تقتحم الفوارس هكذا عني وعنهم أخروا أصحابي
اليوم يمنعني الفرار حفيظتي ومصمم في الرأس ليس بناني
يا أبا السبطين أحسنت فزد فعلكم يا شيخنا فعل الأسدْ
رمدٌ تفعل هذا بالعدا كيف لو عوفيت من ذاك الرمدْ؟!

وجاء نعيم بن مسعود الغطفاني إلى الرسول ﷺ مسلمًا، وهو من قبائل الأحزاب وكان في صفوف الكفار ضد الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ فقذف الله الإيمان في قلبه، فأتى في الليل للرسول ﷺ يتسلل بسيفه، ثم دخل وقال: يا رسول الله: أنا نعيم بن مسعود الغطفاني من الأحزاب الذين حاربوك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، وأخبره بأنه رجل صاحب مكيدة، فقال له ﷺ: «خَذِّل عنا ما استطعت»، قال: وتعفو عني إذا تكلمت فيك وأنت بعيد بأن أصف أنك عدو، قال: عفوت عنك، ولذلك يقول ﷺ: «الحرب خدعة»[1]، فذهب إلى قريش وهم لا يعلمون أنه أسلم، فقال: كيف أنا فيكم؟ قالوا: صديقنا ولا نتهمك، وحبيبنا ولا نظلمك، قال: ألست ناصحًا لكم، قالوا: ناصح، قال: إني سمعت أن بني قريظة اليهود سوف يأخذون منكم رهائن، مائة من رجالكم رهينة، وسوف يسلمونهم محمدًا في المدينة؛ لأنهم اتفقوا مع الرسول ﷺ على أن يسلموه مائة من رجالهم، والناس سوف يغدرون بكم، فالله الله لا تقعوا في الفخ، لا يغدر بكم القوم، قالت قريش: أحسنت لا ننكر جميلك ومعروفك هذا أبد الدهر، وكنا نتوقع منك مثل هذا الكلام، ثم ذهب إلى اليهود وقال لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: صديقنا ما نظلمك، قال: فإن قريشًا سوف يقاتلون محمدًا في دار غير دارهم، وفي مدينة غير مدينتهم، فإن انتصروا أخذوا الغنائم، وإن هزموا؛ صارت عليكم الدائرة، فأرى أن تأخذوا رهنًا من قريش مائة، فإن انتصرتم أعدتموهم فإذا أنتم في النصر سواء، وإن غُلبتم وقفت معكم قريش يقاتلون حتى يمنعوكم من محمد، قالوا: أصبت، هذا الذي نريد، فاجتمعت قريش واجتمع الأحزاب، قالوا: ما عندكم؟ قال اليهود: نريد منكم مائة،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٢٩، ٣٠٣٠)، ومسلم (رقم ١٧٣٩، ١٧٤٠).

قالت قريش: لا نوافق على مائة، كيف نرهن رجالنا، قالوا: ما نريد إلا هذا، فاختلفوا فوقع بينهم الشجار، فانصدعوا بإذن الله، ووقعت الفرقة[1]، وأرسل الله ريحًا هوجاء، فأتت إلى الخندق، والرسول ﷺ في طرف الخندق، فإذا هي برد وسلام ونسيم عليل، وإذا نزلت من عند الخندق اقتلعت الخيام والأشجار، يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩﴾ [الأحزاب: ٩] فأخذت الريح تلعب بهم، وتتناول الخيام وتبعثرها، وأما من داخل الخندق فهدوء وسكينة، والصحابة يصلون رضوان الله عليهم، ويسبحون ويقرؤون القرآن، كانت ليالي مشرقة من العبادة والمذاكرة والعلم، وأما في طرف الخندق فلا يسمع الصحابة إلا الصرير والزمهرير ويرون قطع الخيام في الجو، وظلامًا دامسًا وريحًا باردة، فأراد ﷺ أن يعلم خبر القوم، فقال ﷺ: «من يذهب ويأتي بخبر القوم؟» فسكت الصحابة، ألف رجل أمامه، في الليل الدامس، وهم جائعون، وفي ظلام وخوف، وفي زلزلة ورعب، ووراء الخندق جيش من الأحزاب يتحرى ويرمق، ينتظر الفرصة للانقضاض فكرر ﷺ: «من يذهب ويأتيني بخبر القوم؟ اللهم اجعله رفيقي يوم القيامة»[2]، فسمع حذيفة قال: أنا يا رسول الله، فقال له: انظر إلى خبر القوم ولا تحدث شيئًا حتى أخبرك وتعال، قال حذيفة: فمشيت في الظلام، يقول: والله إني أخرج يدي ما أرى يدي، قال: فلما خرجت من الخندق وإذا الريح الصرصر، تأخذ أوراق الأشجار، وتضرب بها وجوه القوم، وتأخذ الخيمة وتقطعها فوق رؤوس الناس، وتأتي بقدر اللحم وتنزله من على النار، قال: فدخلت في القوم، فلما دخلت في صفوفهم، فسمعت أبا سفيان يقول: أيها الناس إنا لا نأمن أن يرسل محمدٌ ﷺ في هذه الليلة عينًا أو جاسوسًا، ألا فكل يتفقد جاره، قال حذيفة: فبدأت بجاري الذي على اليمين وعلى اليسار، فقلت لجاري: من أنت؟ قال أنا فلان، قلت اسكت، الحمد لله أنك

---

(١) انظر: السيرة النبوية (٣/٣١٩ ـ ٣٢١)، والفصول (ص ١٤٠ ـ ١٤٢)، وزاد المعاد (٣/٢٧٣ ـ ٢٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨٨).

فلان، قلت للآخر: من أنت؟ قال: أنا فلان قلت: اسكت، فبدأ بسؤالهم ولو بدؤوا بالسؤال لانكشف أمره، قال أبو سفيان: أيها الناس، أما ترون هذه الريح ما أبقت لنا قدرًا ولا خيمة ولا نارًا إلا أطفأتها، ألا إني مرتحل فارتحلوا، فمن شاء أن يرتحل فليرتحل، ومن شاء أن يبقى فليبق، يقول حذيفة: فلما قام أمامي، والله لو أردت أن أقتله لقتلته، لكن ذكرت قول الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: لا تحدث شيئًا؛ لأن الرسول ﷺ من حكمته يريد أن يكشف أمر القوم لأمر أراده الله، قال: فارتحل القوم فلما ارتحلوا عدت، فرجعت أزحف، قال: والله إني في الظلام أقع مرة وأمشي على أربع بين النخل وبين الأشواك، أقف مرة وأسقط مرة، حتى وصلت وإذا الجيش نائم في آخر الليل، وإذا محمد ﷺ في البرد، ملتحف بمطرف، مستقبل القبلة يصلي ﷺ، وجميع الجيش نائمون، فلقد ظلوا ليالي وهم في الحصار والجوع، والمشقة، لكن محمدًا ﷺ قائم يصلي، يدعو ربه ويتضرع إليه، فهو ﷺ آية في العبادة، قال: فلما أحس بي أشار إليّ، فأقبلت، فاقتربت منه، فرفع المطرف لي، فغطاني به وأدفأني، قال: فبقيت حتى سلَّم، فلما سلَّم سألني عن خبر القوم، فلما أخبرته بخبر القوم وطمأنته رفع يديه ودعا لي في الظلام، فقال: اللهم اغفر له اللهم ارحمه، اللهم اجعله رفيقي يوم القيامة، اللهم اجعله رفيقي يوم القيامة، ثم أنزل يديه، قال حذيفة: فنمت بجانب الرسول ﷺ قال: فبقي يصلي فلما أقبلت صلاة الصبح قال ﷺ: «قم يا نومان قم يا نومان»(١). تأمل أخلاقه ﷺ؛ حتى في المعركة كان يمازح أصحابه ويداعبهم، قال حذيفة: فاستيقظت فصليت معه الفجر، فاتجه ﷺ بعد ذلك إلى المدينة منصورًا مظفرًا، تحفه رعاية الله وعنايته وولايته، ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فارتدوا على أعقابهم خاسرين نادمين خائبين متفرقين، وانتصر دين الإسلام، وبدأ والحمد لله إشراق الدين من جديد، وانتصار الدعوة المحمدية الخالدة.

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٨٨).

دروس وعبر من غزوة الأحزاب:

◆ إن حفر الخندق يدخل في مفهوم قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠] والحكمة ضالة المؤمن وأي وسيلة عصرية ممكن أن يستخدمها المسلم مهما تطورت فعليه أن يكون هو المالك لها قبل غيره، وأن يكون أقوى من خصمه، ولا يصيبه ورع مظلم، فيقول: إن هذه الوسائل لم تكن عند الصحابة، بل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] علينا أن نماشي العصر، فكلما أحدثوا قوة، نحدث قوة، حتى إن مما يشرف المسلم أن تكون قوته أرقى من كل قوة رادعة في الأرض، وأن يكون هو القوي، وهو المنتصر؛ لأن الله يحب المؤمن القوي وهو أحب إليه من المؤمن الضعيف[(١)]، فالضعيف اقتصاديًّا أو عسكريًّا أو علميًّا أو أدبيًّا، أقل درجة من المؤمن القوي، فالواجب على المسلمين إعداد العدة لأعداء الله الذين يكيدون لهذا الدين، ولا يؤمنون بلا إله إلا الله محمد رسول الله، ولا يدينون دين الحق.

◆ المساواة وعدم استئثار الراحة، فالرسول ﷺ شارك الصحابة في الحفر، وشاركهم في حمل الحجارة، وشاركهم في الجوع، وشاركهم في الظمأ[(٢)]، وهو سيد خلق الله ﷺ، فالواجب على المسلم إذا كان قدوة أو عالمًا أو وجيهًا أو داعية ألا يأمر أصحابه بأمر إلا وهو معهم، فيشاركهم ويواسيهم، ولا يستأثر بالراحة حتى ولو كان في موطن القيادة، بل يريهم من نفسه أنه بذل، وأنه ضحى، وأنه زميل لهم وأخٌ لهم، بل إن من الشرف عند العرب أن تكون خادمًا لأصحابك. يقول المقنع الكندي:

وإني لعبد الضيف ما دام نازلاً   وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

يقول: أنا إذا نزل الضيف تحولت إلى عبد، وأنا لست عبدًا لكنني مع

---

(١) فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القويّ خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خيرٌ». أخرجه مسلم (رقم ٢٦٦٤).

(٢) لحديث البراء رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق، حتى أغمر بطنه أو أغبر بطنه. أخرجه البخاري (رقم ٤١٠٤)، ومسلم (رقم ١٤٠٣).

الضيف كالعبد؛ فالواجب على الإنسان أن يخدم أصحابه، فإذا سافر معهم لا يجلس ويتكئ وهم يعدون الطعام، ويضربون الخيام ويوقدون الحطب؛ بل يفعل كما فعل ﷺ. وقد ورد في السِّيَر: أنَّ رسول الله ﷺ خرج مع أصحابه فأخذ أحدهم يذبح الذبيحة، والثاني يسلخها، والثالث يغسل، والرابع يأتي بالماء، فقال ﷺ: وأنا آتي بالحطب، فذهب ﷺ وأحضر الحطب.

◆ الرأفة بالمؤمنين يوم أشركهم رسول الله ﷺ في طعام جابر، فلم يستأثر به، وهكذا كن، واجعل رفاقك يشاركونك في القليل والكثير، ولا تكن كبعض الناس الذين لا يفكرون إلا في أنفسهم، بل ينبغي لك أن تحب لهم ما تحب لنفسك. إن حاتمًا الطائي كان يرفض هذا الاستئثار من منطق نخوته العربية، وهو لم يهتدِ للإسلام، حتى إنه ﷺ يقول لابنة حاتم: «يا سفانة لو أن أباك مسلم لترحمنا عليه»[(1)]، يقول حاتم الكريم:

أما والذي لا يعلم الغيب غيره ... ويحيي العظام البيض وهي رميمُ
لقد كنت أطوي البطن والزاد يشتهى ... مخافة يوم أن يُقال لئيمُ

يقول: والله إني كنت أطوي البطن وأنا جائع، وإني أوثر بطعامي الجيران والضيوف حتى لا يُقال: إني بخيل، وهذا موافق لحديث مسلم في الصحيح يقول ﷺ: «من كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له، ومن كان له فضل راحلة فليعد به على من لا راحلة له»[(2)].

ويقول حاتم أيضًا:

وما أنا بالساعي بفضل لجامها ... لتشرب ماء الحوض قبل الركائبِ

يقول: والله إني أمسك بغلتي وأنتظر حتى تشرب بغالهم مع بغلتي.

إذا كنت ربًّا للقروض فلا تدع ... رفيقك يمشي خلفها غير راكبِ

---

(1) انظر خبر أسر سفانة بنت عدي وعفو رسول الله ﷺ عنها في السيرة النبوية (٤/٢٩٨ - ٢٩٩)، ولم أقف على لفظ الحديث.

(2) أخرجه مسلم (رقم ١٧٢٨).

أي: إذا كان عندك جمل فلا تركب وتترك أصحابك يمشون، بل:

أنخها فأركبه وإن حملتكما فذاك وإن كان العقاب فعاقبِ

فالواجب على المسلم التأسي بما فعله ﷺ في قصة جابر، فهو لم يأكل ﷺ إلا في آخر مائة، وهم يَرِدون، وهو ينتظر ﷺ ويقدمهم على نفسه.

◆ ومنها: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨] فلا أسهل ولا ألين ولا أرأف ولا أرحم من محمد ﷺ.

◆ إن من معجزاته في حفر الخندق ـ عليه الصلاة والسلام ـ، تكثير طعام جابر، والرياح، فهي مجموعة أخرى من معجزاته ﷺ التي تضاف إلى مصداقيته، وإلى الأدلة القاطعة على رسالته والبراهين الساطعة على نبوته التي أكرمه الله بها، وهي أكثر من ألف معجزة كما عددها العلماء.

◆ مشروعية قضاء الفائتة؛ لأن الرسول ﷺ شُغل عن صلاة العصر، قال بعض أهل العلم: «نسيها ﷺ، من المواجهة ومن حفر الخندق، ومن الخوف حتى أتت صلاة المغرب وحانت صلاة العشاء فجاء عمر إلى الرسول ﷺ وقال: ما صليت العصر يا رسول الله، كادت تغرب الشمس وقيل غربت، قال: «أنا والله ما صليتها، شغلونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله قبورهم وصدورهم نارًا»[(١)]. ثم صف الناس فصلى العصر ثم صلى المغرب ثم صلى العشاء»، وفي هذا أن من فاتته الصلاة ناسيًا، عليه أن يقضيها متى ذكرها يقول ﷺ: «من نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلها متى ذكرها»[(٢)]، أما من تركها عمدًا فقد كفر، قال ﷺ: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»[(٣)]. وتُقضى الصلاة الفائتة بالترتيب، فإذا فاتتك صلاة العصر

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤١١١، ٤١١٢)، ومسلم (رقم ٦٢٧، ٦٣١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٩٧)، ومسلم (رقم ٦٨٤).

(٣) أخرجه أحمد (٥/٣٤٦)، والترمذي (رقم ٢٦٢١)، وابن ماجة (رقم ١٠٧٩)، والحاكم (٦/١)، وصححه ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٤١٤٣).

والمغرب والعشاء تعيد العصر ثم المغرب ثم العشاء، لا تقدم صلاة على صلاة، ويُؤذن أذان واحد للصلاة جميعًا، وتُقام لكل صلاة إقامة.

◆ الدعاء على الكافر ولو كان بعينه.

◆ قال ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة: ٢٣٨] يعني صلاة العصر، فهذه الصلاة الوسطى، «ومن ترك صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»(١)، و«من حافظ على البردين دخل الجنة»(٢)، والبردان: الفجر والعصر.

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٥٢)، ومسلم (رقم ٦٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٥٧٤)، ومسلم (رقم ٦٣٥).

الحديبية

الحديث موصول بمحمد ﷺ، فما زالت الرحلة والقصة طويلة معه ومع سيرته العطرة، فنحن الآن نعيش مع صلح الحديبية؛ هذا الصلح التاريخي، فكما عشنا مع محمد ﷺ من قبل في المعارك نعيش معه الآن في الصلح، وكما عشنا معه في الحرب نعيش معه في السلم، وصلح الحديبية هذا سُمي باسم المكان الذي يشرف على مكة من جهة المدينة، ففيه تم توقيع المعاهدة التي كان محمد ﷺ طرفًا فيها، والطرف الآخر هم المشركون كفار قريش، وكانت في سنة ست للهجرة، فقد مُنِعَ ﷺ من البيت العتيق، من الوطن الذي ولد فيه، البيت الذي هو ﷺ أولىٰ به وليس كفار قريش، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الانفال: ٣٤]، فهؤلاء المشركون لا تصلح صلاتهم عنده، فصلاتهم حرام، وذكرهم باطل، وطوافهم مردود عليهم، يقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥]، إن هؤلاء ليسوا أهلاً لأن يطوفوا بالبيت ولا أن يصلوا عنده، فصلاتهم تصفيق وزفير وشهيق، فقد كانوا يصفقون ويلعبون وهم يطوفون بالبيت، فهم أنجاس أرجاس وأصنام وأزلام، المسلمون أولى، أما هؤلاء فلا حق لهم أن يطوفوا بالبيت؛ فالرسول ﷺ انطلاقًا من هذه المهمة اتجه من المدينة سنة ست بجيش قوامه عشرة آلاف مقاتل، وفي بعض الروايات اثنا عشر ألفًا، لكنَّ عشرة آلاف من أصحاب محمد ﷺ يعادلون مئات الآلاف كل رجل منهم تربى على يد محمد ﷺ، على الإيمان وعلى القرآن، يرفع روحه في كفيه، ودمه في يده، يقدم رأسه على أسلات السيوف، ولو أمرهم محمد ﷺ أن يعبروا البحر؛ لعبروه، لأنه أحب الناس إليهم ﷺ.

اتجه ﷺ باسم الله، وكان مركوبه ناقته القصواء، وكان لا يسبقها أحد لا جمل ولا بكر ولا ناقة ولا فرس، وكانت تسبق دائمًا حتى جاء أعرابيٌّ على قعود فسبقها، فتبسم ﷺ وهو يقول: هذه التي سبقت جمال العرب وأبكار العرب ونياق العرب يسبقها أعرابي على قعود، ثم تبسم ﷺ وقال: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»، واتجه ﷺ على ناقته ولما وصلت الحديبية بركت (أناخت) في الأرض، قالوا: يا رسول الله خلأت الناقة أي كلت أو ذلت، قال ﷺ: «ليس لها بخُلُق ولكن حبسها حابس الفيل، والذي نفسي بيده لا تطلبني قريش خطة تعظم فيها الرب إلا أعطيتها»[1]، يقول: إن كانوا مستعدين للصلح فنحن مستعدون، لكن بشرط أن يعظموا الواحد الأحد، ولا يكون فيه حرج للإسلام، ثم جلس الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأتى قريشًا الخبرُ قالوا: محمد خرج بعشرة آلاف مقاتل، كل واحد منهم يتمنى الشهادة والموت أكثر من الحياة. فأرسلوا بديل بن ورقاء ليفاوض الرسول ﷺ فقال: يا محمد، ما كان لك أن تقاتل قومك، فأراه ﷺ الإبل، وأراه الناس وهم محرمون وقال له: هؤلاء يُصدون عن البيت؟ فرجع إلى كفار قريش، وقال: لو تركتموه أدركته رهبة وعاطفة، قالوا: ما أرسلناك إلا أن ترده، وما أرسلناك تعينه علينا، كيف نتركه يدخل البيت؟!! وأقسموا ألا يدخل البيت أبدًا، فاختار ﷺ عمر بن الخطاب يفاوضهم وقال له: اذهب إليهم وفاوضهم وصالحهم وكاتبهم، قال: يا رسول الله؛ والذي نفسي بيده لو ما وجدت إلا الذر أقاتلهم به لقاتلتهم به[2]، وأنا أبغض رجل عند قريش، فابحث عن رجل آخر، قال: من؟ قال: عثمان بن عفان. لأن عثمان بن عفان له أيادٍ عندهم، وفيه مرونة، وبيوت قريش تحبه لأنه كريم معطاء، وأما عمر فصارم في ذات الله قوي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) قال ابن كثير رحمه الله في الفصول (ص ١٦٠): وكره ذلك جماعة من أصحابه، منهم: عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وراجع أبا بكر في ذلك، ثم راجع ﷺ، فكان جوابه ﷺ كما أجابه الصديق رضي الله عنه، وهو أنه عبدالله ورسوله وليس يعصيه، وهو ناصره. وقد استقصى البخاري هذا الحديث في صحيحه.

شديد، وما يقبل المهادنة أبدًا، ولا أنصاف الحلول، وهم لا يقبلون منه الصلح، فقال ﷺ: أين عثمان بن عفان؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: اذهب إليهم، فذهب رضي الله عنه ودخل البيت، فسمحوا له بالطواف، قال عثمان: لن أطوف حتى يطوف صاحبي، قالوا: لقد صبأت بعدنا يا عثمان، أي تغيرت علينا، وحبسوه على طعام فأطال معهم، فجاء الخبر إلى الرسول ﷺ أن عثمان قُتل، ولم يقتلوه، لكنه أجاب دعوتهم، فلما أرادوا أن يطعموه، لم يقل لهم: عجلوا بالصلح، بل جلس رضي الله عنه وطال النهار حتى أتى الخبر للرسول ﷺ بأن عثمان قُتل، فأتى ﷺ وجلس تحت الشجرة فأسند ظهره، وقال: بايعوا، يقول البراء بن مالك: بايعت الرسول ﷺ على الموت، وكان سلمة بن الأكوع يحبس الشجرة بيده عن وجه الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فقال ﷺ: بايع يا سلمة، قال: فبايعت أول القوم؛ قال: فلما توسط البيعة، قال: بايع يا سلمة، قال: بايعت يا رسول الله، قال ﷺ: وأيضًا، قال: فبايعت، قال: فلما أتى آخر البيعة قال: بايع يا سلمة، قلت: بايعت مرتين يا رسول الله، قال: وأيضًا، قال: فبايعت ثلاث مرات بأن لا نفر وأن نقاتل حتى نموت في سبيل الله[1]، فلما انتهت البيعة قال ﷺ: «اللهم هذه عن عثمان بن عفان فبايع ﷺ عن عثمان بن عفان»[2]، وكان أحد المبايعين وهو من المنافقين اسمه جد بن قيس الأنصاري[3]، اندس بين الصحابة تغطيةً وتمويهًا، ولم يكن قصده الدين ولا نصرة الإسلام؛ لكن يريد أن يحقن دمه وماله، فضاع جمله، فطفق يطارد الجمل. والواحد الأحد في السماء يقول: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] المؤمنون يرجون جنة ونعيمًا، وأما هذا فمعه جمل لا يساوي مائة درهم، ذهب يبحث عنه في الأودية، قال له الصحابة: بايع الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٨٠٧).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٩٩).

(٣) سمع أبو الزبير جابرًا يُسأل: كم كانوا يوم الحديبية؟ قال: كنا أربع عشرة مائة، فبايعناه. وعمر آخذ بيده تحت الشجرة، وهي سمُرة. فبايعناه. غير جدِّ بن قيس الأنصاري. اختبأ تحت بطن بعيره. أخرجه مسلم (رقم ١٨٥٦) (٦٩).

قال: والله إن حصولي على جملي أحسن من بيعتكم هذه. فقال له الصحابة: لقد تكلمت بكلمة سوف ينقلها القرآن ويفضحك الوحي؛ وكان إذا قال الواحد منهم كلمة أتى جبريل بها، يقول أحد المنافقين للرسول ﷺ: ائذن لي ولا تفتني، يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] وقال أحدهم: لا تنفروا في الحر؛ فقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١]، وقالوا له: تعال نبايع لك الرسول ﷺ ونستغفر لك، فلوى رأسه، لأنه خشي أن يقول كلامًا فينقله الوحي للرسول ﷺ، لكن الله فضحه فأنزل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥، ٦]، فجاء القرآن بالحركة والصورة والصوت، فهذا منافق أصرَّ على أن يكفر بالله، ويحارب دين الله، ولا يريد المغفرة، وفرق بين إنسان يرتكب سيئة ويتوب ويبكي ويندم، وآخر يحارب الدين عن عمد بقلمه وبماله ولقاءاته، ويريد هدم الإسلام، وغمز أهل الدين والصلاح، فهذا لا يمكن أن يغفر له أبدًا، وأما الصحابة فانتهوا من البيعة رضي الله عنهم وأرضاهم، وقيل: وإذا بجبريل ينزل من السماء بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: ١٨]. فرضي الله عنهم رضًا لم يسخط بعده أبدًا، فالذين بايعوا الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ تحت الشجرة مزكّون وممدوحون عند الواحد الأحد، لا يجوز أن يُنالوا أو يُقدحوا أو يُجرحوا أو يأتي سفيه يسبهم أو يتعرض لهم؛ لأن الله يقول من فوق سبع سموات: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، رضي عن أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم وأرضاهم وأكرم مثوبتهم على ما قدموا للإسلام، فقد بايعوا محمدًا ﷺ، وعاهدوه أن يردوا حياض الموت في سبيل الله، فلما انتهوا من البيعة، وإذا بعثمان يقبل عليهم، وإذا بالخبر ليس بصحيح، والبيعة قد تمت، فجاء عثمان رضي الله عنه، وأخبر الرسول ﷺ أن الناس في بُعد عن الصلح، وأنهم ليسوا قريبين، وسوف يبعثون رسولاً، قيل: فإذا بعروة بن مسعود الثقفي يرسله

كفار قريش ويقولون له: اذهب إلى محمد وصالحه ورده عن البيت ولا يقربنا أبدًا؛ فأتى عروة بن مسعود الثقفي، وجلس أمام الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، قال: يا محمد لا يغرك أوباش العرب الذين جمعت، إنهم سوف يفرون عنك، فقام أبو بكر وقال: نحن ـ قاتلك الله ـ نفرُّ عن محمد ﷺ؟ ثم قال له كلمة مقذعة في التاريخ وهي في الصحيح[1]، فقام مغضبًا وفيما كان يحدث الرسول ﷺ كان يأخذ بلحية الرسول ﷺ ويلح عليه في أن يقبل الصلح، وإذا المغيرة بن شعبة وهو ثقفي وعروة ثقفي من القبيلة نفسها، ينبه عروة: لا تمس لحية الرسول ﷺ والذي نفسي بيده إن مسستها مرة أخرى لا تعود يدك إليك، وكان معه السيف صلتًا. قال عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا المغيرة بن شعبة، قال: إيه يا غدر، وهل أنا أسعى إلا في غدرتك؟ فرجع عروة بن مسعود إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟ أخبرنا عن محمد ما رأيت؟ قال: يا قريش، والله لقد دخلت على كسرى في ملكه، والنجاشي في ملكه، وهرقل في ملكه، ورأيت ملوك اليمن، والله ما رأيت قومًا يعظمون صاحبهم ويحبونه كحب أصحاب محمد لمحمد ﷺ، والله ما التفتَ في جهة؛ إلا التفتوا جميعًا في الجهة التي نظر إليها، أي أنه ليس رجلاً عاديًّا ﷺ، وليس بزعيم فهو نبي يوحى إليه، ومعصوم، ورسول، وصاحب شفاعة، لقد وصل إلى سدرة المنتهى، وهو صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، وصاحب الرسالة، قال عروة: والله ما تكلم إلا سكتوا كأن على رؤوسهم الطير، إذا قال: بسم الله سكتوا جميعًا، واللهِ ما بصق إلا وأخذوا بصاقه فعركوا وجوههم ببصاقه[2]؛ لأنه ﷺ مبارك وريقه مبارك وطاهر، وليس هذا إلا للرسول ـ

---

(١) الكلمة المقذعة التي قالها أبو بكر الصديق لعروة بن مسعود: امصص بظر اللات. وهي في صحيح البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢).

(٢) في صحيح البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢): فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكًا قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدًا، والله إن تنخم نخامة إلاّ وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، إذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا =

عليه الصلاة والسلام ـ. فمعنى كلام عروة: اقبلوا الصلح، فهؤلاء قوم سوف يقاتلون إلى آخر قطرة من دمائهم ويدخلون البيت. فقالوا من عنادهم: لا نقبل، فأرسلوا مكرز بن حفص يفاوض الرسول ﷺ، وكان رجلًا فاجرًا ولصًّا فأقبل بالجمل بشراسة وعنفوان، فرآه ﷺ فقال: هذا مكرز بن حفص، فجلس مكرز وقال: يا محمد، ما جاء بك؟ جئت تقاتل قومك، جئت تجمع العرب لتحاربنا، قطعت الآباء وسببت الآلهة، فأقامه ﷺ من المجلس، فخرج ورجع إلى قريش وأخبرهم، فأرسلوا له سهيل بن عمرو، وهو رجل عاقل، وخطيب فصيح، فلما رأى ﷺ سهيل بن عمرو قد أقبل قال: هذا سهيل بن عمرو، وقد سهل لكم من أمركم، فأقبل عليهم وقال: يا محمد نتعاقد نحن وإياك. فقال عمر: يا رسول الله دعني أخلع ثنية سهيل بن عمرو حتى لا يكون مرة ثانية خطيبًا عليك؛ لأنه كان في مكة يلهب الحماس في المعارك ضد الرسول ﷺ، ويقف عند البيت فيلقي خطبه كأنها صواعق فينتفضون قبله، قال ﷺ: دعه يا عمر لعله يقوم مقامًا يسرك ونحمده عليه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]. وما يدريك فربما يكون عدوك اللدود هو صديقك وحاميك وناصرك، يقول سبحانه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وهو ما حصل لسهيل بالفعل؛ فلما ارتدت قبائل العرب، قام سهيل بن عمرو في القبائل خطيبًا، فكان يرد الأفواج إلى الإيمان فشكره عمر، وقبّل رأسه، وقُتِل شهيدًا في اليرموك.

قال ﷺ: نكتب كتابًا؟ قال: اكتب يا علي، فأتى علي رضي الله عنه وأخرج القلم وأتى بالأوراق، فأملاه ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل: ما نعرف إلا رحمن اليمامة، يعني كاهنًا في اليمامة يسمونه الرحمن: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠] فقال ﷺ:

= يقتتلون على وضوئه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.

اكتب باسمك اللهم، فكتب علي، ثم وبعد كتابة شروط الصلح قال ﷺ: هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، قال سهيل بن عمرو: لا تكتب، قال: لماذا؟ قال: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، فنحن لا نشهد أنك رسول الله، نرى أنك محمد بن عبدالله، قال: أنا محمد بن عبدالله، وأنا رسول الله[1]، قال سهيل: لا تكتب امحها، قال ﷺ: امحها يا علي، قال: والله لا أمحو اسمك بعدما كتبته، فأخذ ﷺ الورقة، وحكّ بظفره الشريف (رسول الله)، حتى يتم الصلح؛ لأنه رسول الصلح، رسول السلام والمحبة، رسول الرحمة، رسول الجهاد ﷺ، وكانت الشروط:

الشرط الأول: أن من يأتي إليك منا رُدَّه علينا، ومن يأتي منك إلينا لا نرده عليك، وكان يعلم ﷺ أنه لا يوجد صحابي قد دخل الإسلام قلبه وتعمّق الإيمان في روحه ثم يكره الدين، لكن الكفار يمكن أن يتحقق فيهم ذلك.

الشرط الثاني: ألا تقاتلنا عشر سنوات، قال: اكتب عشر سنوات.

الشرط الثالث: أن تدخل في العام المقبل والسيوف في قرابها، أي تكون السيوف في أغمادها.

الشرط الرابع: أن تبقى فقط ثلاثة أيام بعد العمرة، ثم ترتحل بجيشك، وتخرج من مكة.

وتم الصلح على ذلك، فلما انتهى الصلح واتفقوا، وإذا بأبي جندل بن سهيل بن عمرو هاربًا من المشركين، وكان معتقلاً عندهم، وكان مسلمًا، فدخل في جيش الرسول ﷺ فرآه سهيل بن عمرو، وأبو جندل يقول: يا مسلمون أنقذوني؛ أغيثوني... أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله... فقال سهيل بن عمرو: يا محمد هذا ابني والصلح الذي بيننا ينص على أن تعيده لنا، قال ﷺ: الصلحَ الصلحَ أي أقررنا: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ [الرّعد: ٢٠]، والمؤمنون على شروطهم، قال: أعيدوا

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٣١، ٢٧٣٢). وانظر فتح الباري (٥/٣٣٣ ـ ٣٤٦).

ابنه له، فأخذ سهيل بن عمرو يربط يدي ابنه أمام الناس، والصحابة متوجعون رضوان الله عليهم، ويصيحون ورسول الله يرفض إلا أن يعود معه، فهو أوفى الناس ﷺ، فقال أبو جندل ابن سهيل: يا معشر المسلمين تعيدونني إلى الكفار يفتنوني عن ديني. قال عمر: فقمت بجانب أبي جندل وأبوه يقوده معه، قال: والله إني سللت سيفي، وقربت سيفي من أبي جندل حتى يأخذه ويضرب رأس أبيه أو يطعنه، فعرف مقصود عمر لكنه أدركه حنان والده، فلم يرد أن يقتله، وكان في ذلك خير والحمد لله، فقد أسلم سهيل بن عمرو وكان هو وابنه من الشهداء في سبيل الله[1].

أخذ سهيل ابنه، وكان مقيدًا معه، فلما اقترب من مكة تمكن أبو جندل من فك القيد رضي الله عنه، وهرب حتى أصبح في مر الظهران على ساحل البحر الأحمر، ووجد كتيبة من الناس الذين فروا ولم يقبلهم المسلمون لأجل الصلح فشكلوا كتيبة للرصد، كلما أتت قافلة من قريش رصدوا لها؛ حتى أرسلت قريش إلى الرسول ﷺ وقالوا: نسألك بالله أن تأخذ هذه الكتيبة وتضمها معك في جيشك، وكان فيهم أبو جندل وأبو بصير، وبعدما اصطلحوا وإذا بأبي بصير يأتي إلى النبي ﷺ، فأرسل كفار قريش رجلين في طلبه فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين، فخرجا حتى إذا بلغا ذا الحليفة، نزلوا يأكلون تمرًا لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا، فاستلَّه الرجل وقال: أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت. فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى بَرَدَ، وفرَّ الآخر، حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو.

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/٣٤٥): قوله: «قال أبو جندل: أي معشر المسلمين أرد إلى المشركين؟ إلخ» زاد ابن إسحاق، فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإنا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجًا ومخرجًا. وفي رواية أبي المليح: فأوصاه رسول الله ﷺ قال: فوثب عمر مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر، فإنما هم مشركون، وإنما دم أحدهم كدم كلب. قال: ويدني قائمة السيف منه، ويقول عمر: رجوت أن يأخذه مني فيضرب به أباه، فضن الرجل - أي بخل - بأبيه ونفذت القضية.

فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا» فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِل صاحبي، وإني لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله؛ قد أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. فقال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَر حرْبٍ لو كان له أحد»(١) فلمّا سمع أبو بصير ذلك؛ عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، ولحق به عدد من الصحابة الذين أسلموا.

وكان من الشروط أنه لا يدخل ﷺ البيت إلا من السنة المقبلة، فأتى رسول الله ﷺ إلى الإبل فنحر منها وحلق رأسه وحلق الصحابة وتحللوا؛ لأن الحاج أو المعتمر إذا صُد عن البيت لهجوم أو حرب أو مرض يتحلل(٢) من هديه، وبينما هو جالس ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإذا بثمانين من كفار قريش تعاهدوا وتواعدوا على أن يتركوا الرسول ﷺ في القيلولة فإذا قال ونام انسلوا عليه من الجبل وذبحوه، لترتكب أكبر مجزرة اغتيال في التاريخ، وإذا قتل محمد؛ تقتل العدالة، ويقتل الإيمان، ويقتل الإسلام، فتجهز الثمانون بسيوفهم، وأتوا من رأس الجبل، ولكن من خيبتهم ومن فشلهم قالوا: نقيل حتى يقيل محمد فعلقوا سلاحهم وسيوفهم بشجرة وناموا تحت الشجرة، قال سلمة بن الأكوع: فرأيتهم فذهبت فانسللت فأتيت إلى سيوفهم فاخترطتها سيفًا سيفًا ثم وضعتها وراء ظهري ثم أخذت السيوف وناديت ببعض أصحابي فأتوا بسيوفهم، فطوقت المكان وقلنا: والذي نفوسنا بيده إن قام أحدكم لنذهب الذي عينه في رأسه، اذهبوا أمامنا إلى الرسول ﷺ، فذهبوا وسيوفهم بأيدي الصحابة، وأجلسوهم أمام الرسول ﷺ

---

(١) قال الحافظ في الفتح (٥/٣٥٠): قوله: «مسعر حرب» بكسر الميم وسكون المهملة وفتح العين المهملة وبالنصب على التميز، وأصله: من مسعر حرب. أي يسعرها. قال الخطابي: كأنه يصفه بالإقدام في الحرب والتسعير لنارها. ووقع في رواية ابن إسحاق: «محش» بحاء مهملة وشين معجمة، وهو بمعنى مسعر، وهو العود الذي يحرك به النار.

(٢) أرشد رسول الله ﷺ ضباعة بنت الزبير حينما اشتكت من المرض وهي تريد الحج، فقال لها: «حجي واشترطي، وقولي: اللهم محلي حيث حبستني». أخرجه مسلم (رقم ١٢٠٧).

قال لهم ﷺ: ما جاء بكم؟ قالوا: أتينا ننظر، قال: بل أتيتم لقتالنا، ثم عفا عنهم ﷺ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]، إنه سيد الخلق ﷺ، وهو أرحم الناس وأحلمهم، وهو أسمحهم وأبرهم وأوصلهم. وفيما هو ﷺ في الحديبية وإذا بالناس يقولون: يا رسول الله الطعام قد نفد وأصبح قليلاً. قال: اجمعوا لي الطعام فأتوا ببساط كبير وبسطوه، وأتى هذا بجفنة من بر ووضعها، وهذا بجفنة من تمر ووضعها، فلما وضعوه أمامه قال ﷺ: بسم الله ثم نفث فيه بريقه المبارك الطيب الطاهر. قال: احملوا فأخذوا يحملون في أوعيتهم حتى امتلأت جميعًا. قال: والماء يا رسول الله؟ قال: عليَّ بجفنة رحراح أي: كبيرة، وأْتوني بالقرب واسقوا وخذوا، فأتوا بدواة صغيرة فأخذ أصابعه أمام الدواة يصب الماء ويقول: بسم الله أنا رسول الله. قال أنس بن مالك: والذي نفسي بيده لقد ثارت كالأنهار من بين أصابعه ﷺ، وأخذ الماء يصعد من فوق رأسه ﷺ، فهذا يعبئ قربته، وهذا يعبئ صحنه، وهذا يعبئ آنيته، وهذا يسقي جمله، وهذا يغتسل، وهذا يتوضأ حتى ارتوى الناس من الماء، وهذه من معجزاته ﷺ.

وعاد ﷺ يستأنف فتح مكة من العام المقبل، وهذا هو الشرط الذي ينص على أن يأتي بعد عام، فرجع ﷺ وركب ناقته، ولما نزل متجهًا إلى المدينة واتجه معه الصحابة قال عمر: يا رسول الله أما كنت قلت لنا: إنك سوف تطوف بالبيت؟ قال له ﷺ: أقلت لك من عامك هذا؟ قال: لا، قال: أما إنك مطوف به[1]، يقول ﷻ واعدًا المؤمنين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ

---

(١) قال الحافظ في الفتح: (٣٤٦/٥): قوله: «فقلت: ألست نبي الله حقًّا؟ قال: بلى» زاد الواقدي من حديث أبي سعيد. قال عمر: لقد دخلني أمر عظيم، وراجعت النبي ﷺ مراجعة ما راجعته مثلها قط. وفي حديث سهيل بن حنيف الآتي في الجزية وسورة الفتح. فقال: عمر: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ فعلام نُعْطَى الدنية ـ بفتح المهملة وكسر النون وتشديد التحتانية ـ في ديننا. ونرجع ولم يحكم الله بيننا؟ فقال: يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله. فرجع متغيظًا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر. وأخرجه البزار من حديث عمر نفسه مختصرًا =

﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧] فتم موعود الله بعد سنة، لكن لما عاد ﷺ إلى المدينة أنزل الله عليه سورة من القرآن، وبينما هو يمشي ﷺ على ناقته أرخت الناقة ذراعها الأيمن ثم ذراعها الأيسر ثم مدت رأسها في الأرض، فكان الصحابة يعرفون أن الوحي قد نزل على محمد ﷺ من هذه العلامات، يقول زيد بن ثابت: كانت فخذ الرسول ﷺ على فخذي فنزل عليه الوحي، والله إنها كادت ترض فخذي، وكان إذا نزل عليه الوحي ﷺ تغشاه العرق حتى في اليوم شديد البرودة، وكان أحيانًا يغط كما يغط البكر، يشتد خناقه أي يصبح له زفير ﷺ من شدة ما أتاه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⁅٥⁆﴾ [المزمل: ٥]، وبينما هو في الوادي ﷺ، وإذا بالناقة تريد أن تأخذ مكانًا، فعرف الصحابة أنه جاء شيء فألقت نفسها، فنزل ﷺ، وألقى نفسه ثم قام يقرأ ثم ركب الناقة، فنزل قول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ⁅١⁆﴾ [الفتح: ١] يقول: سوف نفتح لك مكة، ونفتح لك القلوب والأسماع والأبصار والعالم، ولم يقل فتح مكة فقط؛ ليبقى الفتح مطلقًا عامًّا لا خصوص فيه، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾، فتحنا لك القلوب؛ فملأتها إيمانًا وحكمة وطمأنينة، وفتحنا لك البصائر فملأتها معرفةً ويقينًا وعلمًا، وفتحنا لك الأسماع فملأتها موعظة وصلاحًا ورشدًا، وفتحنا لك المعاقل والحصون والمدن حتى طوق دينك العالم، فلماذا؟ قال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ⁅٢⁆ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ⁅٣⁆﴾ [الفتح: ٢، ٣]، قال عبدالله بن سرجس لمَّا سمع هذه الآيات: يا رسول الله هنيئًا لك، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فاستغفر لنا. فاستغفر ﷺ لأمته إلى قيام الساعة، فهو الرحمة المهداة والنعمة المسداة.

= ولفظه، فقال عمر: اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني أرد أمر رسول الله ﷺ برأي وما ألوت عن الحق». وفيه قال: فرضي رسول الله ﷺ، وأبيت، حتى قال لي: يا عمر تراني رضيت وتأبى!!

الدروس والعبر من قصة الحديبية:

- تحلل المحرم إذا حُبس، وهذا حكم شرعي فمن حج أو اعتمر فالسنة في حقه، والأحسن أن يقول: لبيك عمرةً أو لبيك حجًا، فإن حبسني حابس فمحلي حيث حبستني، فإن منع من البيت لسبب أو لمرض أو ظرف؛ فليتحلل كما تحلل رسول الهدى ﷺ وليس عليه شيء.

- إذنه لكعب بن عجرة بحلق رأسه فإنه في الحديبية قد آذاه رأسه فأتى القمل في رأسه، وشكا إلى الرسول ﷺ[1]، وقال: أنا إن حلقت رأسي فعلي فدية، ولا يجوز أن أحلق رأسي، فماذا أفعل؟ قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد نزول الوحي عليه بقوله تعالى: ﴿أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] قال: تصدق، وأخبره أن الصدقة إطعام ستة مساكين أو شاة، أو يصوم ثلاثة أيام، فهو بالخيار في ذلك، وهذه كفارة له ولمن فعل فعله رضي الله عنه، وهذه من الحكمة في ذاك الوقت.

- جواز مصالحة الكفار، فيجوز للمسلمين مصالحة الكفار إن كان في الصلح إبقاء المسلمين أو في صالحهم، أولم يكن المسلمون على استعداد لقتالهم أو حربهم أو منازلتهم، فلا بأس بالصلح، كما صالح ﷺ اليهود في فترة من الفترات، وصالح ﷺ المشركين بشرط ألا يكون في هذا الصلح إذلال للمسلمين، ولا ترك شيء من الدين، ولا الاستهانة بشيء من أمور الإسلام، وليس فيه تهوين أمر المسلمين، وهذا أمر فعله ﷺ، فقد صالح مرة، وحارب مرة، وسالم مرة، وتقدم مرة، وتأخر مرة.

- التفاؤل بالأسماء، فالأسماء الحسنى الطيبة يُتفاءل بها؛ كسهيل بن عمرو، فرسول الله ﷺ لما سمع اسمه قال: هذا سهيل بن عمرو

---

(١) فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لعلك أذاك هوامك» قال: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو انسك شاة». أخرجه البخاري (رقم ١٨١٤)، ومسلم (رقم ١٢٠١).

سهل لكم من أمركم، فاسم سهيل، ويسير، وفلاح، وصالح يُتَفَاءَل بها، ونحو ذلك؛ فالواجب على المسلم أن يختار لأبنائه أسماء راشدة، أسماء شرعية طيبة مثل: عبدالله، وعبدالرحمن[1]، ومحمد أو نحو ذلك من الأسماء التي فيها تعبيد لله، وفيها خير حتى يدعى باسمه في الدنيا ويدعى به في الآخرة، فعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم، كأنا في دار عقبة بن رافع، فأتينا برطب من رطب ابن طابٍ، فأوَّلت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»[2]، فالمعبر ينبغي له أن يكون ذكيًّا حكيمًا، ولا يتلاعب بمشاعر الناس ويستغل أحلامهم، فيسلم الشمس والقمر في أيديهم بحجة أنه معبر العصر، فلا يجوز الانهماك في هذا بلا ضابط ولا وازع، ولا بد أن يكون المعبر على تقوى وعلم، ويكون عنده موهبة إلهية مثل الإلهام، كما يقول ابن سيرين.

- كفر من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا؛ لأن رسول الله ﷺ في الحديبية صلى بهم، ونزل الغيث في الليل، فلما صلى الصبح التفت إليهم وقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟»، أي تعلمون ماذا حدث بالأمس؟ قالوا: لا ندري يا رسول الله، قال: «قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكواكب، وأصبح من عبادي كافر بي مؤمن بالكواكب، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكواكب»[3]، ومعنى الحديث: أن من الناس من يعلق توجهه وتوكله وعبوديته وتألهه للواحد الأحد، فلا ينفع ولا يضر ولا ينزل الغيث ولا يشفي ولا يعافي إلا الله، ومن الناس من يعلق الأحداث للنجوم والكواكب والمؤثرين في العالم، فيقول: ولدت امرأته على

---

(١) عن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «أحب الأسماء إلى الله: عبدالله وعبدالرحمن والحارث»، صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (رقم ٩٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٧٠).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٨٤٦)، ومسلم (رقم ٧١).

نجم كذا، وجاءه ولد على الكوكب الفلاني، وفي الكوكب الفلاني نجح هو، وهكذا يجرون وراء هذه الترهات، وليعلم المسلم أن النجوم لثلاثة أشياء فمن زاد فقد قال على الله بغير علم:

١ ـ زينة للسماء.

٢ ـ رجوم للشياطين.

٣ ـ أدلة يهتدي بها المسافرون في البر والبحر.

وأمر الكهانة خطر، وقد كثر في الناس الآن إلا من رحم ربك، يقول ﷺ محذرًا منهم: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد»[(١)]، وقال ﷺ: «من أتى عرافًا أو كاهنًا لم تقبل منه صلاة أربعين يومًا»[(٢)].

- التبرك بآثار الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وليس هذا إلا للرسول ﷺ فقط، وليس لأحد من الناس أن يتبرك بآثار أحد أو ثيابه، فمحمد ﷺ هو المبارك فقط شعره وأظفاره وريقه ولعابه وثيابه... فالصواب عدم تقديس الناس أو التعلق بهم.

- من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها متى ذكرها؛ لأن الرسول ﷺ وهو في طريقه إلى الحديبية نام في وادي العقيق وقد قال: «من يوقظنا هذه الليلة لصلاة الفجر»؛ قال بلال: أنا يا رسول الله. فلأمر أراده الله، بقي رضي الله عنه واقفًا فمرة يوتر، ومرة يصلي، ومرة يقوم، فلما قرب الفجر؛ جلس رضي الله عنه وغلبه النوم، ودخل الفجر وخرج، وطلعت الشمس وأيقظت حرارتها بعض الصحابة فأتى عمر إلى رسول الله ﷺ وإذا هو نائم، قال: فاستحييت من رسول الله ﷺ، فقلت: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر[(٣)]،

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٣٩٠٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٢٢٣٠)، وأحمد (٤/٦٨) (٥/٣٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٩٤٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٢).

قال: فلما سمع تكبيري قام ﷺ وهو الرحمة المهداة، وقد ضاقت الدنيا بالصحابة فقال: لا عليكم، نصلي ونرتحل، بتنا في وادٍ فيه شيطان، أين بلال؟ قال: أنا يا رسول الله، قال: ما أيقظتنا؟ قلت: يا رسول الله أخذ بعيني الذي أخذ بعينك. فعذره ﷺ، وقال في ذلك: «من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها متى ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك»[1]. ومعنى الكلام أن الإنسان إذا غلبه النوم مرة من المرات، يعني فرط أو سهر ثم نام؛ فإنه يعذر ويؤذن له، فليصلِّ متى قام، أما من اعتاد على التهاون في الصلاة وصار هذا ديدنه، فهذا ممن يترك الصلاة متعمدًا، ولا يقبل منه أن يحتج بهذا الحديث.

هذه بعض اللمحات والفوائد من صلح الحديبية[2].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٦٨٠).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٢٨٦ ـ ٣١٦)، والسيرة النبوية (٣/٤٢٦ ـ ٤٥٤)، والفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ١٥٩ ـ ١٦٤).

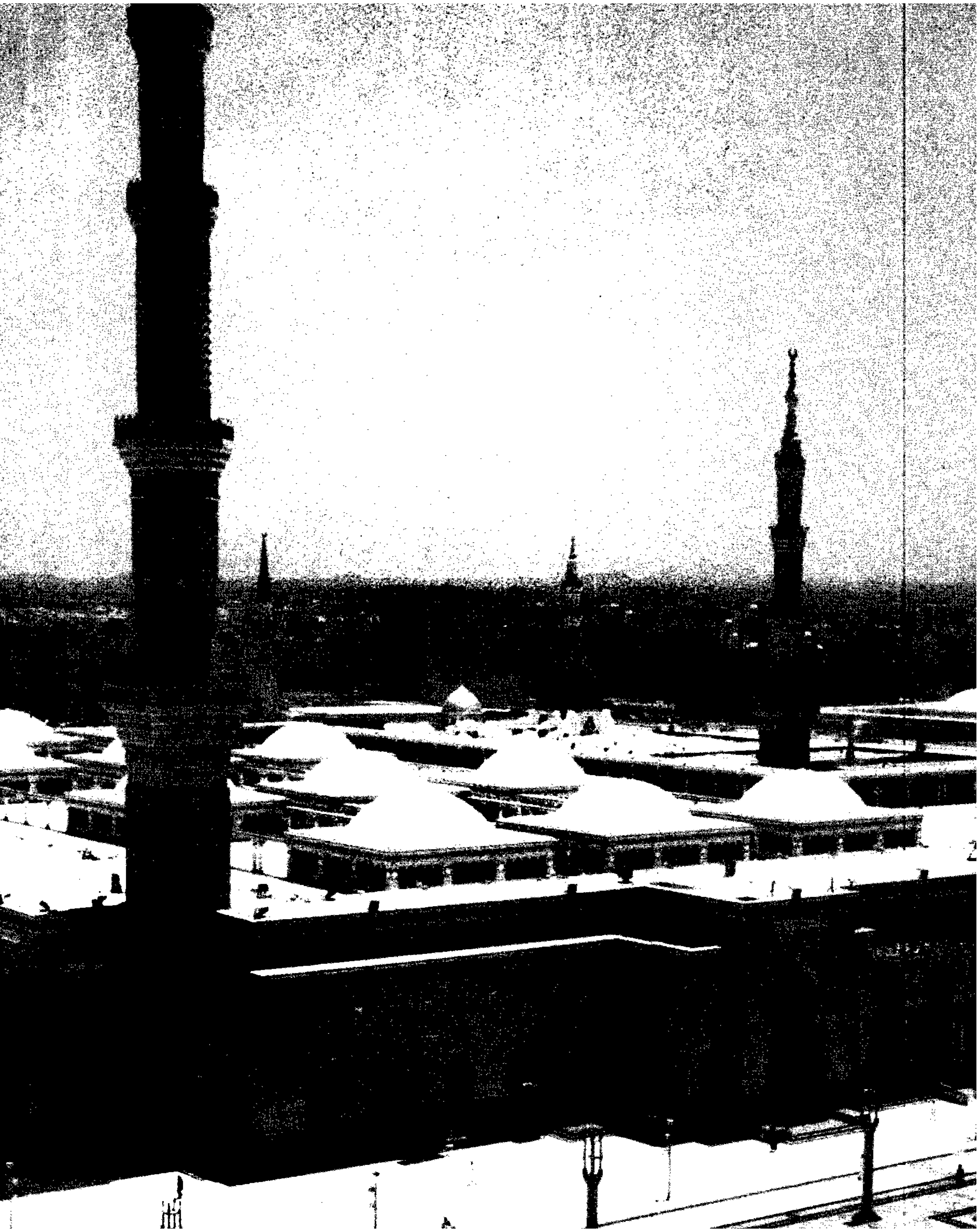

مُؤْتَة

كانت غزوة مؤتة في السنة الثامنة من الهجرة، وغزوة مؤتة تختلف عن غيرها من الغزوات؛ لأنها أول مواجهة بين المسلمين ودولة الروم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مؤتة بأدنى البلقاء من أرض الشام، وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان، وكان سببها أن رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي أحد بني لهْب بكتابه إلى الشام إلى ملك الروم، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني فأوثقه رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يُقتل لرسول الله ﷺ غيره، فاشتد ذلك عليه حين بلغه الخبر، فبعث البعوث واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال: «إن أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة»[1].

أعلن ﷺ النفير العام، والحرب على الروم ما داموا أنهم قتلوا رسوله، ومزقوا كتابه، فجمع ﷺ ثلاثة آلاف، فاجتمعوا:

عُبّادُ ليلٍ إذا جن الظلام بهم	كم عابدٍ دمعه في الخد أجراه
وأُسد غابٍ إذا نادى الجهاد بهم	هبوا إلى الموتِ يستجدون رؤياه
يا رب فابعث لنا من مثلهم نفرًا	يشيِّدون لنا مجدًا أضعناه

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف، وخرج ﷺ معهم يودعهم إلى بعض الطريق، فساروا حتى إذا كانوا بمعان

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦١)، وانظر: زاد المعاد (٣/٣٨١).

بلغهم أن هرقل ملك الروم قد خرج إليهم في مائة ألف، ومعه مالك بن زافلة في مائة ألف أخرى من نصارى العرب»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فتجهز الناس وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم، فبكى عبدالله بن رواحة، فقالوا: ما يبكيك؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١﴾ [مريم: ٧١]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود؟ فقال المسلمون: صحبكم الله بالسلامة، ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبدالله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة   وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرّان مجهزة   بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي   أرشده الله من غازٍ وقد رشدا»[2]

ثلاثة آلاف مقاتل من صحابة رسول الله ﷺ، كل واحد منهم مصحف يمشي على الأرض، ثلاثة آلاف رباهم ﷺ على الطهر، وقراءة القرآن، ومكارم الأخلاق، ومراقبة الواحد الأحد، والصدق والوفاء. وعين أولهم ﷺ وقال: "قائدكم زيد بن حارثة"، وزيد بن حارثة مولى من الموالي لرسول الله ﷺ فما أروع هذا الدين، وما أعظمه، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] لا أبيض ولا أحمر ولا أسود، كان زيد بن حارثة مولى بيع من قبائل بني معن في مكة، فشراه حكيم بن حزام تاجر من مكة، فاشتراه رسول الله ﷺ منه، فرباه ﷺ على الحنان، والطهر، والإيمان، وتعلَّق به الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فسماه ﷺ من شدة حبه له زيد بن محمد، وكان أبواه يبكيان عليه في مناطق نجد فقد ضاع منهما، ثم أرسل أبوه أناسًا من قبيلته، ليبحثوا عنه، فبحثوا في سوق عكاظ

---

(١) الفصول (ص ١٧٠).

(٢) زاد المعاد (٣/٣٨١، ٣٨٢)، والسيرة النبوية (٤/٢٤ ـ ٢٥)، ومجمع الزوائد (٦/١٦٠). وفي الزاد: يا أرشد الله، والمثبت من السيرة: أرشده الله.

وذي المجنة، وجاءهم الخبر أنه في مكة، فرجعوا إليه وقالوا له: أبشر فإن ابنك في مكة عند رجل من العرب اسمه محمد بن عبدالله، وهو لا يدري أن محمد بن عبدالله هو النبأ العظيم، وهو الذي وصل إلى سدرة المنتهى، وهو صاحب الشفاعة، وصاحب الحوض المورود، وهو الذي يقال له يوم القيامة: ارفع رأسك وسل تُعْطَ واشفع تُشفَّع[1]. فذهب حارثة إلى مكة وسأل عن محمد بن عبد الله ﷺ؟ قالوا: هذا بيته، وأشاروا إلى سقيفة فيها غرفة واحدة من حجارة وخشب!! وإذا رسول الله ﷺ على حصير من نخل ومتكئ على آجرة من طين، فطلب حارثة من رسول الله ﷺ أن يسلمه ابنه (زيدًا)، فرحب به ﷺ وقال له: خيِّره بيني وبينك، فإن اختارك فهو معك، وإن اختارني فهو معي، قال حكمت بالنَّصَف، يا زيد أنا أبوك، ومحمد هذا ليس بأبيك، فاذهب معي، قال: والله لا أختارك على أبي محمد أبدًا[2]!.. فلماذا اختار زيد محمدًا، مع علمه أنه ليس أباه؟ لأنه وجد فيه من الحب ومن الحنان ومن العطف ما لم يجده مع غيره ﷺ، يقول شوقي في مدح الرسول ﷺ:

وإذا صحبتَ رأى الوفاءَ معطرًا ... في برك الأصحابُ والأخلاء
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمة ووفاءُ

هكذا اختار الرسولَ ﷺ، ثم خرج ﷺ على الناس بعد ما اختاره ليكرمه، فقال: «هذا زيد بن محمد يرثني وأرثه»، فأنزل الله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وأنزل: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥][3]؛ أي أنت يا محمد لست أبًا لأحد من الناس، أنت أب روحاني كما قال ابن تيمية، نعم، إنه أبونا الرباني

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٥١٠)، ومسلم (رقم ١٩٣).

(٢) انظر: السيرة النبوية (٣١٦/١)، وعند الترمذي (رقم ٣٨١٥) أن الذي قدم على رسول الله ﷺ جبلة بن حارثة أخو زيد.

(٣) عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أن زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلاّ زيد ابن محمد، حتى نزل القرآن ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أخرجه البخاري (رقم ٤٧٨٢)، ومسلم (رقم ٢٤٢٥).

الروحاني، نحن أبناؤه جميعًا في الله، نحن أبناؤه في المعتقد، وفي لا إله إلا الله.

أتسـأل عن أعمـارنا أنت عمـرنا وأنت لنـا التـاريخ أنت المحـرِّرُ

وبعد نزول هذه الآيات دعاه ﷺ لأبيه، وأعلن اسمه على الناس.

قدم ﷺ زيد بن حارثة قائدًا لجيش مؤتة فقال: «قائدكم زيد بن حارثة، فإن قُتل فجعفر بن أبي طالب، فإن قتل فعبدالله بن رواحة»[1].

وأما جعفر بن أبي طالب؛ فهو ابن عم رسول الله ﷺ، وقد أسلم فأوذي في ذات الله أذًى ليس بعده أذًى، وكان رضي الله عنه كريمًا، يقول بعض الصحابة: والله ما شبعنا إلا وجعفر حي، فلما مات أدركنا الجوع، وكان يكدح طيلة النهار، ثم يأتي فيبسط البساط، ويطعم المساكين، وقال أبو هريرة: دخلنا المدينة وكنا ندخل إلى عُكك العسل - القِرَب - في بيت جعفر بن أبي طالب فنشقها ونأكل منها عسلاً وسمنًا، فسماه ﷺ أبا المساكين.

وذهب رضي الله عنه مع من ذهب إلى النجاشي في الحبشة، فوشت قريش إلى النجاشي وقالوا: هؤلاء خالفوا ديننا وحاربونا وآذونا، فاستدعاهم النجاشي وكان ملكًا نصرانيًا عادلاً، قال: خالفتم قومكم، وفعلتم، فقال جعفر بن أبي طالب وكان فصيحًا مليحًا متكلمًا خطيبًا: أيها الملك ما جئنا إليك إلا أنا سمعنا أنه لا يُضام بأرضك أحد، وأنك عادل، نحن معشر العرب كنا نشرك بالله، ونرتكب الكبائر والفواحش، ونقطع الرحم، ونعق الوالدين، ونزني، ونشرب الخمر، ونكذب، حتى بعث الله منا رجلاً نعرف نسبه وحسبه، وصدقه وأمانته، ودعانا إلى الله، وأمرنا ببر الوالدين، وصلة الرحم، والصدق، والوفاء فاتبعناه، قال النجاشي: ما أحسن ما جاء به صاحبكم وأنا على ما قال به صاحبكم، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

---

(١) انظر: السيرة النبوية (٤/٢٤، ٣٢).

قال كفار قريش: لكن صاحبهم يقول في عيسى ابن مريم غير ما تقولون، يقولون: إن عيسى ابن مريم عبد، وأنتم تقولون: إنه إله أو ابن إله، قال النجاشي: اجمعوا القساوسة، فجمعوهم، وقالوا لجعفر: ماذا تقولون؟ قال جعفر: اسمع أيها الملك، فاندفع يقرأ عليه سورة (مريم) بصوته العذب، فانهدَّ النجاشي يبكي هو ومن معه من القساوسة، قال: ثم رفع شقصًا من الأرض قال: والله ما زدتم على ما جاء في الإنجيل على هذه، أو: ما جاء من عند الله في عيسى مثل هذه، أنتم في أماني وفي حفظي حتى يلقاني الموت[1]. ولما مات النجاشي سمع ﷺ بموته، قال: «قوموا صلوا على صاحبكم النجاشي مات اليوم»[2]، فصلوا عليه صلاة الجنازة ودعوا له بالمغفرة.

وأما عبدالله بن رواحة، فهو أنصاري من النقباء الاثني عشر رضي الله عنه وأرضاه، وكان مليحًا فصيحًا شاعرًا، وكان ﷺ يحب شعره، وهو الذي يقول للرسول ﷺ في قصيدة طويلة:

فثبت الله ما آتاك من حسنٍ   تثبيت موسى ونصرًا كالذي نُصِروا

فتبسم ﷺ وقال: وإياك فثبت.

خرج زيد بالجيش، ومعه جعفر الطيار صباح الجمعة، وتأخر عنهم عبدالله بن رواحة، ليصلي الجمعة مع الرسول ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ الجمعة؛ وجد ابن رواحة في الناس، قال: ما لك يا ابن رواحة ما خرجت مع الجيش؟، قال: يا رسول الله أردت أن أراك ليكون آخر عهد عيني بك مودعًا ـ أي على المنبر ـ قال ﷺ: «لغدوةٌ في سبيل الله أو روحة خيرٌ من الدنيا وما فيها»[3]، فودعه ثم التفت إلى النخل، والتفت إلى مسجد الرسول ﷺ، وإذا بقلبه كأنه يُؤخذ من بين جنبيه.

---

(١) انظر: الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ٦٤ ـ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٨٧٧ ـ ٣٨٨١)، ومسلم (رقم ٩٥١، ٩٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٢)، ومسلم (رقم ١٨٨٠).

خلف السلام على امرئٍ ودّعْتَهُ في النخل خير مشيع وخليلِ

إن أناسًا أحبوا محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ لمعذورون، وإن أناسًا ساروا على جمر الجوى من أجل مبدئه لمشكورون، وإن أناسًا أراقوا دماءهم في سبيل الله من أجل لا إله إلا الله لمحبوبون ومأجورون. غادر ابن رواحة هو يبكي على فراق الرسول ﷺ، لكنه يريد موعود الله، يريد جنة عرضها السموات والأرض، ثم أنشد مقطوعة سمِّها إن شئت مقطوعة الموت، أو التضحية، أو الفداء، قال:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حرانَ مجهزةً بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي أرشده الله من غازٍ وقد رشدا(1)

وصل جيش المسلمين وتعداده ثلاثة آلاف، وكان عدد الروم مائتي ألف بإجماع المؤرخين، لا نسبة ولا تناسب بين الجيشين وفق المقاييس المادية، ولكن هناك مقاييس أخرى يجب أن يحسب حسابها؛ يقول أبو بكر: إنكم لا تقاتلون الناس بعدد ولا عدة، إنما تقاتلونهم بـ «لا إله إلا الله»!:

كنا نرى الأصنام من ذهبٍ فنهدمها ونهدم فوقها الكفارا
لو كان غير المسلمين لحازها حليًا وصاغ الحُلي والدينارا
أرواحنا يا رب فوق أكفنا نرجو ثوابك مغنمًا وجوارا
كنا نقدم للسيوف رؤوسنا لم نخش يومًا غاشمًا جبارا

مائتا ألف! لم يكن المسلمون يتوقعون هذا العدد.. فقال زيد بن حارثة: ما رأيكم في أن نعود ونخبر الرسول ﷺ؟ فقال ابن رواحة: أيها الناس متى قاتلتم الناس بعدةٍ وعددٍ؟! أما أنا فقد خرجت وبعت نفسي

---

(1) انظر: زاد المعاد (٣/٣٨١، ٣٨٢)، والسيرة النبوية (٤/٢٤ ـ ٢٥)، ومجمع الزوائد (٦/١٦٠)، وفي الزاد: يا أرشد الله، والمثبت من السيرة: أرشده الله.

من الله، والله ما أعود ولو بقيت وحدي، حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولاً، فلا تعودوا بنا، قالوا: الرأي ما قاله ابن رواحة، فثبتوا فقام زيد بن حارثة فلبس الأكفان بعدما اغتسل، وودع الدنيا إلى الجنة، لا يريد الدنيا، لماذا يعود إلى القصور، والدور، والبساتين الفيحاء، والمزارع الغنَّاء، بل إلى جنات النعيم؛ إلى جنة لا نصب فيها ولا صخب ولا وصب ولا هم ولا غم، ثم تقدم لقيادة المعركة، وأخذ يقاتل قتالاً شديدًا من الصباح إلى الظهر، يضرب بسيفه يمينًا ويسارًا، واجتمع الروم على زيد فوجهوا إليه سيوفهم ورماحهم، وقتلوه، يقول ابن عمر: وجدنا في زيد بن حارثة يوم مؤتة بضعًا وتسعين ما بين رميةٍ وضربةٍ وطعنةٍ، وسقط اللواء، فأخذه جعفر رضي الله عنه، فتقدم وأخذ الراية بيساره والسيف بيمينه، وقال: احموا ظهري، ثم قاتل حتى قطعت يده اليمنى، فأخذ الراية باليسرى، ثم قطعت يده اليسرى فاحتضن الراية بعضديه بعدما قطعت يداه، وكانت يداه تتصببان بالدم، وكان عضداه مقطوعين وكان يحمل الراية ويتقدم بصدره، يحمل راية الرسول ﷺ، حتى لا تسقط على الأرض، ويستمر متقدمًا وهو ينشد:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبةً وباردًا شرابها
والروم رومٌ قد دنا عذابها ... كافرةٌ بعيدةٌ أنسابها
عليّ إن لاقيتها ضرابها[1]

عن نافع أن ابن عمر أخبره: أنه وقف على جعفر يومئذ، وهو قتيل، قال: فعددت به خمسين، بين طعنة وضربة، وليس منها شيء في دبره، يعني في ظهره[2].

قال عبدالله بن عمر: كنت فيهم في تلك الغزوة، فالتمسنا جعفر بن أبي طالب، فوجدناه في القتلى، ووجدنا ما في جسده بضعًا وتسعين، من طعنة ورمية[3].

---

(١) انظر السيرة النبوية (٤/٣٠)، ونقل محققا السيرة تصحيح الشيخ أحمد شاكر رحمه الله.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦١).

وبعد سقوط جعفر ﷺ، نادى الناس عبدالله بن رواحة، وكان في طرف الجيش، وكان صائمًا ﷺ، إذْ كان يصوم في الحضر والسفر.

عن أبي الدرداء ﷺ قال: خرجنا مع النبي ﷺ في بعض أسفاره في يوم حار، حتى يضع الرجل يده على رأسه من شدة الحر، وما فينا صائم إلاّ ما كان من النبي ﷺ وابن رواحة(١). ولكن لما رأى شدة المعركة، فخشي مع الجوع أن تسقط الراية منه، فقال: ناولوني شيئًا، يريد شيئًا يسد رمقه، فناولوه عرقًا من القدر ـ يعني قطعة لحم على عظم ـ فأخذ منها لقمة يلوكها، فلاكها فما استطاع أن يبلعها، ثم رمى بها، وقال:

أقسمت يا نفس لتنزلنَّهْ		لتنزلنَّ أو لتُكرهِنَّهْ
إن أجلب الناس وشدوا الرنَّهْ		ما لي أراك تكرهين الجنَّهْ
قد طال ما قد كنت مطمئنَّهْ		هل أنت إلا نطفةٌ في شنَّهْ(٢)

كأنه يقول: والله الذي لا إله إلا هو ستنزلين يا نفس الآن، وتقاتلين أعداء الله ورسوله ﷺ، وستدافعين عن دين الله الحق، ورسالة الإسلام الخالدة، وكأنه يعاتب نفسه فيقول: أنت لا تستحقين البقاء، أنا بعت نفسي بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وهكذا تقدم ﷺ، فقاتل حتى قُتل، وصدى صوته يتردد في الآفاق:

يا نفس إن لا تقتلي تموتي		هذا حمام الموت قد صليتِ
وما تمنيت فقد أعطيت		إن تفعلي فعلهما هديتِ(٣)

وجمع الرسول ﷺ الصحابة، وكان ﷺ يشاهد المعركة وكأنها أمامه، والواقع أنها في معان بالأردن، لكن الله كشف له عالم الغيب، وقرب له الأرض حتى أصبحت المعركة أمامه تمامًا، والصحابة، والنساء خلف المسجد، والأطفال يسمعون منه وصف المعركة لحظة بلحظة، وحركة

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٩٤٥)، ومسلم (١١٢٢).
(٢) انظر: السيرة النبوية (٣١/٤) ومجمع الزوائد (١٦٢/٦).
(٣) انظر: السيرة النبوية (٣١/٤ ـ ٣٢)، ومجمع الزوائد (١٦٢/٦).

بحركة، وهو يتكلم لهم، يغلبه البكاء مرةً، فيبكون معه، ويبشر وينذر، وهو يشاهدهم رأي العين، ويقول: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذ جعفر فأصيب، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب، حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم»[1].

وهكذا قُتل الثلاثة ودارت الدائرة واجتمع الصحابة؛ فتشاوروا، وقرروا أن يولوا خالد بن الوليد ﷺ، قال ﷺ: وقُتل الثلاثة، ورأيت أسرَّتهم أسرَّةً من ذهب، دخلوا الجنة الآن، وأخذ الراية خالد بن الوليد ـ من غير أمره ـ وهو سيف سلّه الله على المشركين فسماه من ذلك اليوم سيف الله المسلول[2].

وخالد بن الوليد ﷺ قائد لم يُهزم في الجاهلية ولا في الإسلام، حضر في الإسلام ما بين مائة معركة وغزوة وسرية، ولم يكن معركة منها إلا ضُرب في جسمه أو طُعن أو رُمي ﷺ، وفي غزوة مؤتة قال لأصحابه: أعطوني السيف فأعطوه، ثم قال: احموا ظهري، وكان قويًّا وطويل الجسم ﷺ فقاتل قتال الأبطال، قال ابن كثير والذهبي وأهل التاريخ: «فانكسر السيف الأول، ثم ناوله الثاني فتكسّر في يده تسعة أسياف»[3].

ثم جمع ﷺ المسلمين، وقال: علينا أن نعود أدراجنا، ولكنه قال: لا ننسحب جهرة، حتى لا يلحق بنا الروم إن علموا بذلك، فأمسوا تلك الليلة وجعلوا المقدمة في المؤخرة، والميمنة في الميسرة، وأرسل مائة فارس من الصحابة، وقال لهم ادخلوا عشرة.. عشرة ونحن نكبر بقدومكم كأنكم مدد من المدينة، فخرجوا وراء الجبال، وفي الصباح غيّر الميسرة الميمنة والمؤخرة المقدمة، وأقبل عشرة خيالة بالسيوف ثم قال الصحابة: الله

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٢).
(٣) عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت خالد بن الوليد يقول: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلاّ صفيحة يمانية. أخرجه البخاري (رقم ٤٢٦٥).

أكبر . .الله أكبر، فلما وصلوا ثار الغبار وأنشدوا ثم أتى العشرة الآخرون، فكبر الناس ثم أتى عشرة، فقال الروم جاءهم المدد من المدينة، ثلاثة آلاف وقد احترنا فيهم وذبحونا، فكيف بالمدد الذي أقبل؟! فانهزموا، وانسحب خالد ﷺ أدراجه، وهو سيف من سيوف الله سلّه الله على المشركين.

مات ﷺ وهو في حمص.

وما مات حتى مات مضرب سيفه	من الضرب واعتلّت عليه القنا السمرُ
فأثبت في مستنقع الهول رجله	وقال لها من دون أخمصك الحشرُ
تردّى ثياب الموت حمرًا فما أتى	لها الليل إلا وهْي من سُندس خضرُ
ثوى طاهر الأردان لم تبق بقعة	غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ
عليك سلام الله وقفًا فإنني	رأيت الكريم الحر ليس له عمرُ

يقول خالد وهو على فراش موته: حضرت مائة معركة والله ما من موضع في جسمي إلا وفيه رمية بسهم، أو طعنة برمح، أو ضربة بسيف وها أنا ذا أموت كما يموت البعير على فراشه، فلا نامت أعين الجبناء.

فلما مات خالد بكى الناس والمسلمون، وشيّعوه بالدموع وهو على أكتاف الرجال، تقول أخته فاطمة ـ وهذه الأبيات للأعشى قالها في الأسود بن المنذر اليمني ـ:

أنت خير من ألف ألف من القومِ	إذا ما التقت صدور العوالي
ومهين للنفس العزيزة للذكر	إذا ما أتى بخبر المثالِ

ولما ارتد مسيلمة الكذاب في اليمامة قام أبو بكر على المنبر يخطب، قال: والله لأذهبن وساوس بني حنيفة، بخالد بن الوليد، وانتصر المسلمون بإذن الواحد الأحد، وأذهب الله وساوس بني حنيفة بخالد بن الوليد.

رجع جيش مؤتة، وخرج ﷺ لاستقبالهم، وخرج معه بعض الصحابة فقالوا: رجعتم أنتم الفرّارون، قال ﷺ: «بل العكارون أو الكرّارون بإذن الله

الذي يكرون مرةً ثانية»[1]، فحيَّاهم ﷺ واستقبلهم ورحب بهم وأنزلهم منزل الرضوان والبركة.

دروس من معركة مُؤْتة:

◆ فهذه مدرسة رسول الله ﷺ، فالاستعدادات والمواهب لا تُقيد، فمن كان عنده موهبة في الشجاعة؛ فليستغلها في نصرة هذا الدين، أو موهبة في الخطابة فليوظفها في الذب عن محارم الله ﷻ وبيان قداسة الدين، ومن عنده شعر؛ فلينظمه فيما يقربه من الله وينفعه في الآخرة ويستغله ويستخدمه في مرضاة رب العالمين وفي نصرة لا إله إلا الله محمد رسول الله.

◆ تفاهة الحياة الدنيا عند صحابة رسول الله ﷺ، وحبهم لله عز وجل ورسوله ﷺ، وتضحيتهم لنصرة الإسلام، وأعظم ما يُضحِّي من أجله الله، وأحب من يُحب الله، وأحكم من يعدل الله، وأفضل من يبرم الله، وأغنى من يطلب الله، قال الفخر الرازي: «أنا وُلِدت على الله، وعشت على الله، ومت على الله، ودخلت القبر على الله، وأخرج في العرصات على الله، فإذا لقيت الله، قلت: الله» ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

◆ فالواجب توجيه النصر والحب والولاء له ﷻ.

◆ ما أرخص الحياة، إذا لم تكن في طاعة الله ﷻ، لقد كانت رخيصة تافهة عند السلف رضوان الله عليهم، الصحابة يخرجون من بين الحدائق والدور والنخيل، ثم يذهبون جائعين يربطون الحجارة على بطونهم في مرضاة الله، وتتكسر السيوف على رؤوسهم نصرةً لله ولرسول الله ﷺ، فماذا قدمنا نحن لهذا الدين؟ ونحن أكثر أموالاً وأولادًا وأكثر عيشة وأكثر رغدًا، وأكثر متعًا في الحياة وتلذذًا بمباهجها.

---

(١) فعن ابن عمر قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سرية فحاص الناس حيصة، فقدمنا المدينة فاختبينا بها وقلنا: هلكنا. ثم أتينا رسول الله ﷺ فقلنا: يا رسول الله نحن الفرَّارون. قال: «بل أنتم العكارون، وأنا فئتكم»، أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن.

أعطي ﷺ المعجزة، وله ﷺ أكثر من ألف معجزة، وأعظم معجزاته - عليه الصلاة والسلام - هذا الكتاب الخالد القرآن الكريم الذي بين أيدينا ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨] فكتاب الله الذي بين أيدينا هو معجزته ﷺ الخالدة الرائدة، لكن متى يكون في حقنا ومتى نُكرم بهذا القرآن؟ إذا تلوناه حق تلاوته، إذا تدبرناه وإذا عشنا معالمه.

فتح مكة

الذي فتح مكة هو الذي فتح القلوب والأسماع والأبصار بـ«لا إله إلا الله محمد رسول الله»، هو رسول الهدى ﷺ، سيعود الحبيب ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى مكة، ولكنه لن يعود كما خرج، لقد خرج مهاجرًا شريدًا وحيدًا مسكينًا، وسوف يعود اليوم حاكمًا قائدًا منتصرًا، ومعه جيش عرمرم، بعدما أسس دولة ما سمع الناس بمثلها، وهو الذي خرج قبل عشر سنوات من بلده، وهو يبكي عند حمراء الأسد ويلتفت إلى مكة، ودموعه تسيل على خديه، ويقول: «يا مكة والله إنك من أحب بلاد الله إليَّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»، اليوم يعود ـ عليه الصلاة والسلام ـ إليها، لكنه يعود فاتحًا منتصرًا بعد أن أيَّده الله بنصره، ورفع له لا إله إلا الله.

كان فتح مكة في شهر رمضان المعظم، حيث جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «إن رسول الله ﷺ غزا غزوة الفتح في رمضان»[١].

عقد ﷺ صلحًا بينه وبين المشركين ـ كما مرَّ في الحديبية ـ، وكتب كتابًا على ألاَّ يعتدي أحد على الآخر، ولا يُسفك دمٌ مدة عشر سنوات، وأوفى بالعقد، وهذا واجب المسلم، فإن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوفى الناس، وفَّى بهذا؛ ومن وفَّى وفَّى الله له، ومن تقيّد بما شارط عليه، أنصفه الله ﷻ، فهو ﷺ من أوفى الناس في السلم والحرب، وقد

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٧٥).

أخذ على نفسه ألا يعتدي على أحد حتى ولو كان مشركًا، أو كتابيًّا: يهوديًّا أو نصرانيًّا، ما لم يخونوا، فالمؤمنون على شروطهم، ولا عدوان إلا على الظالمين، فمن ظلم فقد استحق العقوبة، وبهذا عليك أن تتقي الله فيما تقول وتفعل، فإن وعدت فلا تخلف، وإن شارطت فلا تخن، وإن جاورت فلا تُسيء، وهذا شأن المسلم، فلما طويت الصحيفة بقي ﷺ على العهد، لكنَّ كفار قريش خانوا العهد؛ ليجعل الله له عليهم سببًا، ويفتح مكة وينتصر ﷺ بإذن الله، ويرتفع الأذان بصوت بلال بن رباح رضي الله عنه.

علم ﷺ وهو في المدينة بأن قريشًا نقضت الصحيفة والعهد، فقد قامت قبيلة بني بكر من حلفاء قريش واعتدوا على خزاعة وهم حلف الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فذبحوهم وهم ركع وسجود في صلاة الليل، وكان الرسول ﷺ في المدينة يصلي بأصحابه صلاة العصر، فلما انتهى من الصلاة التفت إلى أصحابه ثم اتكأ، وكان ﷺ لا يعلم ما حدث ببني خزاعة، وأن قريشًا أخلفت الصلح، وأنه قُتل أصحابه في ليلة غادرة ماكرة، ثم بعد التسليم من الصلاة وإذا برجل من قبيلة خزاعة، من الذين نجوا من القتل اسمه عمرو بن سالم[1]، دخل المسجد بعدما عقل جمله في طرف المسجد، ورفع صوته مستجيرًا بالرسول ﷺ قائلاً:

يا رب إني ناشد محمدا … حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فانصر هداك الله نصرًا أعتدا … وادع عباد الله يأتوا مددا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا … إن قريشًا أخلفوك الموعدا
وقتلونا ركعًا وسجدا[2]

---

(١) قال ابن هشام في السيرة (٤/٥٣ ـ ٥٤): قال ابن إسحاق: قال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم». ثم عرض لرسول الله ﷺ عنان من السماء، فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب.

(٢) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٤/٥٢ ـ ٥٣). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/١٦٥): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، غير محمد بن عمرو وحديثه حسن.

وكان مما قال: أنا عمرو بن سالم من خزاعة قتلونا بماء الوثير، ونحن نصلي الليل ركعًا وسجدًا ذبحونا، انصرنا يا رسول الله نصرك الله، فتلألأ وجهه ﷺ، ثم قال: «نُصرت يا عمرو بن سالم»[(١)]، وهو بهذا - ﷺ - يعلن الحرب على قريش، ما دام أنهم مزقوا الصحيفة، ونقضوا العهد، وبينما الرسول ﷺ يتحدث وإذا بسحابة مرت من السماء، ثم التفت إليها ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده إن هذه السحابة فيها النصر على قريش»[(٢)].

حانت عودة الغائب اليتيم ﷺ إلى مكة، ليؤسس فيها دولة الإسلام، وتكون عاصمة الدنيا، قال للناس: تهيؤوا ولم يخبر أحدًا، ثم قال: «اللهم خذ على أعين قريش أخباري، وخذ على أسماعهم فلا يدرون بي»[(٣)]، أي: اللهم أعمِ عنهم خبري، وأعْمِ عليهم الغزوة والحرب، وفي هذا من الحكمة أن الإنسانَ يستعين على قضاءِ حوائجه بالكتمان، فمن أراد شيئًا أو أمرًا مهمًّا فلا يخبر به[(٤)].

وكان ﷺ يخبر بالغزوات إلا مثل هذه الغزوة؛ لأنه كان يريد أن يفاجئهم ويباغتهم، تقول عائشة: دخل عليَّ ﷺ، فأمرني أن أهيئ له وأجهز، ولم تسأله - ﵂ - ولم يخبرها، وفيه أن المرأة لا تتدخل في شؤون زوجها، إذا رأته مصرًّا على سر، أو استكتمها على أمر من الأمور، فلتتقِ الله، ولا تبحث ولا تسأل، فانظر إلى عقل عائشة وعلمها وجلالة فهمها سكتت - ﵂ - فهو ﷺ يريد أن يباغت قريشًا حتى لا يستعدوا؛ لأنه لو أخبر بأنه سيغزو قريشًا، لهيأت قريش الكتائب والسلاح، واستعدوا بالمباغتة له - عليه الصلاة والسلام -. ثم استعد - عليه الصلاة والسلام -، وأمر الصحابة أن يتهيؤوا، فتجهز عشرة آلاف مقاتل، عشرة آلاف يقومون

---

(١) صحح الحديث محققا السيرة النبوية (٥٤/٤) بينما ضعف الحديث محققا زاد المعاد (٣٩٦/٤).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣٩٦/٤).

(٣) انظر السيرة النبوية (٥٧/٤) وصحح الحديث محققا السيرة.

(٤) فعن معاذ بن جبل ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كلّ ذي نعمة محسود» صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٩٤٣).

الليل ويصومون النهار، صادقون مؤمنون مجاهدون، يقدم أحدهم صدره أمام الرسول ﷺ دفاعًا عنه، يقول حسان:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمد منكم فداءُ

قال ابن القيم رحمه الله: «وأمر رسول الله ﷺ الناس بالجهاز، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها، وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنية أمركن رسول الله ﷺ بتجهيزه؟ قالت: نعم. فتجهز. قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: والله ما أدري. ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، فأمرهم بالجد والتجهيز، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها. فتجهز الناس»[1].

وسمع حاطب بن أبي بلتعة؛ بأن محمدًا ﷺ يريد أن يغزو كفار قريش، وحاطب من أهل بدر، فقد شهد مع الرسول ﷺ بدرًا، وكان عنده أسرة وأطفال وبنات في مكة، فأراد أن يتخذ يدًا بيضاء عند كفار قريش، حتى يمنعوا نساءه وأطفاله، فكتب لهم: بأن محمدًا ـ ولم يقل ﷺ وكأنه معهم ـ يريد أن يغزوكم فانتبهوا، ثم قال لامرأة عنده: خذي هذا الكتاب، واذهبي به ليلاً، ولكن أين تذهب من السميع البصير؟! أين تذهب من الواحد الأحد: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]؛ لعلمه واطلاعه وحضوره، فأخذت الكتاب وجعلته في رأسها ثم فتلت عليه قرونها وذهبت به، وأتى الخبر من السماء، ونزل جبريل في الحال، يخبر الرسول ﷺ بأن حاطب بن أبي بلتعة كتب رسالة مع امرأة وهي الآن في «روضة خاخ»، وهذه مزية محمد ﷺ، أن الله يطلعه على علم الغيب، أو بعض من علم الغيب، وهي من معجزاته ﷺ، حتى تقول عائشة ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ: سبحان من وسع سمعه كل شيء، والله إن خولة بنت ثعلبة تناجي الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في طرف البيت وما أسمعها

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٣٩٨).

ولا أدري ما تقول، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، وجلس صفوان وعمير تحت ميزاب الكعبة وتحدثا عن قتل الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ولما أتى عمير للرسول ﷺ يريد قتله، قال: «كذبت بل جلست أنت وصفوان تحت ميزاب الكعبة، في لَيلة قمراء، فقلت له كذا وكذا، وقال لك كذا وكذا، قال: من أخبرك؟ قال: أخبرني اللطيف الخبير، العليم الخبير، قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله»[(١)].

فلما ذهبت المرأة بالرسالة ونزل جبريل على محمد ﷺ وأخبره الخبر، قال ﷺ: أين علي والزبير؟ وهما رجلا المهمات، يقول ابن القيم: «وكان الذي يضرب الأعناق بين يديه ﷺ علي والزبير، ففيهما من القوة والبطش والمبارزة والهمة ما الله به عليم»، قال ﷺ: «يا علي، يا زبير، الحقا بروضة خاخ فإن فيها امرأة حاطب فخذا الكتاب»[(٢)]، فانطلقا يتعاديان ـ أي يتسابقان ـ حتى وصلا الروضة، وإذا بالمرأة بين الشجر، ذاهبة في طريقها إلى مكة، فأوقفاها، وقالا لها: سلمي الكتاب، قالت: ليس معي الكتاب، قال علي بن أبي طالب: «والله الذي لا إله إلا هو ما كذب ﷺ، ولا كذبنا، فلما أنكرت وجود الكتاب معها، قالا لها: سلمي الكتاب أو لنجردنَّكِ، قالت: انتظراني، فدخلت بين الشجر وأخرجت الكتاب، فأخذاه ورجعا يخطفان الأرض حتى وصلا إلى الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فدفعاه إليه».

فجمع ﷺ الناس، وقرأ الكتاب، وكان حاطب أمامه، قال: «ما حملك يا حاطب على ما فعلت؟!» قال: «يا رسول الله أنا لست من قريش وعندي بنات ومال فأردت أن اتخذ يدًا عندهم، والله ما كفرت بعد إسلامي، ولا كرهت شيئًا من ديني، وقد حضرت بدرًا، فطوى ﷺ الكتاب»، قال عمر بن الخطاب: «يا رسول الله: لقد خان الله ورسوله، هذا

---

(١) انظر السيرة النبوية (٢/٣٧٢ ـ ٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٩٨٣)، ومسلم (رقم ٢٤٩٤).

رجل منافق دعني أضرب عنقه»، فقال ﷺ: «يا عمر وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»[1]، قال عمر: الله ورسوله أعلم، ثم فاضت عيون عمر بالدموع، وبكى لهذا المشهد العظيم[2]، فهنيئًا لأهل بدر هذا التاج وهذا القبول، حضروا في جوع ومشقة وضنك، وحرب ومأساة ولوعة، ثم استحقوا كلمة الحق الحي القيوم، «اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فدمعت عينا عمر بن الخطاب، وتذكر كيف أن المحاسن تغطي على المساوئ:

وإذا الحبيب أتى بذنبٍ واحدٍ　　جاءت محاسنه بألف شفيعِ

الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: وخرج ﷺ لعشر خلون من رمضان في عشرة آلاف مقاتل من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، وقد ألّفت مزينة وكذا بنو سليم على المشهور رضي الله عنهم جميعهم. واستخلف ﷺ على المدينة أبا رهم: كلثوم بن حصين، ولقيه عمه العباس إلى ذي الحليفة، وقيل: إلى الجحفة، فأسلم ورجع معه ﷺ وبعث ثقله إلى المدينة، ولما انتهى ﷺ إلى نيق العقاب، جاءه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبدالله بن أبي أمية أخو أم سلمة مسلمين، فطردهما، فشفعت فيهما أم سلمة، وأبلغته عنهما ما رققه عليهما، فقبلهما فأسلما رضي الله عنهما بعدما كانا أشد الناس عليه ﷺ[3].

وأُعلن النفير وجعل ﷺ على الكتائب عشر كتائب، وكل كتيبة فيها ألف مقاتل، مزينة كتيبة، وأشجع كتيبة، وأسد كتيبة، والمهاجرون كتيبة، والأنصار كتيبة، ودخل ﷺ في كتيبة الأنصار، وتوجهوا على بركة الله.

وسمع أبو سفيان بن الحارث ابن عم رسول الله ﷺ أن الرسول ﷺ

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٠٧)، ومسلم (رقم ٢٤٩٤).

(٢) انظر: السيرة النبوية (٥٨/٤ ـ ٥٩)، وزاد المعاد (٣٩٨/٣ ـ ٣٩٩)، والفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ١٧٥).

(٣) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ١٧٥ ـ ١٧٦).

قادم إلى مكة، فخرج بأطفاله إلى الصحراء فلقي عليَّ بن أبي طالب، فقال له: إلى أين تخرج؟ قال: أخرج بأطفالي إلى الصحراء لأموت جوعًا وعريًا، والله إن أدركني محمد ليقتلني ويقطعني إربًا إربًا، قال علي: أخطأت يا أبا سفيان، فالرسول ﷺ أحلم الناس، وأبر الناس، وأكرم الناس، فتعال إليه، وقال له: اذهب إلى الرسول ﷺ، وسلِّم عليه بالنبوة وقل: السلام عليك يا رسول الله، ثم قل: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]؛ فأتى أبو سفيان بأطفاله والرسول ﷺ جالس، وقال: السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته، قال: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم قال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، وهذه الآية نزلت في إخوة يوسف عليه السلام، فرفع ﷺ رأسه وقال: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، ثم قال أبو سفيان قصيدة يعتذر فيها:

لعمرك إني يوم أحمل راية ... لتغلب خيلُ اللات خيلَ محمدِ
لَكَالْمُدلج الحيران أظلم ليله ... فهذا أواني حين أهدى فأهتدي
هدانيَ هادٍ غير نفسي ونالني ... مع الله من طرَّدت كل مطردِ

قال ابن هشام رحمه الله: ويروى: ودلني على الحق من طردت كل مطرد.

قال ابن إسحاق: «فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله: ونالني مع الله من طردت كلّ مطرد. ضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال: أنت طردتني كلّ مطرد»[1].

يقول أحمد محرم في مقطوعة جميلة عن محمد ﷺ:

يا طريدًا ملأ الدنيا اسمه ... وغدا لحنًا على كل الشفاهْ
وغدت سيرته أنشودةً ... يتلقاها رواة عن رواهْ
هل درت من طاردته أمة ... هبلُ معبودها شاهت وشاهْ

(١) السيرة النبوية (٤/٦٢).

طاردت في البيد من بوأها		منزلاً لا يبلغ النجم مداهْ

فعفا عنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ثم قال: يا رسول الله؛ والله لا أترك نفقة أنفقتها في حربك إلا أنفقت ضعفيها في الإسلام، ولا غزوة إلا جهزتها بمالي ودمي في سبيل الله، فكان مع الرسول ﷺ يقود بغلته، ويخدمه ويذب عنه، ويقاتل بين يديه، وقاتل في حنين ـ ﷺ وأرضاه ـ يوم فر الناس ولم يبق منهم إلا نفر قليل.

واقترب ﷺ بجيش قوامه عشرة آلاف وطوَّق مكة؛ ورَأى أن يدخلها من أربع جهات، ويعين في كل جهة قائدًا، فخالد بن الوليد من جهة، والزبير من جهة، وسعد من جهة، وسعد بن عبادة من جهة، وقبل المعركة كان لحسان ابن ثابت قصيدة يتوعد فيها المشركين ويمدح الرسول ﷺ، يقول:

عدمنا خيلنا إن لم تروها		تثير النقع موعدها كداءُ
تظل جيادنا متمطرات		تلطمهن بالخمر النساءُ
فإما تُعرضوا عنا اعتمرنا		وكان الفتح وانكشف الغطاءُ
وإلا فاصبروا لجلاد يوم		يعز الله فيه من يشاءُ
وقال الله قد أرسلت جندًا		هم الأنصار عرضتها اللقاءُ
لنا في كل يوم من معدٍ		سباب أو قتال أو هجاءُ

وجمعت قريش فرسانها وأتباعها لحرب المسلمين، وكان في مقدمة هؤلاء صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، ودخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها من جهة (كداء)، مهيبًا خاشعًا، يقرأ سورة الفتح وهو على راحلته، ودخل خالد بن الوليد من أسفلها والتحم في (الخندمة) مع بعض المشركين الذين أصروا على القتال، وأتى أحدهم ومعه السيف، يقول لامرأته: قريبًا سآخذ بعضًا من أصحاب محمد وأجعلهم خدمًا عندك!! ثم يقول:

هذا غرار كامل ذو ألَّهْ		وسيف مبتور سريع السلة
وشاجع مفحم وما بي علة

ولكن ماذا يفعل سيفه إذا كان الواحد الأحد مع المسلمين يؤيدهم بنصره: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ولم يرد خالد بن الوليد أن يقاتل المشركين في السكك وطرقات مكة، وقال: لو قاتلناهم في السكك رجمونا بالحجارة، وباغتونا بكمائن وأرصدة، ولكن نخرجهم، فأظهر لهم خالد الهزيمة بعدما اقترب، فلحقوا به، ولما أصبحوا في خارج مكة، رجع عليهم خالد وهزمهم، وهرب الرجل ورمى بسيفه ودخل على زوجته، وأغلق الباب، فقالت زوجته: قاتلك الله ما أغنى عنك سيفك، ولا شجاعتك، أين كلامك؟! قال لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمهْ ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمهْ
وأبو يزيد قائم كالموتمهْ ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمهْ
يقطعن كلّ ساعد وجمجمهْ ... ضربًا فلا يسمع إلاّ غمغمهْ
لهم نهيتٌ خلفنا وهمهمهْ ... لم تنطقي باللوم أدنى كلمهْ(١)

نعم، لقد قابل رجالاً توكلوا على الله الواحد الأحد، وتيقنوا من نصره، فأقبلوا على الموت، تحرسهم الملائكة وتقاتل معهم، باعوا أنفسهم وأرواحهم لله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ [التوبة: ١١١].

ومن الذي باع الحياة رخيصة ... ورأى رضاك أعز شيء فاشترى

قال أهل العلم والسير: «لاح للرسول ﷺ الحرم، فلما لاح له نكس رأسه ودمعت عيناه، فهو سيد المتواضعين، فما أعظم تلك اللحظة، وما أجلها في تاريخ الإنسان! وجاء النصر الذي رجت له الأرض رجًا، وفتحت له السماء، وطرح مطرفه على مناكب الجوزاء، وسمع به الناس، ومع ذلك لم يدخل ﷺ سفَّاكًا، ولا بطَّاشًا، ولا سفَّاحًا ولا منتقمًا، رأى الكعبة وأنزل رأسه ولحيته حتى لامست لحيته قربوس ناقته أو فرسه؛ تواضعًا للواحد الأحد، ودمعت عيناه. في لحظة الانتصار تسيل دموعه ﷺ!! وهو يشاهد مكة التي طُرد منها، والكعبة التي تمنى أن يطوف بها ويصلي فيها،

---

(١) السيرة النبوية (٤/٧١ ـ ٧٢).

وكان محرومًا من دخولها عشر سنوات، ومع ذلك ينصره الله وتتهاوى أمامه الأصنام»، واقترب ﷺ ليدخل[1] ثم كَبَّرَ وهَلَّلَ وكَبَّرَ المسلمون، ووقف أبو سفيان بن حرب الذي قاد الكتائب بجانب العباس بعدما أسلم قبل قبل الفتح بليلة أو ليلتين، فقال ﷺ للعباس: «احبس أبا سفيان عند حطم الجبل حتى ينظر إلى المسلمين[2]، وحتى يخلع الله قلبه ويذوق الويل والذل ويرى كيف أن الله ينصر أولياءه، فمرت كتيبة مدججة بألف مقاتل لا يُرى منها إلا العيون وعليهم الخوذات والسلاح والدرق والرماح ومعهم السيوف وكلهم يُكَبِّرون، فقال: من هؤلاء، قال: هذه مزينة قال: وما لنا ومزينة، ثم بعدها بقليل وإذا بكتيبة ثانية قال: من؟ قال: أسد، قال: وما لنا وأسد؟ ثم بعدها وإذا بكتيبة أشجع، ثم مرت كتيبة الرسول ﷺ مع الأنصار في ألف مقاتل، وإذا هي كتيبة الخضراء، قال: من هذا؟ قال: هذا محمد، قال: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيمًا، قال: هذا من نبوَّته وليس ملكًا، ثم دخل ﷺ البيت، وإذا بثلاثمائة وستين صنمًا حول الكعبة، وإذا صور كبار وصغار من حجارة وخشب وأوثان وأشكال كلها تفاهة وخرافة وكذب، ولعنات تُعبد من دون الله، لا تملك نفعًا ولا ضرًّا، ولا تسمع ولا ترى، إنما الحكم والألوهية والعبودية لله الواحد الأحد، الآن يبطل الزور والكذب، الآن تكسر الأصنام، وأمر ﷺ بتطهير البيت الحرام منها، وشارك في تكسيرها وهو يقرأ: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١][3].

ثم قال ﷺ: أين مفاتيح الكعبة؟ قالوا: عند عثمان بن طلحة، فبنو

---

(١) عن عبدالله بن مغفل قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته، وهو يقرأ سورة الفتح يرجِّع، وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجَّعت كما رجَّع. أخرجه البخاري (رقم ٤٢٨١)، ومسلم (رقم ٧٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٨٠).

(٣) فعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ مكة وحول الكعبة ثلاث مائة وستون نُصُبًا، فجعل يطعنها بعود في يده، وجعل يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ﴾ الآية. أخرجه البخاري (رقم ٢٤٧٨)، ومسلم (رقم ١٧٨١).

شيبة بن عبد الدار عندهم مفاتيح الكعبة؛ لأن قريشًا وزعت الاختصاصات، فأناس لسدانة البيت، وأناس لسقاية الحجيج، وأناس لحمل الراية في المعركة، وأناس للمفاتيح وهم بنو عبد الدار، فأخذ ﷺ مفتاح الكعبة، وأمر بها ففتحت، فدخلها، فرأى في داخلها صورًا لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهو يستقسمون بالأزلام، فقال: «قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام»[1]، ورأى حمامة من عيدان فكسرها ورمى بها في خارج الكعبة، وأمر بالصور فمحيت. وعندما طهرت الكعبة دخلها ﷺ، وصلّى فيها ركعتين. ثم خرج وأعطى عثمان بن طلحة المفتاح[2]، وكانت قريش قد ملأت المسجد تنتظر ماذا يصنع بها النبي ﷺ، فوقف فيهم ﷺ وكان ممّا قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدميَّ هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحُجرَات: ١٣]، ثم قال: «**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟**» قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: «**فإني أقولُ لكم كما قال يوسف لإخوته:** ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يُوسُف: ٩٢] **اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

وارتفع الأذان في جنبات البيت الحرام بصوتِ بلال بن رباح رضي الله عنه، ودوَّت في أرجاء مكة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، وانتصر الحق وزهق الباطل، وأذعن أهل مكة لرسول الهدى ﷺ، واجتمعوا للبيعة،

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٢٨٨) وأحمد في المسند (١/ ٣٦٥) بإسناد صحيح.

(٢) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (٣/٤٠٨ - ٤٠٩): ثم جلس في المسجد، فقام إليه عليٌّ رضي الله عنه، ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك. فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدعى له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء». وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٤/٧٨).

وجلس رسول الله ﷺ على الصفا وقدم الناس - رجالاً ونساءً - يبايعونه على السمع والطاعة.

دروس من فتح مكة:

١ - النصر مع الصبر، ومهما تأخَّر النصر فإن الله وعد أولياءه به إذا هم بذلوا أسبابه من العدة والعتاد، وتجرَّدوا له وتضرَّعوا إليه.

٢ - عدم إخباره ﷺ للصحابة بحرب قريش ودخول مكة حكمة منه ﷺ، فالإنسان يستعينُ على قضاء حوائجه بالكتمان.

٣ - قتل الجاسوس راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله، وإن رأى المصلحة في غير ذلك، أو وجدت علةٌ مانعةٌ من قتله، تركه كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة.

٤ - إن الحسنات يذهبن السيئات، والمحاسن تغطي على المساوئ، وعلى المسلم أن يكون منصفًا في حكمه على الآخرين، فينظر في حسناتهم، ويتجاوز عن سيئاتهم إن هم أعلنوا توبتهم منها، وإن أصروا يتلطف معهم ويلين، إن موسى عليه السلام رمى الألواح المكتوبة من عند الواحد الأحد، وأخذ برأس أخيه هارون يجرُّه إليه، فعفا الله عنه، وطلب رؤية الله وهي لا تحلُّ له، وفقأ عين ملك الموت لما أتى يقبض روحه، فعفا الله عنه، لما علم من صدقه، وإخلاصه، وتضحيته، ومواقفه.

٥ - كن متسامحًا مع الناس، أحسن إليهم حتى وإن أساؤوا إليك، واجعل قدوتك في ذلك محمدًا ﷺ؛ كذَّبه قومه، واتَّهموه، وضيَّقوا عليه، وطردوه من وطنه، واستهزؤوا به، وبدعوته، وبأتباعه، فلما تمكَّن منهم وقدر عليهم قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

يوم حنين

اتجه رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوم حنين إلى غزو كفار هوازن[1] بعد أن فتح الله عليه مكة، وسجل الله له الفتح، فقال سبحانه بالعموم ولم يخصص: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝﴾ [الفتح: ١] ولم يخص ﷻ فتح مكة، ففتح الله له الأسماع والأبصار، والقلوب والقلاع والمدن والقرى، بل فتح الله له العالم، انتصر ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وبلغه أن هوازن جمعت جموعها في عشرين ألف، وهي قبائل ما حول الطائف وما حول الحجاز، وما يدخل فيهم من غطفان؛ تجمعوا، وقالوا: أيظن محمدٌ أنه سينتصر علينا بسهولة، سوف ننتصر عليه وعلى أصحابه. وما قرؤوا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٠] فسمع ﷺ الخبر، ونادى بالجهاد، وكان ذلك بعد فتح مكة بما يقارب خمسة عشر يومًا، فهو من غزوة إلى غزوة، ومن فتحٍ إلى فتح، ومن صلاةٍ إلى صلاة، ومن جهادٍ إلى جهاد، ومن نجاحٍ إلى نجاح، جيشه اثنا عشر ألفًا، من هؤلاء أناس أسلموا قبل الفتح صهرهم الإسلام، تربوا بين يدي الرسول ﷺ، وأناس لم يدخلوا في الدين إلا من قريب، ولا يستوي من أسلم من قبل الفتح أو آمن أو هاجر أو جاهد، ولا من أسلم بعد الفتح أو آمن أو هاجر أو جاهد، فاتجه ﷺ بحفظ الله ورعايته، في

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد (٣/٤٦٥): فصل في غزوة حنين وتسمى غزوة أوطاس. وهي موضعان بين مكة والطائف، فسميت الغزوة باسم مكانها، وتسمى غزوة هوازن، لأنهم الذين أتوا لقتال رسول الله ﷺ.

السادس من شهر شوال في السنة الثامنة من الهجرة، ومعه اثنا عشر ألفًا، كانوا يملؤون الوديان، فاكتظ بهم وادي حنين، حتى ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلبوا من قلة، وعبَّر بعضهم عن ذلك فقال: لن نغلب اليوم من قلة[1]، فأخبرهم سبحانه وتعالى أن النصر ليس بكثرة العدد، وأن الناصر هو الواحد الأحد، فعاتبهم القرآن ولقّنهم درسًا في أول المعركة حتى يرجعوا إلى الواحد الأحد، ويعودوا ويتيقنوا أن الناصر هو الله جل في علاه، والمؤيد هو الله، لا الكثرة ولا السلاح ولا الرماح، يقول ﷻ: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

كان مالك بن عوف شابًا، قائدًا وهو شيخ هوازن، والشاب ـ غالبًا ـ ليس عنده حنكة الشيوخ ولا تجربتهم، فمالك شاب متوقد شجاعة، يفور دمًا وموتًا، ولكن ليس عنده الخبرة، فقال: يا هوازن كيف أنا فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، قال: أطيعوني اليوم، قالوا: أطعناك قال: اخرجوا بإبلكم وغنمكم وبقركم وأهلكم ونسائكم وأطفالكم، فجاء شيخ منهم اسمه دريد بن الصمة كبير في السن، مجرب وشاعر ذكي عبقري، قال: ما حملك على ذلك يا مالك؟ قال: أردتُ أن أجعل خلف كلِّ رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يردُّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك، ثم قال له: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم، ثم ألق الصباة على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك، فقال مالك لقومه: إما أن تطيعوني يا هوازن وتتركوا هذا الشيخ الخرف، وإلا اتكأت على ذبابة سيفي ـ وسل سيفه وركز به في بطنه ـ

(١) قال ابن هشام في السيرة (٤/١٢٤): قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل مكة أن رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين ورأى كثرة من معه من جنود الله قال: «لن نغلب اليوم من قلة» ومال محققا السيرة إلى ضعف الحديث.

حتى يخرج من ظهري، قالوا: أطعناك، فقال دريد بن الصمة: هذا يوم ما غاب فيه إلا عقلي[1].

وكان مالك بن عوف قد سبق بجيشه المسلمين إلى حنين، فأدخل جيشه الوادي في الليل، وجعل كمناء في الطرق والمداخل والشعاب، وأمرهم أن يرشقوا المسلمين إذا طلعوا، ثم يشدّوا عليهم شدة رجل واحد.

وأراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يسوق لرسوله أربعة وعشرين ألفًا من الغنم، وسبعة آلاف من الإبل. ارتكز جيش هوازن ـ كما مر ـ على رؤوس الجبال، واستغلوا الموقع الإستراتيجي، والرسول ﷺ في الوادي، فقال ﷺ: «من يحرسنا هذه الليلة؟» قال الصحابي عبدالله بن أبي حدرد: أنا يا رسول الله أحرسكم، قال: فاصعد رأس الجبل، فإذا رأيتهم زحفوا أخبرنا حتى نقوم من الليل، نام الصحابة لحكمة أرادها الله، وقبل الفجر زحف جيش هوازن عليهم، ثم طلعت هوازن على رؤوس الجبال، ثم أمطرت الصحابة بالحجارة، ففرت الخيول والجمال بالصحابة، ولم يبق إلا الرسول ﷺ ومعه نفر من أصحابه، قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ: «عن جابر رضي الله عنه قال: لما استقبلنا وادي حنيفة انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوف حطوط، إنّما ننحدر فيه انحدارًا، قال: وفي عماية الصبح، وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطون إلاّ الكتائب، قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحد على أحد. وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: أين أيها الناس، هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبدالله. قال: فلا شيء حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلاّ أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته»[2].

أنت الشجاع إذا لقيت كتيبةً أدبت في هول الردى أبطالها

---

(١) انظر الرحيق المختوم للمباركفوري ص٤١٣ ـ ٤١٤، وانظر: زاد المعاد (٣/٤٦٦ ـ ٤٦٧)، والسيرة النبوية (٤/١١٥ ـ ١١٦). والفصول (ص ١٨٢ ـ ١٨٣).

(٢) السيرة النبوية (٤/١٢١ ـ ١٢٢).

وإذا وعدت وفيت فيما قلته لا من يكذب قوله أفعالها

فنزل ﷺ وقال: «أنا ابن العواتك من سُليم»، ثم قال:

أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبد المطلبْ

يقول: إن كنتم تريدونها سماوية فأنا النبي والرسول من عند الواحد الأحد، وإن أردتم أن تكون أرضية وقبلية فجدي عبد المطلب، فمن في أجدادكم مثل عبد المطلب؟ فهو شيخ العرب، ثم نزل ﷺ من على البغلة وأخذ حفنة من التراب وقال ﷺ: بسم الله، ونثرها، وقال: شاهت الوجوه، فما بقيت عين من عشرين ألفًا إلا وقعت فيها، فدمعت عيونهم فانهزموا، إنه سيد الخلق ﷺ؛ السماء معه، والأرض معه، والملائكة معه، وصالح الإنس والجن معه، ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال إياس بن سلمة: حدثني أبي. قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ حنينًا. فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية، فاستقبلني رجل من العدو، فأرميه بسهم، فتوارى عني، فما دريت ما صنع، ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة النبي ﷺ. فولى صحابة النبي ﷺ وأرجع منهزمًا وعليَّ بردتان متزرًا بإحداهما، مرتديًا بالأخرى، فاستطلق إزاري فجمعتهما جميعًا، ومررت على رسول الله ﷺ منهزمًا. وهو على بغلته الشهباء. فقال رسول الله ﷺ: «لقد رأى ابن الأكوع فزعًا»، فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة، ثم قبض قبضة من تراب من الأرض، ثم استقبل به وجوههم، فقال: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنسانًا إلاّ ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة. فولوا مدبرين. فهزمهم الله ﷻ، وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين»[1].

يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] وأمر الرسول ﷺ عمه العباس أن ينادي الناس بالثبات ـ وكان العباس من الذين ثبتوا معه ـ وكان ذا صوت جهوري؛ فناداهم وخصَّ منهم

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧٧).

أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادها، ثم خصَّ الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن الخزرج فأقبلوا عليه ملبِّين النداء، ودارت معركة قوية ضد هوازن. وأقبل الصحابة الأبرار على الموت في شجاعة نادرة، وإخلاص منقطع النظير؛ فقد تربوا على قيام الليل، ولم يتربوا على الكسل، ولا المخدرات، ولا على المسكرات، ولا على عقوق الوالدين، ولا تضييع صلاة الفجر، يكسر أحدهم غمد سيفه ثم يقدم، فاصطفوا وفتح لهم الرسول ﷺ الطريق فأتوا بين هوازن والرسول ﷺ فاجتلدوا، قال الراوي كالأصمعي وغيره: «سُمع شظايا تكسير السيوف وخنينها على رؤوس الناس، وقاتل الأبطال بين يدي الرسول ﷺ في شدة الحرارة، فيضرب الواحد منهم حديد الرجل وجمجمته وعظامه ومفاتحه وسلاسله وخوذته إلى درجة أن ينكسر السيف وتطير شظايا لها خنين على رؤوس الناس، فيبتسم الرسول ﷺ ويقول: «الآن حمي الوطيس»[(1)]، حتى عاد الجيش المنهزم، وما أن دخل وقت صلاة الظهر إلا وانهزم جيش هوازن، وما أتى وقت صلاة العصر إلا وهم مقيدون بين يدي الرسول ﷺ مكتّفون مأسورون، وقال ﷺ: عليّ بالإبل فضموا إليه سبعة آلاف من الإبل، وأربعة وعشرين ألفًا من الغنم، وجاؤوا بالنساء في الخيام والأطفال، فقد سلّمهم قائدهم وأصبحوا غنيمة باردة في أيدي المسلمين، سلم الجيش والجنود والنساء والأطفال والإبل والغنم، لكن من الذي حوّل المعركة؟ حوّلها الواحد الأحد، لما ضاقت الأرض بما رحبت وفر الجيش، أنزل الله الملائكة، يقودهم جبريل في بعض الروايات، فنزلوا على خيل وقاتلوا مع المسلمين فهزموا الأعداء، ولو نزلت الملائكة وكان أهل الكرة الأرضية في كفة وجبريل في كفة؛ لخسف بهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقوم لوط كان عددهم ستمائة ألف استخدم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ جناحًا واحدًا من ستمائة جناح، كل جناح يسد ما بين المشرق والمغرب، فرفع قراهم بجبالها وتلالها وروابيها حتى سُمِعَ صياح ديكتهم، ونباح كلابهم ثم لطم بهم الأرض: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧٧٥) وفيه قال ﷺ: «انهزموا ورب محمد».

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم قال مالك ـ زعيم هوازن ـ للناس: إذا رأيتموهم فاكسروا جفون سيوفكم، ثم شدوا شدة رجل واحد، وبعث عيونًا من رجاله، فأتوه وقد تفرقت أوصالهم، قال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رجالاً بيضًا على خيل بلق، والله ما تماسكنا أن أصابنا ما ترى، فوالله ما ردَّه ذلك عن وجهه أن مضى على ما يريد»[1].

وقال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال ابن إسحاق: «وقال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، أخو بني عبد الدار: قلت: اليوم أدرك ثأري من محمد، وكان أبوه قتل يوم أحد. قال: فأدرت برسول الله لأقتله، فأقبل شيء حتى تغشّى فؤادي، فلم أطق ذاك، وعلمت أنه ممنوع مني[2]. قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧] فالحافظ والحامي هو الله الواحد الأحد، ثم قال لي ﷺ: يا شيبة.. يا شيبة، قال: فأتاني فوضع يده على بصري فأبصرت، فلما نظرت عيني إليه والله ما كان عندي أحب ولا أجلّ من محمد ﷺ، والله لهو أحب الناس إليّ من سمعي وبصري وأهلي والناس أجمعين، قال: ما لك يا شيبة؟ قلت: يا رسول الله كنت أستغفر الله، قال: أعاذك الله من الشيطان يا شيبة، قال: ثم أخذ يده فوضعها في صدري فمسح صدري فأذهب الله من صدري كل شرك وكراهية للإسلام والوسواس، ثم قاتل مع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ»[3].

غنائم حنين:

روي أن سبي حنين بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء، وأن الأموال كانت أربعة آلاف أوقية فضة، والإبل كانت أربعة وعشرين ألفًا، والشياه أكثر من أربعين ألفًا. وعندما كان توزيع الغنائم جاء أبو سفيان وقال: أعطني يا رسول الله من الغنائم، قال: خذ مائة ناقة، قال صفوان: وأنا، قال: مائة

(١) زاد المعاد (٣/٤٦٧ ـ ٤٦٨).
(٢) السيرة النبوية (٤/١٢٤).
(٣) انظر زاد المعاد (٣/٤٧٠ ـ ٤٧١).

ناقة، قال حكيم بن حزام: وأنا، قال: مائة ناقة، قال الأقرع بن حابس: وأنا، قال: مائة، وأعطى عيينة: مائة، فأعطى صناديد الكفار الذين أسلموا لتوِّهم من مائة مائة، وترك الصحابة من المهاجرين والأنصار، ثم أتى العباس بن مرداس وقال: وأنا يا رسول الله؟ قال: أربعين، فغضب؛ كيف يعطيه أربعين وقد أعطى غيره مائة وليس بأقل منهم؟ فنظم قصيدة قال فيها:

فأصبح نهبي ونهب العبيد ... بين عُيَيْنَةَ والأقرعِ
وما كان حصنٌ ولا حابسٌ ... يفوقان مرداسَ في مجمعِ
وما كنت دون امرئ منهما ... ومن تضع اليومَ لا يُرفعِ(١)

فأتى الخبر الرسول ﷺ، وكان ﷺ لا يحفظ الشعر ولا يقوّمه ولا يقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩] لم يكن شاعرًا، لأن الشعر في الغالب ينبني على الكذب والخيال والأراجيف والوهم، ومحمد ﷺ جاء ليقول قول الفصل، ويصدع الصخور، ويحيي القلوب، وينقذ الأمم، ويوجه الناس، محمد ﷺ لم يكن صاحب خيالات ولا قصائد، جاء يقول الفصل ليس بالهزل، فأتى يستشهد ﷺ بالأبيات يقول ﷺ لأبي بكر كيف يقول العباس:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين الأقرع وعيينة

والصواب (بين عيينة والأقرع)، فكسر ﷺ البيت، قال أبو بكر: صدق الله ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يس: ٦٩] بل يقول يا رسول الله:

أتجعل نهبي ونهب العبيد ... بين عيينة والأقرعِ

فقال ﷺ: وفوا له المائة. فوفوا له ستين ناقة(٢)، فلما سمع الناس أنه وزع الغنائم، أتى ﷺ يريد أن يستظل في ظل شجرة، بعد تعبٍ طويل من أول النهار فلحقه الأعراب هذا يسحب برده من هنا، وهذا يسحب

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٠٦٠).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٤٧٣).

عمامته، كل يقول: أعطني يا محمد، ثم تعلق برده ﷺ بشجرة، فعن جبير بن مطعم بينما هو يسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفله من حنين فعلق الناس يسألونه، حتى اضطروه إلى سمُرة، فخطفت رداءه، فوقف النبي ﷺ فقال: «أعطوني ردائي، لو كان لي عدد هذه العضاه نعَمًا لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا»[1] .لله درك! ما هذا الكرم، وهذه العظمة وهذه الشجاعة؟! قبل ساعات يصمد أمام الجيش ويهزم عشرين ألفًا، ويحثو في وجوههم التراب، ويدوس الكتائب أمامه، والآن يقول: والله لو أن عندي مثل جبال تهامة ذهبًا وفضة وبقرًا وغنمًا ودراهم لوزعتها فيكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا جبانًا ولا كذابًا. ثلاث خلال ليست فيه ﷺ أبدًا: الجبن فهو أشجع الناس، والبخل فهو أكرم الناس، والكذب فهو أصدق الناس.

وسأل ﷺ: أين أبو عامر الأشعري؟ وهذا أحد الصحابة وهو أخو أبي موسى الأشعري، كان يتفقده ﷺ، فأخبروه بأنه قتل، ضُرب في ركبته فمات شهيدًا، فأتى أبو موسى فقال: يا رسول الله استغفر لأخي أبي عامر فقد قُتل، قال ﷺ: عليّ بالوضوء، فتوضأ ثم استقبل القبلة ورفع يديه وقال: «اللهم اغفر لعبدك أبي عامر الأشعري، اللهم اغفر له، اللهم اغفر له، اللهم ارفعه عندك على كثير من عبادك»، فقال أبو موسى: وأنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «اللهم اغفر لأبي موسى وأبي عامر، وارفعهما على كثير من عبادك، وفضلهما تفضيلاً»[2] وحسن ما فعل أبو موسى، فمن لا يغتنم مثل هذه الدعوة المستجابة من أطهر فم، ومن أطهر لسان، ومن أطهر كيان، ومن أعظم إنسان بأبي هو وأمي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

ترك ﷺ الأنصار ولم يعطهم شيئًا من الغنائم، والأنصار هم أهل الدار، وهم الذين نصروا وأعطوا وبذلوا وحضروا الغزوات جميعها ودفعوا دماءهم ودموعهم وأموالهم، لم يجدوا ناقة ولا شاة ولا درهمًا، فوجدوا في

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٢٨٢١).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٢٣)، ومسلم (رقم ٢٤٩٨).

أنفسهم حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله ﷺ قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت؛ قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحيِّ من الأنصار منها شيء. قال: «**فأين أنت من ذلك يا سعد؟**» قال: يا رسول الله ما أنا إلا من قومي، قال: «**فاجمع لي من قومك في هذه الحظيرة**»، فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، فأتاهم رسول الله ﷺ فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**يا معشر الأنصار، مقالة بلغتني عنكم، وجدة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتِكم ضلالاً فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم؟**» قالوا: بلى، الله ورسوله أمنّ وأفضل. ثم قال: «**ألا تجيبوني يا معشر الأنصار؟**» قالوا: بماذا نجيبُك يا رسول الله؟ قال: «**أما والله لو شئتم لقلتم، فلصدقتم: أتيتَنا مكذَّبًا فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلاً فآسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا، تألفتُ بها قومًا ليسلموا، ووكلتم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس شعبًا، وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، سوف تلقون أثرة بعدي فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(١)، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ قسمًا وحظًا. وهكذا وعدهم ﷺ بالأجر الجزيل، ليست الإبل والبقر والدراهم، هذه تُعطى لغيرهم، أما هم فلهم الجنة والحوض، وتجاوز الصراط وجوار الواحد الأحد، والغرف العالية، إنهم أكرم وأعز على الله من أن يجعل ثوابهم إبلاً وبقرًا وغنمًا؛ لكن أعظم نصر وفوز ونجاح هو جوار الواحد الأحد.

ووزع ﷺ كذلك الغنائم وترك رجلاً من الصحابة فقال للناس: «أيها

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٤٧، ٤٣٣٧)، ومسلم (رقم ١٠٥٩).

الناس إني أعطيت أناسًا لما جعل الله في قلوبهم من الجشع والطمع، وأترك أناسًا لما جعل الله فيهم من الخير والإيمان منهم عمرو بن تغلب»[1] قال عمرو: كلمة ما أريد أن لي بها الدنيا وما فيها.

وجلس ﷺ أيضًا تحت ظل شجرة بعدما انتهى من توزيع الغنائم، وإذا بامرأة عجوز تُقبل في الشمس، قال: من هذه؟ قالوا: هذه الشيماء بنت الحارث أختك من الرضاعة، فقد أرضعته ﷺ حليمة السعدية في بادية بني سعد في الطائف وأرضعت معه الشيماء بنت الحارث،أرادت أن تسلم عليه، وانظر إلى هذا الإمام كيف يستقبل أخته الآن، وهي امرأة عجوز أعرابية فقيرة مسكينة رضعت معه قبل ما يقارب ستين سنة، فلما سأل عن هذه المرأة قالوا له: هذه الشيماء بنت الحارث أختك من الرضاع، فقام ﷺ سيد الوفاء والحنين، وشق الصفوف ـ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يقول: مرحبًا بأختي، جزاك الله عن الإسلام خيرًا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤] ترك الجيوش والغنائم، ونسي كل شيء، وهو يقول: مرحبًا بأختي[2]. يقول شوقي:

وإذا صحبت رأى الوفاء مجسدًا ... في بردك الأصحاب والخلطاءُ
وإذا أخذت العهد أو أعطيته ... فجميع عهدك ذمةٌ ووفاءُ

إنها أخلاق النبوة! ويأخذ برده ﷺ ويفرشه تحت ظل الشجرة ويجلسها مكانه، سبحان الذي جعله إمامًا وأسوةً للناس، ليقدم درسًا في التاريخ لصلة الرحم، حتى يقول: «اتقوا الله في النساء فإنهن عوان عندكم»[3] ويقول ﷺ: «إني أحرج حق الضعيفين: المرأة والمسكين»[4]، وها هو يقدم صورة بهية، صورة التعامل مع المرأة الضعيفة العجوز المسكينة، صورة لحفظ الرحم، حفظ اللبن، رضع معها فقط، ثم احتفى بها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣١٤٥).
(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٤٧٥)، والسيرة النبوية (٤/١٤٤ ـ ١٤٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٢١٨)، ولفظه: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله».
(٤) أخرجه أحمد (٢/٤٣٩)، وابن ماجه (رقم ٣٦٧٨)، وإسناده صحيح، ورجاله ثقات.

ثم خيَّرها ﷺ، قال: تريدين المقام معي معززة مكرمة أو العودة إلى أهلك؟ قالت: أعود إلى أهلي يا رسول الله، فقاد لها قاطرة من الإبل، وحملها من الملابس، وأعطاها من الغنم، وأكرمها أمام الناس، وقدم ﷺ أحسن درس في التاريخ في صلة الرحم، وهو ﷺ تفضل على أعدائه، فكيف بأخته من الرضاع؟ حتى صار مقصدًا للسائلين وعونًا للمساكين.

وبعدما فرغ الرسول ﷺ من توزيع الغنائم، قدم عليه وفد هوازن يعلنون إسلامهم، ويطلب رد الأموال والسبي إليهم، فخيَّرهم بين المال والسبي، فاختاروا السبي، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه، فتشاوروا ثم رجعوا إليه فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا، سوى الأقرع بن حابس الذي تكلَّم باسم قبيلته تميم، وعيينة بن حصن الذي تكلَّم باسم قبيلته فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها. ثم سأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، وطلب منهم أن يخبروه إن هو جاء مسلمًا رد عليه أهله وماله ومنحه مائة من الإبل، وعندما أخبروه بذلك قدم على الرسول ﷺ بالجعرانة أو بمكة، فأعطاه الرسول ﷺ ما وعد به، وأسلم وحسن إسلامه، فاستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا. وروي أنه وفد على رسول الله ﷺ، فلما سلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من صلاة العصر، قال مالك بن عوف: يا رسول الله، قال: قل، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، يا رسول الله اسمع مني أبياتًا قلتها، قال: قل، قال:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهمُ بمثل محمدِ
وإذا الكتيبة عرّدت أنيابها ... بالسمهري وضرب كلِّ مهندِ
فكأنه ليث على أشباله ... وسط الهباءة خادرًا في مرصدِ

يقول: إذا عرد الجيش، فأنت الأسد، وإذا أقبلت الكتائب فأنت الذي تحمي الكتائب والصفوف، قال ﷺ: قد سمعنا القصيدة فماذا تريد؟ قال: نريد أن ترد علينا أهلنا وأموالنا جزاك الله خيرًا، قال ﷺ: إن أحب القول

إليّ أصدقه، اختر إما الأهل أو الأموال، قال: ما نعدل بأهلنا، قال: ردوا أهليهم إليهم، فردوا النساء والأطفال مكرمين معززين، وحسن إسلامه ﷺ.

وفي هذه الغزوة فوائد:

◆ الاعتماد على الواحد الأحد.

◆ أن كثرة الأمم واحتشادهم وكثرة عددهم وعتادهم لا يعني أن النصر لهم، أو أن قلّتنا وضعفنا معناه الهزيمة، فإذا كان الله معنا؛ فنحن أقوى الناس، فالواجب علينا أن نعتمد على الواحد الأحد، فإذا قيل لنا: كثُر الناس، وكثرت الجيوش، كثُر العالم الشرقي والغربي، نقول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وجزاء ذلك: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عمران: ١٧٤] هذا جزاء من قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ينقلب بنعمة من الله وفضل، ومن قال: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، فجزاؤه ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]، ومن قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦] فجزاؤه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧] ومن قال: «لا إله إلا الله» كتب الله له عزًّا وأورثه مكانةً وقوّمه في مقام الصابرين الصادقين، ومن قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» شُرح بها البال وأرضي بها ذو الجلال، وفُتحت بها الأقفال، وحُملت بها الأثقال، وكوبدت بها الأهوال، ومن أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل همٍّ فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن أكثر من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ؛ غفر الله له ذنبه وستر عيبه وقضى دينه، وأصلح من سريرته وشفاه من كل ألم، وعافاه من كل سقم، وهذا جزاء هذه الأعمال والأقوال، فالصحابة كلما ضاقت بهم الضوائق قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ قال ابن عباس في صحيح البخاري: «حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام لما أُلقي في النار»[1]. شيخ التوحيد عليه السلام جاءه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٥٦٣).

جبريل في تلك اللحظات، واقترب منه عليه السلام فقال له: ألك إليّ حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم!

فالزم يديك بحبل الله معتصمًا ... فإنه الركن إن خانتك أركانُ

فلما ألقي في النار قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، فجعلها الله بردًا وسلامًا، ولو قال الله: بردًا فقط لأصبحت النار ثلجًا تقطع الجسم، فقال سبحانه: ﴿وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، «وحسبنا الله» قالها محمد ﷺ فانقلب هو والصحابة بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، وهكذا إذا قهرك الدَّيْن فقل: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ يُقضى عنك دَيْنك، وإذا أصابك السقم فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل، تصح وتعافى، وإذا أُدخلت في الحبس فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل، يُفرج عنك، وإذا ضاقت عليك الضوائق فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل، فلا أجلَّ ولا أعظم منه جل في علاه.

◆ تفاهة الدنيا، وأنها ليست مطلبًا لأهل الإيمان، هناك أعداد كبيرة من المسلمين يطلبون المال ويتهالكون عليه كأمثالنا، فيهم من الطمع والهلع على الدنيا؛ بل إن بعضهم إذا خسر ألف ريال ندم، وربما ذرفت عيناه، ولكن إذا فاتته صلاة الفجر في جماعة ما تحركت فيه أنملة، يقول المتنبي:

من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميتٍ إيلامُ

يقول ابن القيم كلامًا معناه: «إذا أصيب الإنسان في دنياه يستخدم أنواع الإنكار الثلاثة، إنكار بالقلب، وإنكار باللسان، وإنكار باليد، ولكن إذا أُعتدي على الدين يقول: الله سبحانه يحفظ دينه ويتولاه! وعند المتأخرين يقولون: الأمر في سعة، والحمد لله، الدين لم يتوقف عليك، اترك الناس وشأنهم، من يريد الصلاة فليصل، والذي يريد السكر يسكر، والذي يريد أن يتعبد يتعبد، لا تتدخل في ما لا يعنيك، لكن حاول أن تأخذ من أرضه مترًا، أو شبرًا، إنه ـ حينئذ ـ سيصب دمه في سبيل ذلك، فهذا هو المنطق الآثم الخاطئ عند بعض الناس، الذين يطلبون الدنيا، ثم تهون عليهم أمور الطاعة. أحسن الله عزاءك في قلبك إذا قمت إلى الصلاة ولم يحضر قلبك

ولم يخشع ولا اشتاقت روحك ولا صعدت إلى الدرجات العلى وإلى الملأ الأعلى ورفرفت في عليين عند العرش، وإنما ذهبت بك إلى الأسواق؛ والمدرجات والمسارح، فلا خشوع ولا خضوع ولا دموع ولا شيء من ذلك، أحسن الله عزاءك في قلبك إذا لم تذكر الله بحرارة وتسبحه بحضور وخشية إن كان ذكرك لله تمتمة وكلمات تجري على اللسان فقط، أحسن الله عزاءك في قلبك، إذا لم تقرأ القرآن بحضور قلب وخشية، وتعلم أنه كلام الواحد الأحد؛ هذا القرآن الذي يقول سبحانه وتعالى فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]؛ أي: لكان هذا القرآن، فإن قرأت القرآن وخشعت، وزادك إيمانًا فالحمد لله، وإن قرأته وكأنك تقرأ صحيفة أو مجلة ولا تدري ما قرأت، فأحسن الله عزاءك في قلبك، والمقصود من ذلك كله أن أعظم المصائب تكون في دينك وفي صلاتك وصيامك واستقامتك والتزامك بشرع الله، أما مصيبة الدنيا فقد أصيب الملوك، والوزراء، والتجار، وذهبت دول واحترقت كنوز وقناطير مقنطرة:

وإن هُدمتْ فَزِدْها أنت هدمًا وحصِّن أمر دينك ما استطعتا

يقول الحريري في المقامات:

دارٌ متى ما أضحكت في يومها أبكت غدًا قبحًا لها من دارِ

فالحريري يصفها، ويقول: إن الدنيا إذا أعطتك شيئًا باليمين؛ أخذته منك بالشمال، إذا وُليت منصبًا وجاءتك برقيات التهنئات ثم ذهبت إلى بيتك قالوا لك: ابنك مات، إذا نجحت ابنتك، ماتت زوجتك، إذا عالجت عينيك، وإذا بأذنيك لا تسمع شيئًا، هل هناك إنسان منعّم وسعيد أبدًا؟ كلا، كتب الله عليه النكد والكبد والخسار والتبار، قال الشاعر التهامي:

طُبعت على كدرٍ وأنت تريدها صفوًا من الأقذار والأكدارِ
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلبٌ في الماء جذوة نارِ
قفزت إلى الخبازِ وهو يدوسها فكأنها قفزت لأخذ الثارِ

- النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين.
- جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم إذا رأى الإمام أن في ذلك سببًا لدخولهم في الإسلام، أو تقوية لإسلامهم، أو كف أذاهم.

تبوك

إن من روائع سيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ غزوة تبوك، وسوف نشاهده ﷺ، خطيبًا، مجاهدًا، قائدًا، شجاعًا، يطلب الشهادة، وهو الذي يقول: «والذي نفسي بيده، لوددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أُحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل»(١) أو كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ. سمع ﷺ أن الروم يريدون غزو جزيرة العرب، فأعد ﷺ العدة، واستشار صحابته، ودعاهم وكانوا ثلاثين ألف مقاتل، بعد أن فتح الله عليه مكة، وفتح عليه في حنين، ونصره في كل موطن، وأعزه عزًّا عظيمًا، وفتح له فتحًا مبينًا، فاجتمعوا، وقام ﷺ على المنبر، وكان الحر شديدًا، كانت الأرض في جزيرة العرب، تقذف بحرارتها، وتقذف بشررها، والناس في جدب وقحط وجوع وفقر، قال ﷺ: «من يجهز جيش العسرة وله الجنة»(٢). يضمن محمد ﷺ عند الباري سبحانه أن من يجهز هذا الجيش جيش العسرة، أن الله يدخله الجنة، فسكت الناس، ثم قال: «من يجهز جيش العسرة وله الجنة» فسكتوا، ثم قال: «من يجهز جيش العسرة وله الجنة»، فقام عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال ابن هشام: حدثني من أثق به: أن عثمان بن عفان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارض عن عثمان، فإني عنه راضٍ»(٣).

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٢٢٦)، ومسلم (رقم ١٨٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٢٧٧٨).
(٣) السيرة النبوية (٢١٩/٤)، وضعف المحققان الحديث.

قام عثمان رضي الله عنه وسط المسجد كأنه علمٌ في رأسه نار، ليقول: أنا لها!فكل تجارة عثمان وكل ما جمعه في صباه وفي شبابه، سوف ينثره في لحظة واحدة، ويدفعه في موقف واحد، ويبيع نفسه من علام الغيوب، قال عثمان: أنا يا رسول الله أجهز الجيش كله بأحلاسه وماله وأقتابه في سبيل الله، فدمعت عيناه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فمن يستطيع أن يفعل هذا إلا مؤمن عظيم القدر عند الباري، وبعض الناس ممن فتح الله عليهم يستثارون بخطب تفجر الصخر وببكاء وبمواعظ ليتبرعوا، فيخرج أحدهم ويدفع خمسين ريالاً ويشترط ويتمنى على الله الأماني!

قال ابن القيم رحمه الله: «ومنها ما برز به عثمان بن عفان من النفقة العظيمة في هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبي ﷺ: «غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت وما أخفيت وما أبديت»، ثم قال: «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»[1]، وكان قد أنفق ألف دينار، وثلاثمائة بعير بعدتها وأحلاسها وأقتابها[2].

ولا يعني هذا تشجيعه على الذنوب، ولكن معنى قوله ﷺ: أنت فعلت فعلة كفرت ذنوبك جميعها، وغفرت خطاياك وسيئاتك. فدعا الناس لعثمان، ثم جُهز الجيش.

وأتى ﷺ يعقد الرايات، ويستثير الهمم، والشباب أمامه يتقدمون في صفوف على الرسول ﷺ، ثلاثون ألف مقاتل، فأتى المنافقون أهل الأفكار الخاوية، والقلوب الميتة، فقال أحدهم: أنا يا رسول الله إذا رأيت بنات بني الأصفر (بنات الروم) أخاف الفتنة!! يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني، واسمع إلى رد القرآن يقول الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] فأول سقوطك في الفتنة أيها المنافق أنك عصيت الله ورسوله ﷺ، فالله علام الغيوب لا

---

(١) قال الهيثمي في المجمع (١٩٤/٦): رواه الطبراني وفيه العباس بن الفضل الأنصاري، وهو ضعيف.

(٢) زاد المعاد (٥٥٩/٣).

تخفى عليه خافية، ثم جاء كبيرهم عبدالله بن أبيّ الخائب الفاشل، وقال للصحابة: أوصيكم بأن لا تنفروا في الحر، اصبروا حتى يأتي الربيع. فقال القرآن على لسانه: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] يقول: يا أحمق يا سفيه نار جهنم أشد من نار الصحراء، فأنت عصيت الله ﷻ وخالفت أمره، فلو كان عندك خوف من الله كنت خرجت في هذا الحر؛ وما حر الدنيا بالنسبة إلى حر النار؟! رأى ﷺ النار قال: أرأيتم ناركم هذه، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فإن نار جهنم فضلت عليها سبعين ضعفًا، أوقد على نار جهنم ألف عام حتى ابيضت، وأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة[1]، نعوذ بالله من نار جهنم.

خلّف ﷺ علي بن أبي طالب في بيته لما خرج في غزوة تبوك؛ لأن علي بن أبي طالب من الرسول ﷺ بمنزلة هارون من موسى، لأنه ابن عمه، ودائمًا كان معه، وفي الغزوات كان بين يديه، وهو الذي كان يقطع الرؤوس بين يدي محمد ﷺ، قال له ﷺ: اجلس على أهلنا وأطفالنا وأموالنا، وخرج ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقال المنافقون لعلي: الرسول ﷺ لم يخلّفك إلا أنه استثقلك ولا يريدك أن ترافقه، فهم كاذبون في حضوره ﷺ، وفي غيابه، وفي الجيش، ثم ذهب علي ولحق بالرسول ﷺ وبكى، قال: يا رسول الله استثقلتني أن أخرج معك؟ قال ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي؟!»[2] يقول: يكفي أن هارون من موسى بهذه المرتبة، فأنت مني بمنزلة هارون من موسى، فرجع رضي الله عنه، واستمر الجيش في حرارة الجو، وفي جهد وفي مشقة، وفي جوع، والرسول ﷺ يخرج أحيانًا يتظلل بيده وإذا نزلوا تحت شجرة تركوا الشجرة العظمى للرسول ﷺ يؤثرونه على أنفسهم، يريدون أن يفدوا أقدامه أن تمس الرمضاء، ولو استطاعوا أن يحجبوا الشمس بأيديهم لحجبوها، ولو استطاعوا أن يصدوا الريح بخدودهم لصدوها، فأتى ﷺ

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٢٥٩١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (رقم ٢١٢٥).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٦)، ومسلم (رقم ٢٤٠٤).

تحت ظل شجرة في الظهيرة والقائلة والحر، فنزع ثوبه ﷺ وبقي في إزار ورداء، وعلق ﷺ السيف عند رأسه ونام، ثم جاء رجل أهوج مشرك، فاخترط السيف، وأيقظ الرسول ﷺ، ثم فتح - عليه الصلاة والسلام - عينيه وإذا السيف مشهور مسلول مثل البارق، ثم قال: من يمنعك مني؟

قال ﷺ: الله، فاهتز الأعرابي وانتفض وسقط السيف منه، ثم أخذ ﷺ السيف، وقال: «من يمنعك مني؟».. فأنا معي الواحد الأحد، أنا رسول الله، ولكن من تكون أنت؟ فسل ﷺ السيف على رأسه، قال الأعرابي: كن خير آخذ، أي كن عفوًّا، فعفا عنه ﷺ، ثم أسلم.

واصل سيره ﷺ، وفي الطريق نزل تحت الشجرة، وأخذ يتفقد الجيش وقارب تبوك، قال: أين كعب بن مالك؟ وكعب بن مالك كان شاعرًا وشابًّا، لم يحضر المعركة، قال أحدهم: ألهاه يا رسول الله النظر إلى برديه. فقام معاذ بن جبل ورد عن كعب، قال: ما علمنا عنه يا رسول الله إلا خيرًا، إنه لمؤمن صادقٌ مجاهد، انظر كيف ذب عن عرض أخيه! قال ﷺ: «من ذب عن عرض أخيه المسلم ذب الله عن لحمه ودمه النار يوم القيامة»[(1)] والمسلم لا يغتاب ولا يجلس في المجلس الذي تنتهك فيه حرمات الله وحرمات العلماء والصالحين والصائمين والأخيار والأبرار والدعاة وطلبة العلم، وإذا حصل شيء من هذه المخالفات الشرعية الظاهرة وأنت حاضر فلا تسكت، بل عليك أن تدافع وتذب عنهم، وتقول لمن يقع في عرض أخيه: اسكت، بل هو رجل خيّر، له مكارم وله محاسن، حتى يذب الله عن لحمك ودمك النار يوم القيامة، فمعاذ رضي الله عنه كان في السابعة والعشرين من عمره، وكان طالب علم، قام فذب رضي الله عنه عن أخيه، وقال: ما علمنا عنه إلا خيرًا يا رسول الله، إنه لصادق مجاهد شجاع، قال ﷺ: «أين

(1) أخرجه الإمام أحمد (٦/٤٦١) وعبد بن حميد (رقم ١٥٧٩)، وابن أبي الدنيا في الصمت (رقم ٢٤٠) والبغوي في شرح السنة (رقم ٣٥٢٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٩٥): رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد حسن، وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٦٢٤٠).

أبو ذر؟» قالوا: ما جاء، فإذا برجل أقبل من الصحراء بجمله، ثم حار الجمل وبار وكلَّ ولم يستطع أن يمشي، وكيف يمشي من المدينة إلى تبوك في الحر والجوع، ثم أخذ أبو ذر المتاع على ظهره وعصاه، وكان يقتلع أقدامه من حر الرمضاء، فقال ﷺ: «كن أبا ذر»، يقول: أيها المقبل عساك أن تكون أبا ذر، وكان ﷺ يحب أبا ذر، ولا يريده أن يتخلف عن الجيش، ولما أقبل أبو ذر قالوا: يا رسول الله نبشرك هذا أبو ذر، قال: «رحمك الله يا أبا ذر تعيش وحدك وتموت وحدك وتُبعث وحدك»[1]، قال أهل العلم: يعيش وحده فإنه اعتزل الحياة وبقي يجاهد ويعبد الله بعد الجهاد والهجرة في الصحراء حتى مات، ومات وحده رضي الله عنه وقد شهد جنازته ابن مسعود، فلما حضرت الوفاة أبا ذر قال لزوجته: لا تبكي عليّ سوف يحضرني نفر من المسلمين، فإذا أنا مِتُّ فغسلوني بالماء وكفنوني وطيبوني واعرضوني على هذه الطريق، وهذه الطريق تأتي من الشام، فسوف يأتي ركب من المؤمنين يصلون عليّ ويدفنوني إن شاء الله، ما كذبني الصادق المصدوق خليلي أخبرني بذلك، فلما توفي وأسلم روحه، نفذوا وصيته وعرضوه على الطريق وإذا بالعالم الرباني ابن مسعود الصحابي الجليل صاحبه ورفيقه أقبل معه بعض أصحابه، فلما رأى الجنازة قال: هذا أبو ذر الغفاري، ثم بكى ابن مسعود، ونزل وقبّل وجهه، ثم صلى عليه ودفنه، فهذا مصداق لقول الرسول ﷺ: «تعيش وحدك وتموت وحدك وتبعث وحدك»، قال بعض المعلقين يُبعث وحده؛ لأنه أمة من الأمم بحسناته ومواقفه رضي الله عنه، وصدقاته وجهاده[2].

وصل ﷺ إلى تبوك تلك الليلة وضرب المخيمات للمجاهدين في سبيل الله وناموا، ولكنَّ محمدًا ﷺ لم ينم، كان يدور على المخيمات يتفقد من يصلي، ويمر على الكتائب ويجهزها، ويسأل عن أخبار الناس، والروم في الطرف المقابل، يقول ابن مسعود: «وفي الليل والناس نائمون،

(١) أخرجه الحاكم (٣/٥٠ ـ ٥١)، وصححه وتعقبه الذهبي بقوله: فيه إرسال.

(٢) انظر: السيرة النبوية (٤/٢٢٨ ـ ٢٢٩).

أتيت إلى فراش رسول الله ﷺ فلم أجده، أين ذهب؟ أين سار؟ هل تناول طعامه؟ وأين هو؟ قال ابن مسعود: فمسست فراشه فوجدته باردًا، وأتيت إلى فراش أبي بكر فلم أجده ووجدت فراشه باردًا، ثم أتيت إلى فراش عمر فوجدت فراشه باردًا، فنظرت فإذا نار تضوي في آخر المعسكر، فأتيت فإذا بالرسول ﷺ حفر قبرًا ومعه أبو بكر وعمر، وكان أبو بكر على شفير القبر من أعلى والرسول ﷺ واقف ويقول: دلياني صاحبكما ـ أي قربا الجنازة ـ وابن مسعود لا يعلم ما هذه الجنازة ـ قال: فأتيت فإذا رجل غُسل وكُفن وإذا هو يتولاه ﷺ يسحبه أبو بكر وعمر، وينزلانه له، قلت: يا رسول الله من هذا؟ قال: أخوك عبدالله ذو البجادين توفي البارحة، وكان ذو البجادين شابًا من أغنى شباب مكة طيبًا وعطرًا وديباجًا وحريرًا، فلما أسلم أقسم أبوه أن يحرمه من الملابس، وخلع الملابس التي عليه ومنع عنه الطيب والمال، فلم يجد إلا شملة ـ وهي الفراش من الصوف ـ جعلها نصفين رداء وإزارًا، فسمي بذلك ذا البجادين، هاجر وباع روحه ونفسه وأيامه لله الواحد الأحد، فلما كانت غزوة تبوك وكان نائمًا أتته سكتة ومات فجأة رضي الله عنه، قال: فأنزل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما الجنازة لرسول الله ﷺ، قال: فأخذه وأخذ وجهه وكشف عن وجه عبدالله ذي البجادين، فهو أحد جنوده وأصحابه وطلابه وأحد أتباعه، انظر إلى الوفاء، فلم ينزل إلى القبر إلا محمد ﷺ، وهو سيد الخلق يريد أن يفي لهذا الشاب الذي ترك الدنيا وكل شيء؛ من الحرير والديباج والطيب من أجل الواحد الأحد، ومن أجل نصرة الإسلام، قال: فلما استل الجنازة كشف عن وجهه وقبّله ﷺ، ودمعت عيناه، ثم التفت ﷺ وهو في القبر إلى القبلة وقال: «اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه، اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه، اللهم إني أمسيت عنه راضيًا فارض عنه». قال ابن مسعود وهو يبكي بعدها بسنوات: والله الذي لا إله إلا هو إني وددت أن أكون صاحب ذاك القبر[1].

(١) انظر: السيرة النبوية (٤/٢٣٣ ـ ٢٣٤)، وزاد المعاد (٣/٥٤٠).

وللرسول ﷺ وقفات عند الجنائز تأخذ القلوب، كان يزور ﷺ أحد النقباء من الأنصار رضوان الله عليهم، وقد زاره ﷺ في بيته اسمه البراء بن معرور، من الذين بايعوا البيعة الأولى، يوم القلة والذلة والضعف، فجاءه ﷺ يزوره في البيت، قال: كيف البراء؟ قالوا طيب يا رسول الله وإذا هو في سياق الموت ومرض الموت، فظن ﷺ أنه بخير وطيب، فدعا له، وخرج صلى الله عليه من بيته، ولما صار في النخل بين بيت الرسول ﷺ وبيت البراء هذا، أخذ النساء يبكين، فقال ﷺ: ماذا حصل؟ قالوا: مات البراء يا رسول الله، فما رجع، قال: فالتفت إلى القبلة، قال: «اللهم الْقَ البراء تضحك إليه ويضحك إليك»[(1)]، ومن ضحك الله إليه لا يعذبه أبدًا.

ولما نزل الرسول القائد ﷺ (تبوك) أوقدوا له نارًا، وجلس مع أبي بكر وعمر، فسأل ﷺ عن فلان وفلان، قالوا: جلسوا يا رسول الله في آخر المخيم؛ لأن المنافق لا يحب مجالس العلم والذكر، ثم نزل جبريل فقال للرسول ﷺ: أدرك القوم فقد احترقوا، يعني المنافقين الذين خرجوا في الظاهر مجاهدين، فذهب لهم رجل وقال لهم: إن الرسول ﷺ يدعوكم، فلما أتوه قال ﷺ: ماذا كنتم تقولون؟ قالوا: ما كنا نقول شيئًا. على مَنْ يكتمون؟ على الله الواحد الأحد!! لقد كانوا يسمرون على النَّيْل من الرسول ﷺ والصحابة، قالوا: ما وجدنا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا، وأجبن عند اللقاء. وهم كاذبون في زعمهم هذا فلم يكن طعامهم كثيرًا، وكانوا أشجع الناس، فلما دعاهم ﷺ قال لهم: أما قلتم كذا وكذا، قالوا: والله ما قلنا، قال: بلى قلتم، أخبرني الوحي، قالوا: يا رسول الله كنا نمزح ولم نكن جادِّين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]. يقول أحد العلماء: «إذا ذُكِرَ القرآن والسنة

(١) انظر مجمع الزوائد (٣/٤٠)، وقال: رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن. وفي (٩/٣٦٩) وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وقد روى أبو داود بعض هذا الحديث وسكت عليه، فهو حسن إن شاء الله. وقلت: الوارد عند الهيثمي في طلحة بن البراء.

والرسول ﷺ والجنة والنار، ما هو إلا الجد والخشوع والاحترام والتقديس والتوقير، لا ضحك ولا مزح ولا استهزاء، فإن فعلت؛ فإنه الكفر والخروج عن الملة»، تضحك على مَنْ؟ تمزح على القرآن والسنة والرسول ﷺ والعلماء؟! فاحذروا أن تقربوا الدين بالمزاح والاستهزاء، وليكن مزحكم في دنياكم وفي قصوركم، وفي أبنائكم وأموالكم، فالدين الإسلامي بتكويناته وقراءاته وسنته وبعلمائه ودعاته الصادقين وبشعائره التعبدية لا مجال فيه للاستهزاء والعبث، فكلمة واحدة قد تبعدك من الدين وتخرجك من الملة.

انتهى الرسول ﷺ من تلك الليالي وسلم الله، فلم يواجه ﷺ كيدًا، وسمع الروم بخروجه وأنه قائد الجيش، قالوا: إن جيش محمد الذين هم ثلاثة آلاف في (مؤتة) غلبونا، وخرج الآن بثلاثين ألف جندي وهو الذي جاء بالدين ويقود الكتائب، فحلفوا بأيمانهم أنهم لا يواجهونه أبدًا، فسلم الله وانتصر ﷺ وكاتبه الملوك، وجاء أحدهم ينتفض من دومة الجندل وهو ملك، ولكن لما رأى محمدًا ﷺ قال لسان حاله:

قل للملوك تنحوا عن مناصبكم ... فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

وقال:

كأنك شمس والملوك كواكبٌ ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكبُ

فقال له ﷺ: هوّن عليك، على مهلك، اصبر، إني ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة، يقول: لا تخف مني، فأنا بشر، فأمي كانت تشوي اللحم بالملح القديم من الجوع والفقر، فأنا مسكين ولست ملكًا من ملوك الدنيا، ولا جبارًا، ولا طاغوتًا، ويعلق أحد الأدباء المعاصرين، قال: نعم أنت ابن امرأة تأكل القديد في مكة، لكنك فتحت العالم وهديت البشرية، ونزل عليك جبريل بالوحي، وسوف تتكلم يوم لا يتكلم أحد من الملائكة المقربين، ولا الأنبياء المرسلين؛ لأنك صاحب المقام المحمود ﷺ. انتصر ـ عليه الصلاة والسلام ـ؛ لأنهم سلموا، وكف العدوان بإذن الواحد الأحد، وعاد ﷺ راجعًا.

وتأتي الآن الدواهي على المنافقين، والذين تخلفوا؛ وقد تخلف ثلاثة من الصحابة، ولم يكن لهم عذر رضوان الله عليهم، إنما الشيطان سوّل لهم، وكتب الله عليهم أن يخطئوا، ثم يتوب الله عليهم وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، ومن المنافقين ثمانون وأكثر، أقبل ﷺ ورجع باليمن والمسرات. يقول بعض الحفاظ منهم ابن القيم: قال بعض أهل السير: إن «طلع البدر علينا» كانت بعد الرجوع من تبوك[1]، وقالوا في الهجرة، وقد خرج الأطفال والجواري لاستقباله ﷺ، فكان ﷺ ينزل ويقبلهم، وكان يحمل أحدهم على صدره، وفي حضنه أحيانًا، سيد المتواضعين والرحماء ﷺ.

قال كعب بن مالك وهو يذكر المعاناة: والله ما كنت أيسر ولا أغنى مني في غزوة تبوك، أي ما عندي عذر، غني وقوي وشاب وعندي زوجتان، وترددت في اللحاق به ﷺ. حتى ثبطني الشيطان وتخلفت عن الغزوة فجلست، فلما أقبل ﷺ استشرت قرابتي وقلت: دلوني ماذا أفعل؟ وكيف أخرج من غضب رسول الله ﷺ، ذكرني في تبوك وسأل عني، ودافع عني معاذ بن جبل، ماذا أفعل؟ قال: فمرة أصنف عذرًا ويبطل العذر؛ لأن الواحد الأحد سوف يكشف الموضوع، وجبريل سينزل بالآية، والله سبحانه وتعالى سوف يطلع رسوله ﷺ على الخوافي، فقال له قرابته: اعتذر إليه كما اعتذر المنافقون، فلما اقترب منه ﷺ قال: انزاح عني الباطل وذهب عني الكذب، قلت: والله لأصدقن عنده، والله الذي لا إله إلا هو إني لأرجوه ولو غضب عليّ الآن أن الله يرضيه عليّ، فلما أقبل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، بدأ بالمسجد، وكان ﷺ إذا دخل المدينة من السفر أو الجهاد يبدأ بالمسجد ويصلي ركعتين، ثم جاء الثلاثون ألفًا منهم من كان في المسجد، وفي خارج المسجد، وفي الطرقات، وحول المدينة، وإنما القيادة العظمى في داخل المسجد، وأبو بكر وعمر، فخلع ﷺ لأمَتَهُ وخوذته وصلى ركعتين، ثم قال كعب بن مالك: السلام عليكم يا

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥٥١).

رسول الله ورحمة الله، قال كعب: ما أدري هل رد عليّ أو لم يرد عليّ، قال ثم تَبَسَّم تَبسُّم المغضب:

إذا رأيت نيوب الليث بارزةً فلا تَظُنَّنَّ أن الليث يبتسم[1]

قال: والله ما أدري هل هو مغضب؟ قال ﷺ: ما الذي خلفك يا كعب، أما ابتعت ظهرك، أي أما اشتريت جملاً وتهيأت للغزو تريد الخروج معنا، قال: فجلست بين يديه:

حتى وضعت يميني ما أنازعه في كفٍّ ذي نقماتٍ قوله القيل

فوضع يده وقال: والله الذي لا إله إلا هو لقد أوتيت جدلاً وشعرًا وبيانًا ولو جلست عند غيرك من ملوك الدنيا لعرفت أني سوف أخرج منه بعذر، ولكنني يا رسول الله علمت أنني إن صدقت وغضبت عليّ أني أرجو الله أن يرضيك عني ويرضى عني، والله ما لي من عذر ما كنت أيسر ولا أغنى مني الآن، قال: قم. .قم يحكم الله فيك وفي صاحبيك. فهم ثلاثة صادقون، لكن ليس لهم عذر فقاموا، وأتى المنافقون بعشرة أيمان، قال أحدهم: والله إن والدتي مريضة، والثاني قال: إني لا أرى مد يدي، والثالث قال: ما رفعت طرفي، والرابع بعذر، والرسول ﷺ سموح وصفوح، يقول أبو سعيد الخدري في الصحيحين: «كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها»[2] إذا نظرت إليه نكس طرفه ﷺ، وهو أشجع الناس وأكرم الناس ﷺ، ولكن آتاه الله أحسن الخلق: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، قبل ﷺ أعذار القوم في الظاهر، وكان يقول لهذا: صدقت، وذاك: نعم، يغفر الله لنا ولكم، عفا الله عنا وعنكم، فلما انتهى ﷺ من الثمانين قال الله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣] فهؤلاء كَذَبَةٌ ليسوا صادقين في العذر، أما الثلاثة فقال لهم ﷺ: «ارتفع أنت

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥٧٦).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٥٦٢)، ومسلم (رقم ٢٣٢٠).

وصاحبيك حتى يقضي الله فيكم»، أو كما قال ﷺ، ذهب الثلاثة ووصلوا إلى بيوتهم، قال ﷺ لأصحابه: لا تكلموا هؤلاء الثلاثة، ولا تبايعوهم ولا تشاوروهم، ولا تعودوهم، ولا تزوروهم، قال كعب بن مالك وكان شابًّا قويًّا: قطعنا الناس، والله لا يسلمون علينا، ولا يزورونا، ولا يعودونا، ولا يبايعونا، والله حتى إني أسلم على أخي وابن عمي وقرابتي فلا يرد علي أحد. فحاصرهم الناس، وضيقوا عليهم وهو الحصار المعنوي والأدبي طاعة لله ولرسوله، قال كعب: فضاقت بي الأرض أربعين ليلة[1]:

اشتـــدي أزمـة تـنـفـرجـي ... قـد آذن لـيـلـك بـالـبـلـجِ

فإذا رأيت الأمر اشتد، فاعرف أن الفرج قريب، وإذا ألـمّ بك أمر؛ فاعلم أن مع العسر يسرًا، وهكذا ضاق الأمر على الثلاثة، وبلغ أربعين ليلة، وهم يتحرّون الفرج، ثم جاء الأمر من الرسول ﷺ أن: «اجتنبوا زوجاتكم»، فأرسلوا إليهم وأخبروهم.

يُقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ما ليس بالحسنِ

وقال آخر:

بكينا كأن الدمع يشوي جفوننا ... على النار نشوى أو على الجمر نسحبُ

انظر المعاناة، تخيل أنك تعيش في مجتمع الرسول ﷺ، ثم تحاصر، فلا تُكلم، ولا تُبايع، ولا تشاور، ولا تُزار، مطرود في المسجد، وفي السوق، منبوذ في الجلسة، لا وليمة ولا دعوة، ولا مناسبة، ولا فرح، لا تهنئة، ولا تعزية، ولا تكريم، أبدًا ثم تحاصر في زوجتك، قال: اعتزلوهم، قال كعب بن مالك: نفارقهم، قال: تبقى في البيت ولكن لا تقربوا النساء، قالوا: سمعًا وطاعة، قال كعب: فتسلقت على ابن عمي قتادة قلت: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال كعب: فوالله لم يرد عليّ، قلت: يا أبا قتادة أسألك بالله هل تعلم أني أحب الله

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٥٥٣ ـ ٥٥٤).

ورسوله، انظر نهاية المعاناة والأسى واللوعة، إلى درجة أنك تشك في نفسك، إذ تأتي أحيانًا على الإنسان إحباطات فلا يدري أصلى أم لا؟ ولا يعلم أهو مسلم أم لا؟ قال أبو قتادة: الله ورسوله أعلم، فلما قال له أبو قتادة ذلك، قال: فدمعت عيناي، ثم رجع، قال: فجلست بعد الخمسين يومًا على الحالة التي ذكر الله، يقول ﷻ: ﴿ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٨] وضاقت عليهم الضوائق، يقول: والله لكأن الأرض ليست الأرض، وينظر إلى الشجر الأخضر فيراه ليس بأخضر، وينظر إلى الجدار الأبيض فيراه بلون أسود، وينظر إلى الناس وليسوا بالناس، حتى تغيرت الدنيا في أذهاننا، وهكذا من يعيش الفتن والإحن تصبح الدنيا مظلمة أمام عينيه.

هذا سجن الحياة، أن ينتهي الأمل عندك، وسجن اليأس والإحباط، فلما أتى ﷺ قال كعب صليت الفجر وعلى الحالة التي ذكر الله، فلا راحة بنوم أو طعام أو بأهل أو كلام أو بسلام أو بيع وشراء، هجرنا الناس، وقطعنا القريب والبعيد، فنحن في حالة لا نرجو أن يكشفها إلا الواحد الأحد:

فلا تيأس إذا حصّلت أمرًا يقطع النفسا

فأقرب ما يكون المرء من فرجٍ إذا يئسا

وقال آخر:

دع المقادير تجري في أعنتها

ولا تبيتن إلا خالي البالِ

ما بين غمضة عين والتفاتتها

يغير الله من حال إلى حالِ

فبعدما صلى الفجر التفت إلى السماء وقال: يا الله.. يا الله، فإذا ضعت في الصحراء فقل: يا الله، إذا وضع أمامك السد والحبس، فقل: يا الله، إذا اشتد بك الكرب فقل: يا الله، إذا ارتجفت بك السفينة، فقل: يا الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢] إذا أُغلقت أمامك الأبواب، وصد أمامك

الحجاب، فقل: يا الله، إذا قطعت السبل، وانتهت الحبال والطرق، فقل: يا الله، فقال كعب: يا الله فلما انتهى، وإذا الصائح يصيح من فوق جبل سلع، يا كعب بن مالك أبشر.. أبشر، نزلت توبتك من السماء، وإذا برجل آخر يسعى في الأرض يبشر، فكان الذي يمشي يريد الوصول إلى كعب ويخبره الخبر، ومن كان فوق الجبل لا يستطيع الوصول فيبشر، فصاح من فوق الجبل ليكون هو الأسبق في البشارة، وبينه وبين الرسول ﷺ المسجد، قال فسجدت لله شكرًا، مَنِ المَشْكُور؟ الواحد الأحد، ومن الذي يفرج؟ الواحد الأحد، ومن ساعة إلى ساعة فرج: ﴿وَلَا تَايْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] قال كعب: سجدت لله شكرًا؛ لأن المفرج هو الله، والتوبة جاءت من عند الله، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] ثم لحق كعب بالذي جاءه بالبشارة فخلع له قميصه وسلمه بدل البشارة، فهم فقراء، ولكنهم باعوا أنفسهم من الله. جمع الرسول ﷺ الصحابة بعد صلاة الفجر، وقال: نزلت توبة كعب بن مالك وصاحبيه، وبشرهم ﷺ؛ لأنه حريص، ولأنه غفور، ورؤوف رحيم بالمؤمنين، قال كعب: فأقبلت ودخلت المسجد وقام لي طلحة بن عبيد الله، فلم أَنْسَ موقف طلحة أبدًا، فعانقني، ولم يقم لي أحد غير طلحة، قال: ونظرت إلى وجه الرسول ﷺ قال: والله الذي لا إله إلا هو إنه يتهلل مثل القمر ليلة التمام:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبرِ

انظر فقط إلى الوجه؛ تعرف أنه وجه صادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكان إذا جاءه الخبر يسره برقت أسارير وجهه كبارق العارض المتهلل كأنه قطعة قمر[1]، والله كأن وجهه كالبارق إذا برق في الليل، ثم أضاء عليه النور وأصبح عليه شيء من الإشراق:

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه ... برقت كبرق العارض المتهللِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨).

يقول ابن عمر: «والله الذي لا إله إلا هو لقد خطبنا ﷺ على المنبر، فدعا بالاستسقاء، وما في السماء سحاب ولا قزعة أمطرت في لحظة، وإني رأيت الماء يتصاب من على وجهه[1]، وإني رأيته يبرق كأنه القمر ليلة أربعة عشر، وإني ذكرت قول أبي طالب فيه ويقول:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمةٌ للأراملِ»

فهذا عمه أبو طالب يمدحه ويقول: يكفي أن تراه ويأتيك الغمام وينزل الغيث، قال ابن عمر: «كنت أتذكر بيت أبي طالب لما أرى وجهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ»، فتهلل وجه الرسول ﷺ لما دخل كعب قال ياكعب: أبشر بخير يوم ولدتك فيه أمك، قال كعب: أمنك يا رسول الله أم من الله؟[2] قال: بل من الله، قال ابن تيمية: فخير يوم بالعبد يوم أن يتوب من الذنوب، فإن التائبين أعظم الناس منازل، فمنزلة التوبة في أول الطريق وفي آخره، ولذلك لما ذهب ﷺ وأصحابه إلى تبوك، قال الله عنهم: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، فالله سبحانه تاب عليهم وغفر لهم، تركوا الأهل والإخوان والخلان، والجيران والولدان، والأموال، فكان جزاؤهم أن تاب الله عليهم وغفر لهم، وتقطعت أقدامهم وذهبت دموعهم ودماؤهم وجاعوا، فبشرهم الله بمغفرة الذنوب والخطايا، تعبوا وسهروا وجالدوا، فبشرهم الله وامتنّ عليهم في تبوك بالتوبة.

ولا تظن أنك مهما اجتهدت في العبادة أنك قدمت شيئًا، فالرسول ﷺ في آخر حياته وبعد جهاده وتضحياته ورسالته ﷺ ومواقفه، قال له الله ﷻ وكان آخر ما نزل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]. فالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٩٣٣)، ومسلم (رقم ٨٩٧).

(٢) حديث كعب بن مالك الطويل، أخرجه البخاري (رقم ٤٤١٨)، ومسلم (رقم ٢٧٦٩).

أخبر هؤلاء الثلاثة أن الله تاب عليهم، فقالوا: من عندك أم عند الله؟ قال: من عند الله. قال كعب: فإن من توبتي يا رسول الله أن انخلع من مالي كله، فلا أترك عقارًا ولا دارًا؛ لأن الله تاب عليّ، قال له ﷺ: «أبق عليك بعض مالك فهو خير لك»، فالرسول ﷺ دائمًا هو الميزان، يقول في الحديث: «إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس»[1]، فقال ﷺ لكعب: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، فتصدق رضي الله عنه بمزرعة كبيرة جعلها في قرابته طيبة الماء والطلع.

هذه بعض معالم غزوة تبوك، ولكن يبقى في سيرة هذا الرجل قصة من داخل القصة، يقول: وأنا في شدة المعاناة وفي الهجر من الصحابة ومن الرسول ﷺ والمسلمين، أتاني كتاب من ملك الروم مكتوب فيه: من ملك الروم إلى كعب بن مالك سمعنا أن صاحبك هجرك - يقصد الرسول ﷺ - والله ما تركك في دار مذلة ولا هوان فالحق بنا نُوَاسِكَ، قال كعب: هذا من البلاء ثم جاء بالخطاب وأحرقه في الموقد![2] وفيه أن أعداء الله يستغلون ثغرات المسلمين من الجبهة الداخلية، ويوحون إلى شياطينهم ممن يسمعون كلامهم أنكم معنا فكونوا في صفنا ونحن نكرمكم ونعزكم فيوالونهم إلا المؤمنين، فهم يعلمون أن الولاء والعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون.

وهنا معلم بارز وهي مسألة التوبة في حديث الثلاثة، فعلينا أن نعلنها صريحة وأن نقول: تبنا إلى الله وندمنا على ما فعلنا واستغفرنا من خطايانا: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، واعلموا أن الله لا يتعاظمه شيء فإنه يحط الخطايا والذنوب، ويغفر السيئات، فهنيئًا لمن استغفر من ذنبه وعاد إلى ربه، فأعلنوها توبةً، فإن الله لا يتعاظمه شيء سبحانه أن يغفره، فالحمد لله الذي جعل التوبة من أوثق ومن أرفع الدرجات، فهي أول الطرق وآخرها.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ١٢٩٥)، ومسلم (رقم ١٦٢٨).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٥٥٤).

يقول ابن تيمية: لو لم تكن التوبة أعز شيء إليه ما ابتلي بالذنب أحب الناس إليه وهو آدم عليه السلام.

◆ وهناك وقفة في غزوة تبوك، جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقال في نفسه: لأسبقن اليوم أبا بكر؛ لأن أبا بكر دائمًا هو الذي يسبق، فأراد أن يسبقه هذه المرة: فقسم ماله نصفين، فأخذ نصفه وذهب به إلى الرسول ﷺ وأعطى أهله نصفًا، فأتى إلى الرسول ﷺ وقال: هذا نصف مالي، قال له ﷺ: «ما تركت لأهلك؟»[1]، قال: تركت لهم النصف، قال: آجرك الله فيما أعطيت وبارك الله لك فيما أبقيت، قلت: يا رسول الله هل سبقنا أحد عندكم؟ وكان عمر رضي الله عنه يعلم أن أبا بكر لا يفوته مثل هذا، فقال ﷺ لعمر: جاء أخوك أبو بكر، فقال عمر: بماذا أتى؟ قال: أتى بماله كله، فقال عمر: والله لا أسابق أبا بكر بعد هذا اليوم!

◆ ومن الوقفات: جلس ﷺ قبل الغزوة يجمع التبرعات، وفتحت في المسجد طريق للتبرعات، وجلس كبار الصحابة، وجلس المنافقون في آخر المسجد، فجاء عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه يحمل كيسًا من الحلي والذهب، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وهو الذي وزع في يوم واحد سبعمائة جمل بأحلاسها وأقتابها وطعامها على فقراء المسلمين في المدينة، فبعدما جاء بالكيس وفتحه أخذ يبرق كأنه سلات السيوف، فتغامز المنافقون ولم يعجبهم، قالوا: والله ما أراد هذا إلا رياءً وسمعة، وهكذا المنافقون إذا رأوا من يتبرع لمشروع قالوا مثل هذا..

وهذا ما قالوه عن عبدالرحمٰن بن عوف تبرع رياءً وسمعة، وجاء رجل اسمه ظهير رضي الله عنه فلم يجد شيئًا فذهب إلى زوجته وقال: هل عندكم مال؟ قالت: لا، قال: أعندكم حلي؟ قالت: لا، قال: عندنا شيء في البيت من التمر؟ قالت: لا، ثم قالت له: اذهب وأجِّر نفسك في أول النهار من يهودي عسى أن يعطيك تمرًا وادخل بالتمر لعل الله أن ينجينا

---

(١) أخرجه أبو داود (رقم ١٦٧٨)، والترمذي (رقم ٣٦٧٦)، وقال: حسن صحيح. وصححه الحاكم (٤١٤/١)، ووافقه الذهبي.

من النار بالتمر، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧] فأجر نفسه إلى الغروب حتى خرج الدم من ظهره، ثم جاء بحفنة ملء الكفين، ودخل بها المسجد والمنافقون والصحابة والناس جلوس، ووضع بين أيديهم هذا التمر، فأتى به إلى الصبرة ثم قال: بسم الله، قال المنافقون: ما شاء الله جهز الجيش! وقال آخر: ما يغني جيش وحفنة تمر، وقال آخر: غلبتم الروم اليوم، قال سبحانه يرد عليهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٩ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]. وأما حالنا اليوم، فلا يخفى على أحد، فأصبح العالِم والمتعلم ورجل الدين محل سخرية واستهزاء، وأصبح القرآن واللحية وتقصير الثياب الدلالات الإسلامية مثار سخرية بين شبابنا، وقد قال سبحانه: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

ومن معالم غزوة تبوك أيضًا:

◆ أن على المسلم أن يهيئ نفسه للجهاد في سبيل الله «من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق»[(١)]. وكان ابن تيمية يصعد الجبلَ وينزل، فقيل له: لماذا؟ قال: أتهيأ للغزو في سبيل الله.

◆ أن المسلم شجاع، ولا تهزه الحوادث، ولا الفتن ولا المحن، لماذا الهلع عند بعض الناس والخوف؟ فقد أخافوا مرة ابن تيمية فقالوا له: «إن السلطان اختار فيك ثلاثًا، قال: ما هي؟ قالوا: إما أن يجعلك في قبرص ينفيك مع النصارى، أو سوف يقتلك ويقطع رأسك، أو يحبسك قال:

لِتَرْمِ بيَ المنايا حيث شاءت ... فإني في الشجاعة قد ربيت

ثم كتب في رسالته الواسطية، قال: والله إني مثل الغنمة (وهذا

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٩١٠).

لفظه) لا تنام إلا على صوف، يقول: أنا أنام قرير العين، إن نفوني إلى قبرص أعلنت الإسلام ودعوت النصارى ودخلوا في الدين، فرزقني الله دخول الناس على يدي في الإسلام، وإن سُجنت فهذه فرصة للخلوة لأتعبد لربي، وإن قتلوني رزقني الله الشهادة، والله الذي لا إله إلا هو لو وزع السرور الذي في صدري على أهل مصر وأهل الشام؛ لوسعهم جميعًا»، فذلك الهلع لا يأتي إلا من قلة الإيمان، وكأن أحدنا يريد أن يعيش ألف سنة، فالحوادث تجعل بعضنا مختبئًا في بيته ولا يعلم متى يموت، وإذا سمع شيئًا قال انتهينا: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤] فعلام نبكي؟ فالجنة خيرٌ لنا، سوف نموت ونغادر الدنيا، سواء مات الإنسان بالتخمة أو بالجلطة، فلماذا الخوف على هذه الحياة، يقول بعض العلماء: «والله ما استرحت في حياتي يومًا كاملاً»، وقال سليمان بن عبدالملك وهو ملك: «حسبت أيام السرور في حياتي؛ فلم أخرج إلا بثلاثة عشر يومًا»! فاعمل للجنة، دار لا نصب فيها ولا صخب ولا تعب ولا إرهاق ولا حزن ولا جوع ولا ظمأ، الجنة الجنة، فتجهزوا للقاء الواحد الأحد، ولا تخافوا، فالشجاعة توجد عند أهل الإيمان وغيرهم؛ لكن أهل الإيمان لا بد أن يكونوا شجعانًا، فاطمئنوا واثبتوا والعاقبة للمتقين، يقول ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إذا أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر فكان خيرًا له»[1][2].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٩٩٩).

(٢) انظر: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، وهي غزوة العسرة، أحاديث (رقم ٤٤١٥ ـ ٤٤٢٣)، والسيرة النبوية (٤/٢١٥ ـ ٢٤٥)، وزاد المعاد (٣/٥٢٦ ـ ٥٩٢)، ومجمع الزوائد (٦/١٩٤ ـ ١٩٨).

الوفود

إن الوفود هم الذين وفدوا على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ يعلنون دخولهم في الإسلام بعد الفتح، فاليوم اكتملت الدعوة، وانتصر ـ والحمد لله ـ رسول الله ﷺ، وأعز الله الدين، ونصر الملة، وسُحقت الخرافة، وانتهت كذبة الكفر، فأين أبو جهل وأبو لهب وهبل واللات والعزى ومناة؟ لا شيء، بقي الله الواحد الأحد، رفع الله كلمته، وثبت الصدق ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء: ١٨]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ [التوبة: ٣٢]. بقي محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وانتهى كل مشرك ووثن، وكل كاذب على الله، ارتفع الصادق المصدوق، خاب أبو جهل وأتباعه إلى يوم الدين، وهذا هو جزاء الصادقين أتباع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ. وهنا نعرض عليكم شيئًا من الوفود الذين سمعوا بالرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فأقبلوا يسلمون عليه، وأقبلوا يعرضون أنفسهم عليه، وأقبلوا يلتمسون منه النور ـ عليه الصلاة والسلام ـ، سواء وفود مكة أو وفود المدينة، الذين بايعوا صاحب السنة، الذي من سار معه نجا، ومن تخلَّف عنه هلك، ثم لا ينفعه ماله وجاهه ومنصبه، ثم يخسأ في نارٍ تلظى، ثم لا يكون أبدًا من حزب الله، فالنجاة مع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وحسب.

ومن الوفود: الطفيل بن عمرو الدوسي، من قبيلة دوس، فقد سمع الناس بمحمد ﷺ، سرت «لا إله إلا الله» في جزيرة العرب، وبعد خمسة وعشرين سنة ذهبت من جزيرة العرب، إلى سيبيريا، إلى بكين، إلى القارات الست حتى أُعلن دينه ـ عليه الصلاة والسلام ـ في كل مكان، تحت الشمس

وتحت القمر، قال الطفيل: «سمعت وأنا في أرض دوس في زهران في جبال السروات، بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، والطفيل شيخ قبيلة دوس، قلت في نفسي: أنا رجل شريف وأنا شاعر وخطيب، والناس يقولون عن محمد: إنه ساحر وكاهن وشاعر، فلماذا لا أسمع بنفسي؟ يقول: لماذا لا أذهب أنا وأقابل هذا الإمام العظيم؟ إن كان صادقًا عرفت، وإن كانت الأخرى ـ حاشاه ـ عرفت، قال: فركبت جملي، وأتيت حتى اقتربت من مكة وكان نازلاً من عقبة الهدى، قال: فلقيني أبو لهب، قال: أين تذهب؟ قلت: أذهب إلى الرجل الصابئ. والصابئ: الذي ترك دين آبائه وذهب إلى دين آخر، قال: لا تذهب إليه هذا رجل منا مسحور ومجنون، فهو ابن أخي، قال: فما زال بي حتى ردني، قال: فلما أمسيت قلت: يا عجبًا لي، آتي من جبال دوس، وأقطع المسافات وأشقى، ثم يردني هذا الرجل، بل أسمع منه، أراد الله ﷻ أن يهديه ويشرح صدره للإسلام، كما أتى ببلال من أرض الحبشة ليدخله الجنة، وأخذ أبا لهب الهاشمي القرشي فأدخله على وجهه في النار، فلا تظننَّ أن دخول الجنة بالبطاقات والواسطات، فالله يدخل عجوزًا الجنة ولو كانت من نيجيريا، ويأتي بأحد الناس عنده شجرة أنساب ولا يصلي في المسجد، ويذكر القصائد في أبيه وجده، ولا يساوي شيئًا عند الواحد الأحد، الجنة لا تنال بالأحساب، بل بالحب لله الواحد الأحد، قال الطفيل: والله لا أعود بجملي ولا بتعبي، بل أبقى حتى يأتي الصباح ثم أدخل عليه في الحرم، فأمسى الرجل وربط جمله وفي الصباح نزل إلى الحرم، وأنت لا تحتاج إلى أحدٍ أن يدلك على محمد ﷺ، أأنت تسأل عن القمر بين النجوم؟! أو تسأل عن الشمس في رابعة النهار؟ قال: فلما رأيته في الحرم عرفت أنه هو! لماذا؟ لأن وجهه ليس بوجه كذاب، فقد رأى وجهه عليه من الجلالة والنور والإيمان، إذا لم يكن الجلال والنور والجمال في وجه محمد ﷺ فأين يكون؟!

قال فذهبت إليه، قلت له: عم صباحًا يا أخا العرب، هذه أول تحية وهي تحية الجاهلية، وعندنا في الإسلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «إن الله أبدلني تحية خيرًا من

تحيتك»، قلت: ما هي؟ قال: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1]، فسلمت فرد عليَّ السلام، يقول الطفيل: والله ما زال بي أبو لهب وكفار قريش يخوفونني منه ويحذرونني حتى جعلت القطن في أذني، ثم قلت: لماذا لا أنزع القطن، فأنا أفهم الكلام وأنا شاعر وخطيب فصيح، فإن كان ما يقول حقًّا تبعته، ثم نزع القطن، وهذه أول مسألة حتى يدخل النور والهداية، قال: فتلا عليَّ من القرآن شيئًا، فوقع القرآن في قلبي، فقلت: بم بُعثت؟ قال: بُعثت بلا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأن يعبد الله وحده لا شريك له، ثم بيَّن الصدق والأمانة، قلت: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، قال: ائذن لي يا رسول الله أن أذهب إلى قومي، قال: اذهب إليهم، فذهب إليهم، فدعاهم إلى الله فأنكروا ورفضوا؛ لأن هذا الدين كان جديدًا عليهم، فاجتمعت القبيلة كلها، وبعض الناس يجتمعون على ضلالة، قال: يا عباد الله أنا جئتكم من عند محمد ﷺ، قولوا «لا إله إلا الله» تفلحوا، قالوا: تغير دين آبائنا وأجدادنا، أبدًا لا نغيِّر، فرجع مغضبًا رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ قال: يا رسول الله ادعُ الله على دوس، يريد أن يستمطر العذاب من السماء؛ لأنهم طردوه وآذوه وهو سيدهم وشيخهم، فتوضأ ﷺ، فيقول الطفيل في نفسه: هلكت دوس، اليوم ستأتيهم صواعق من السماء، قال: فدعا واستقبل القبلة، الرحمة المهداة، أرحم الناس وألطفهم وأعفهم، قال: فرفع يديه، قال: «اللهم اهدِ دوسًا وأتِ بهم، اللهم اهدِ دوسًا، اللهم اهدِ دوسًا»، ثم قال للطفيل: اذهب إليهم وادعهم الآن. الآن تغيرت قلوبهم، جاءهم الدعاء من السماء، قلت: يا رسول الله؛ اجعل لي علامة تدل على أني جئت من عندك حتى يصدقوني، فدعا له فجعل الله في جبينه نورًا، ثم مشى ليلاً من مكة حتى أضاءت له الجبال، فرجع إلى رسول الله ﷺ، قال: يا رسول الله ادعُ الله أن يجعل النور في عصاي، ثم دعا له ﷺ فقال: «اللهم اجعل النور في عصاه»، فأتى في الموقف فكان يرفع عصاه في الليل فتضيء لها جبال السروات، فينزلها في

---

(١) انظر السيرة النبوية (٢/٢٥ ـ ٢٨).

الوادي فتضيء لها الوديان، قال: ثم وفدت إلى دوس وجمعتهم، قلت: دمي من دمكم حرام، وهدمي من هدمكم حرام، وهذه مفاصلة الموحدين؛ حين تجلس في أسرة لا تصلي ولا تصوم ولا تزكي وتحارب الواحد الأحد، حين تعيش مع أناس خونة يستهزئون بالقرآن والسنة والعلماء، فيجب حينها المفاصلة، إلا أن يؤمنوا بالله، فقالوا للطفيل: آمنا بالله، قال: اشهدوا أن لا إله إلا الله، قالوا: شهدنا أن لا إله إلا الله، قال: وأن محمدًا رسول الله، قالوا: وأن محمدًا رسول الله، فشهدوا فآمنوا عن بكرة أبيهم، وأسلموا، قالوا: عندك علامة، قال: إذا جاء الليل أخبرتكم، فجاء الليل فرفع عصاه، فأضاءت جبال زهران، فخفضها فأضاءت الأودية[1]، قالوا: صدقنا قبل هذا، قالوا: نذهب إلى محمد ﷺ، وتحركت قافلة دوس إلى الرسول ﷺ، تريد أن تهاجر في سبيل الله، وتنتقل لتفدي بدمائها الإسلام والدين، فهاجرت إلى محمد ﷺ، وأما أبو هريرة فأخذ جملاً وضاع بجمله رضي الله عنه وأتى إلى المدينة بعد أيام طويلة وقال:

أيا رحلة من جورها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نجَّتِ

يقول: ضعنا مع الجمل، ولكن الحمد لله الذي أنجانا من الكفر، وترك أبو هريرة أمه العجوز في البيت، لأنها أبت أن تسلم، فأجلسها في البيت وقال لها: اجلسي مكانك، وسأذهب إلى رسول الله ﷺ، قالت: لا ردّك الله ولا ردّ الذي تذهب إليه أو شيئًا من ذلك، قال أهل العلم: سبَّت، فأتى أبو هريرة باكيًا للرسول ﷺ، وشهد عند الرسول ﷺ، فقال له: ما لك تبكي؟ قال: يا رسول الله، أمي أسمعتني فيك كلامًا، فقال ﷺ: «اللهم اهد أم أبي هريرة، اللهم اهد أم أبي هريرة»، قال: فرجعت إلى أمي فإذا هي تغتسل خلف الباب وتقول: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»، قال: فرجعت للرسول ﷺ، أبكي فرحًا، فقلت: يا رسول الله أتيت إليها وقد أسلمت، فادعُ الله أن يحببني أنا وإياها إلى صالح المؤمنين، قال: «اللهم حبب أبا هريرة وأمه إلى صالح المؤمنين»، قال أبو هريرة:

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/٦٢٤ ـ ٦٢٨)، والسيرة النبوية (٢/٢٥).

والله ما رآني أحد إلا أحبني أنا وأمي. فانظر إلى هذا الخلق منه ﷺ، وانظر إلى هذا اللين والرحمة منه ﷺ، وأما سيدهم وشيخهم الطفيل بن عمرو فأبى إلا أن يكون في مقدمة الصف، قال: أنا يا رسول الله سيفك المصلت، سلَّني متى شئت، وأغمدني متى شئت، فكان مهاجرًا صادقًا، فلما أتت معركة اليمامة باع نفسه من الله، ولبس الأكفان، وقال لابنه: رأيت البارحة في المنام أن الحرب قامت، وأن رأسي قد حُلق، وأنني دخلت في جوف أرض، قال: ما أوَّلت ذلك؟! قال: أوَّلت ذلك أنني أُقتل، وأن الأرض تضمني، فبدأت المعركة وقُتِل شهيدًا في سبيل الله!! وذهب إلى الله ليوفيه أجر ما قدم من الجهاد والإيمان والتضحية مع محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأما ابنه فقطعت يده اليمنى في سبيل الله، فكان يأكل بيساره، فأتى إلى عمر رضي الله عنه، وكان عمر يأكل مع الصحابة فقدموا الجفنة (القصعة) إليه، فدعا ابن الطفيل إلى الغداء، قال: يا أمير المؤمنين آكل وحدي، قال: ولِمَ؟ قال: لأن يميني قُطعت في سبيل الله، وأنا آكل بيساري ـ حتى لا يتقذر الناس ـ قال عمر: وقد دمعت عيناه: نتقذر منك!! والله الذي لا إله إلا هو لا نأكل حتى تسوط الجفنة هذه بيدك كلها!! ذكر هذا الذهبي وابن كثير، وكأنه يقول: يدك اليمنى أصبحت أمامك في الجنة، وهذا منطق أهل الإيمان، وقد قدم عمر رضي الله عنه جسمه كله لله وأصبح كله في الجنة؛ لأنه بطل المحراب رضي الله عنه وهو الذي يقول: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، وميتة في بلد رسولك، قالت حفصة ابنته: يا أمير المؤمنين تطلب الشهادة، وتشترط على الله أن تكون في المدينة، قال عمر: هكذا سألت وأسال الله أن يلبي ما سألت، فآتاه الله الشهادة في المحراب في صلاة الفجر وهو يقرأ سورة يوسف:

قل للملوك تنحوا عن مناصبكم ... فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها
يا من يرى عمرًا تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقًا ... من خوفه وملوك الروم تخشاه

ومن الوفود ضماد الأزدي من أزد شنوءة، قال: سمعت من أبي لهب وغيره أن رسول الله ﷺ مسحور، فهل عندي طب؟ قال: فأخذت علاجي

ودوائي من بلاد الأزد، وذهبت لأداويه وأعالجه، فجاء ضماد بالنباتات والأعشاب، ليعالج محمدًا ﷺ!! الذي عالج مرضى القلوب، وعالج العالم، وأقبل ضماد على الرسول ﷺ، وقال: يا محمد، قال: ما لك؟ قال: عندي علاج وأعشاب سمعت أنك مطبوب - أي مسحور - فأتيت أعالجك شفاك الله، قال - عليه الصلاة والسلام -: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له»[1]، قال ضماد: أعد عليّ الكلام، هل المطبوب والمسحور يقول مثل هذا الكلام الذي يفجر الصخور؟! قال: فأعاد، قال: أعد عليَّ الكلام: فأعاد، قال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله»، فهذا الرجل آمن بعدما قابل الرسول ﷺ، وعاد إلى قومه مسلمًا مؤمنًا.

ومن الوفود عدي بن حاتم الطائي وفد إلى الرسول ﷺ بعد أن فرَّ (عدي) إلى الشام، وأتت جيوش خالد إلى حائل، ثم أُسرت أخته سفّانة، وأتوا بها إلى الرسول ﷺ، فأكرمها ﷺ وردّها، فلما لقيت أخاها قالت: أين أنت أيها القاطع؟! ذهبت وتركتني، وشردت وخلّفتني، أتيت من عند خير الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، فأتى عدي بن حاتم فرأى الرسول ﷺ، فأجلسه ﷺ في بيته، وقدم له وسادة فأبى أن يجلس عليها وأبى كذلك ﷺ، وقال ﷺ: أشهد أنك من الذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فسادًا، وكان عدي على ملة النصارى، فأنزل الله جبريل - وعدي كان جالسًا - بقوله ﷻ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] قال: يا رسول الله ما عبدناهم؟ قال: «بلى، أما يحلون لكم الحرام فتحلونه، ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه؟»، قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم!»[2] ثم قال ﷺ: «تفرُّ يا عدي منا؟ تفر أن يُقال لا إله إلا الله؟ هل تعلم إلهًا غير الله؟ تفر أن يُقال الله أكبر؟ هل

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٦٨).
(٢) أخرجه الترمذي (رقم ٣٠٩٥)، وقال: حسن غريب. وحسّنه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٦٧/٧).

تعلم أكبر من الله؟»، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله!

وحضر عدي ـ بعد ذلك ـ في حروب الردة، وقال لقبيلته طيئ: «والله ما يرتد منكم أحد إلا ذبحته، فاختاروا إما أن تقتلوا في سبيل الله، وإما أن أقتلكم أنا»!! وحضر القادسية وسلَّ السيف، وتترس وراء قبيلته، قال: «والله لا يصد منكم اليوم أحد إلا ذبحته»، فصمدوا حتى انتصر الإسلام[1].

ومن الوفود: قيس بن عاصم المنقري، سيد بني تميم، وهو من أحلم العرب، قيل للأحنف بن قيس، وهو الذي يُضرب به المثل في الحلم: ممن تعلمت الحلم؟ قال: تعلمته من قيس بن عاصم المنقري، سيد بني تميم، قيل: وكيف حلمه؟ قال: كنا جلوسًا معه، وكان محتبيًا، يقص علينا قصة، وإذا بابنه يدخل علينا يصيح مذعورًا خائفًا وجلاً: يا أبتاه!! قال: ما لك؟ قال: ابن فلانة قتل أخي الآن، قال: قتله؟!! قال: نعم، قال: ومات؟! قال: مات، قال: والله ما حلَّ حبوته ـ أي لم يغير من جلسته ـ ولا أنهى قصته!! ثم قال: كفنوه وإذا انتهيتم أخبروني، قال: فلما انتهوا صلينا عليه، ثم قال: ادفعوا لأمه ـ أي زوجته ـ من عندي مائة ناقة؛ لأن أم القاتل فقيرة وهي غريبة علينا فلا نروعها!! ودفع الدية وما دمعت عينه، وما قطع قصته، ولا حلَّ حبوته، وصلى على ابنه، فكان ﷺ يريد أن يرى قيس بن عاصم؛ لأن العرب كانت تمدحه؛ حتى يقول أحدهم:

عليك سلام الله قيس بن عاصم ورحمته ما شاء أن يترحما
تَحِيَّةَ من ألبسته منك نعمةً إذا زار عن شَحْطٍ بلادك سَلَّما
وما كان قيس موته موت واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدما

وفد قيس بن عاصم على الرسول ﷺ من ضمن عشرة أخذوا شاعرهم، وأخذوا شيخهم، وأخذوا خطيبهم، وأخذوا معبر الرؤيا لهم، وأخذوا فارسهم، فكان وفد بني تميم عشرة منهم شيخهم قيس بن عاصم،

(١) انظر: السيرة النبوية (٤/٢٩٨ ـ ٣٠١).

فلما دخلوا على النبي ﷺ في المسجد قالوا: ما نسلم، قال ﷺ: ولم؟ قالوا: حتى نفاخرك، عندنا شاعر وخطيب، وعندك شاعر وخطيب، فإن انتصرت علينا أسلمنا، وإلا نرجع، فجهز ﷺ لهم حسان بن ثابت، فالرسول ﷺ إذا دعوه إلى المعركة قدم خالدًا وعليًا، وإذا أتوا بالشعر فحسان، وإذا أتوا بالخطابة فثابت بن قيس بن شماس، وهكذا، قال ﷺ: ادعُوا لي حسان، فأتوا بحسان رضي الله عنه، قال: كيف أنت؟ قال حسان: يا رسول الله انظر! فأخرج حسان لسانه وضرب أرنبة أنفه، قال: يا رسول الله معي لسان لو وضعته على شعر لحلقه، ولو وضعته على حجر لفلقه، فكان ﷺ يقرب له المنبر ويقول: «اهجهم وروح القدس يؤيدك»[1]، ولذلك فالإسلام بحاجة إلى خطابة، وقصائد ودروس ومحاضرات، فكلٌّ يقول كلمته، وقال ﷺ: ادعوا لي ثابت بن قيس بن شماس؛ لأنه خطيب مفوّه، فقال: كيف أنت يا ثابت؟ قال: معك يا رسول الله أنا سيفك، ثم تقدم شاعرهم واسمه الزبرقان بن بدر فألقى قصيدة قوية، يقول فيها:

نحن الملوك فلا حي يغالبنا   منا الملوك وفينا تنصب البِيعُ

ثم أنشد حسان قصيدته:

إن الذوائب من فهرٍ وإخوتهم   قد بيّنوا سنة للناس تتبعُ

إلى أن ختم القصيدة، فقام خطيبهم فخطب، فقام ثابت خطيب الرسول ﷺ على المنبر، فألقى كلمات مثل الصواعق، قالوا: غلب خطيبك خطيبنا وشاعرك شاعرنا، نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فتبعوه.

وأما وفود بني سعد: وهم الذين يسكنون الطائف، وهم من عتيبة من هوازن، وهم إخوان الرسول ﷺ من الرضاعة، فوفد منهم ضمام بن ثعلبة فأتى إلى الرسول ﷺ بناقة عنده، فعقل الناقة في طرف المسجد، والرسول ﷺ متكىء، والصحابة يستمعون له كأن على رؤوسهم الطير، قال ضمام: أين ابن عبد المطلب؟ ـ يقصد الرسول ﷺ ـ وكان يشق الصفوف

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٢١٣، ٤١٢٤، ٦١٥٣)، ومسلم (رقم ٢٤٨٦).

وهو يرتكز على عصاه ويتخطى الناس، قال ﷺ: قد أجبتك، ولم يغضب ﷺ ولم يتأثر، قال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، قال: سل ما بدا لك.

قال: من رفع السماء؟ قال: الله، قال: من بسط الأرض؟ قال: الله، قال: من نصب الجبال؟ قال: الله، قال: فإني سائلك بمن رفع السماء وبسط الأرض ونصب الجبال، آلله أرسلك إلينا رسولاً؟ فجلس - عليه الصلاة والسلام - واحمرّ وجهه، وقال: اللهم نعم، فأعاد المسألة قال: آلله أمرك أن تأمرنا بخمس صلوات في اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم، قال آلله أمرك أن نصوم شهر رمضان؟ قال: اللهم نعم، قال: آلله أمرك أن نزكي زكاة أموالنا؟ قال: اللهم نعم، قال: آلله أمرك أن نحج البيت مرةً في العمر؟، قال: اللهم نعم، قال: فأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، والله لا أزيد على ما سمعت ولا أنقص أنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر، ثم ولى إلى ناقته، فتبسم ﷺ وقال: «من سرَّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا»[(١)(٢)].

ثم وفد وَفْدُ عبد القيس - وهم من الأحساء - إلى الرسول ﷺ، وكان عددهم أربعون رجلاً، فلما أتوا عند المسجد، عقلوا جمالهم حول مسجد الرسول ﷺ، وأتوا عَجِلين فلبسوا ثيابهم، وتزاحموا عند باب المسجد وسلموا على الرسول ﷺ، إلا واحدًا منهم كان عاقلاً أديبًا أريبًا، اسمه أشج بن عبد القيس، نزل وعقل جمله، وذهب إلى الوادي فاغتسل ولبس حلة جميلة، وسرَّح شعره، وتطيب وأخذ سواكًا، ثم أخذ عصا وأخذ يمشي على هونه، وسبقه الوفد وأخذوا أماكنهم في المسجد، فقال ﷺ: من القوم؟ قالوا: عبد قيس، قال: «مرحبًا بالوفد غير خزايا ولا ندامى»[(٣)]، يقول ﷺ: حياكم الله، فلا تخزون في المسير ولا تندمون على الرحلة،

---

(١) أخرجه البخاري مختصرًا (رقم ١٣٩٧)، ومسلم واللفظ له (رقم ١٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية (٢٩١/٤ - ٢٩٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٥٣)، ومسلم (رقم ١٧).

قالوا: يا رسول الله سمعنا أن الله أرسلك، قال: أرسلني، قالوا: بم أرسلك؟ قال: «أرسلني بأن آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع، فآمركم أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة، وتصوموا، (والحج لم ينزل ذاك الوقت)، وأنهاكم عن الدباء، والحنتم والنقير والمزفت»، (فهذه أواني للمشروبات كانوا ينحتونها ويشربون فيها الخمر)، ثم التفت ﷺ وقال لأشج بن عبد القيس: «مَنْ أنت؟» قال: أنا أشج بن عبد القيس، قال: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة»، قال: هل جبلني الله عليهما أم تخلَّقت بهما؟ قال: «الله جبلك عليهما»[(١)]، فالحلم: هو العقل وقيل: سعة البال، والأناة: الهدوء، فقال: الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما الله.

ثم أتى وفد عامر بن صعصعة فجلسوا، فقال ﷺ: «من الوفد؟» قالوا: عامر بن صعصعة، وهذا الوفد منهم الشاعر المجيد الكبير لبيد بن ربيعة الذي لما أسلم حفظ سورة البقرة وعمره ثمانون سنة!! وقال: والله لا أنظم بيتًا بعد سورة البقرة، وإذا نظمت بيتًا أعتق رقبة، ثم قال:

الحمد لله إذْ لم يأتِني أجلي ... حتَّى اكتسيت من الإسلام سِرْبالاً

فلما جاء وفد عامر بن صعصعة قالوا للرسول ﷺ: أنت سيدنا وابن سيدنا وأفضلنا، أنت أطولنا طولاً، يمدحون محمدًا ﷺ الذي مدحه رب العالمين، يقول سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، قال ﷺ: «يا أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبدالله ورسول الله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق ما رفعني الله ﷻ»، وفي رواية «ولا يستجرينكم الشيطان»[(٢)]، فسكتوا، فقال عامر بن الطفيل: أنا لي الوبر ولك المدر، فهو يشترط على

(١) أخرجه مسلم (رقم ١٧، ٢٥).
(٢) أخرجه أبو داود (رقم ٤٨٠٦)، وأحمد (١٣٥/٣، ٢٤١) (٢٥/٤).

الرسول ﷺ أنه إذا أسلم تكون البادية كلها له، والحاضرة لمحمد ﷺ! قال - عليه الصلاة والسلام -: الأرض لله يورثها من يشاء، أسلم تسلم، ليست لي ولا لك، قل لا إله إلا الله وأسلم، ثم قال عامر بن الطفيل لرجل معه اسمه أربد: أنا سأدعو محمدًا ﷺ وأخرج به من الزحام أو من المدينة، فإذا بدأت بمشاغلته بالكلام اضرب رأسه، واقتله حتى ننتقم للعرب جميعًا، قال أربد: أبشر[1]، يريدون قتل محمد ﷺ، والواحد الأحد معه ﷺ؛ يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، فالله سبحانه يكفيه عن المواكب والحرس والخدم:

كأنه وهو فردٌ في جلالته ... في موكب حين تلقاه وفي حشمِ
عناية الله أغنت عن مضاعفة ... من الدروع وعن عالٍ من الأطمِ

فأتى عامر بن الطفيل فقال: أريدك يا رسول الله في كلمة، فخرج ﷺ معه في ثيابه، لا خنجر ولا حراسة ولا سيوف ولا شيئًا من ذلك، فلما تواروا عن البيوت، نظر عامر بن الطفيل إلى اربد بن قيس، يعني أنا أشغل محمدًا وأنت اقتله!! فأخذ عامر بن الطفيل يحدث الرسول ﷺ، والرسول ﷺ يصغي إليه، واربد لم يحرك ساكنًا، وأخذ عامر يواصل حديثه مع الرسول ﷺ، فقال: أما ترضى يا رسول الله أن يكون لي أنا الوبر ولك المدر، قال ﷺ: «الأرض لله يورثها من يشاء»، وعامر يشير لصاحبه بأن اضرب، وأربد لم يضرب وطال الأمر به، ثم تفرقا، فقال عامر لصاحبه اربد: هدمي من هدمك حرام، ودمي من دمك حرام، لا ترافقني، ما رأيت أجبن منك اليوم، قال أربد: لا تعجل عليّ والله ما هممت ورفعت رأسي إلا وجدتك بيني وبينه!! أفأضربك أنت؟! فالله سبحانه وتعالى صوّر لأربد وخيَّل عليه صورة عامر أمامه، فكلما رفع السيف وإذا بالطفيل بينه وبين الرسول ﷺ، وعلم ﷺ أنها مكيدة، فالتفت ﷺ إليهما وقد ولَّيا بالجملين، فقال: «اللهم اكفنيهم بما شئت»، فأصاب الطاعون الطفيل في بيت امرأة من بني فلان،

---

(١) انظر السيرة النبوية (٢٨٤/٤ - ٢٨٥).

وانتفخت غدته، وأصبحت مثل القربة ثم نزلت، قال عامر: غدة كغدة البعير في بيت امرأة من بني فلان، يقول: أموت هكذا، لا أنا في معركة ولا على فرس، أركبوني على فرسي، وأخذت غدته تنزل حتى سقطت على فخذه، ثم انتحر فمات على الفرس، وأما اربد فقد شرد ولم يدفنه، ثم ذهب اربد إلى السوق في اليوم التالي ومعه بضاعة، فأنزل الله عليه صاعقة فأخذته وأخذت الجمل[١].

ووفد على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحصين بن عبيد الخزاعي، فسلم على الرسول ﷺ وقال: أنا من خزاعة، قال ﷺ: «كم تعبد؟» قال: أعبد سبعة، قال: أين هم؟ قال: ستة في الأرض وواحد في السماء، فقال له ﷺ: «من لرغبك ورهبك؟» قال: الذي في السماء، قال: فاترك الذي في الأرض، واعبد الذي في السماء، قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله».

ووفد وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب قاتله الله، فقال مسيلمة الكذاب: يا محمد اجعل لي الوبر ولك المدر، قال ﷺ: «الأرض لله يورثها من يشاء، والذي نفسي بيده لو سألتني في هذا السوط ما أعطيتك وإن تتولَ يأخذك الله»[٢]، فعلم ﷺ أنه رجل كذّاب، وأنه سوف تكون له عاقبة سيئة مع أهل الإيمان، يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «نمت البارحة فرأيت في يدي سوارين من ذهب فهمّني شأنهما، قيل لي: انفخهما في المنام فنفختهما فطارا»، قالوا: ما أوّلت ذلك يا رسول الله؟ قال: «كذابين، كذاب في اليمامة يقال له مسيلمة، وكذاب في صنعاء الأسود العنسي»[٣]، أما مسيلمة فارتد، وأما بنو حنيفة فأسلموا فيما بعد، ومسيلمة ذبحه الله في اليمامة بجيش خالد بن الوليد[٤].

---

(١) انظر: السيرة النبوية (٤/٢٨٤ ـ ٢٨٦).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٢٠، ٤٣٧٨)، ومسلم (رقم ٢٢٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٣٧٤)، ومسلم (رقم ٢٢٧٣، ٢٢٧٤).

(٤) انظر: زاد المعاد (٣/٦١٠ ـ ٦١٣).

وجاء وفد اليمن فوفدوا على الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فقال ﷺ قبل أن يصلوا: أتاكم وفد اليمن «الإيمان يمان، والحكمة يمانية»[1]، فصافحوا الرسول ﷺ وقبلوا البشرى، وذهب معهم معاذ فكان من خير الوفود، وأسلموا عن بكرة أبيهم، فلم يقاتلوا ولم يردوا على وفد الرسول ﷺ، بل أكرموهم وأنزلوهم المنزلة اللائقة بهم، فشكرهم - عليه الصلاة والسلام -، وأثنى عليهم ودعا لهم ﷺ.

ومن الوفود الذين وفدت وفد الأزد، أتوا إلى الرسول ﷺ، قيل: إنهم عشرون، وقيل: ثلاثون، فنزلوا على الرسول ﷺ، قال: من القوم؟ قالوا: من أزد شنوءة، قال: ماذا جئتم به؟ قالوا: خمس أمرنا الله بها، وخمس أنت أمرتنا بها، وخمس تخلقنا بها من أخلاق الجاهلية، فأتوا بعقل وترتيب حديث، وبهدوء قال: ما الخمس التي أمركم الله؟ قالوا: أن نعبدالله ولا نشرك به شيئًا، ونؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، قال: والخمس التي أمرتكم؟ قالوا: أمرتنا بأن نشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج، قال: والخمس التي تخلقتم بها من أخلاق الجاهلية؟ قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء، فقال ﷺ: «حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء»، ثم قال: «وأنا أزيدكم خمسًا لكم فتتم عشرون خصلة إن كنتم كما تقولون، فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدًا تزولون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون، وفيه تخلدون»[2]، فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ وقد قبلوا وصيته، واتبعوا سنته وكانوا من أحسن الوفود، وفي قصتهم أمور منها:

١ - أن على الإنسان إذا وَفَدَ في وَفْد أن يرتب حديثه وكلامه ويزوّر ويحسن ويجمل حديثًا مرتبًا في نفسه.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٤٩٩)، ومسلم (رقم ٥٢).

(٢) انظر: زاد المعاد (٣/٦٧٢ - ٦٧٣)، وقال محققا الزاد: سنده ضعيف.

٢ ـ أن بعض خصال الجاهلية مطلوبة إذا أقرها الإسلام مثل قولهم: الشكر عند الرخاء؛ ومعنى ذلك أن الله إذا أنعم عليك؛ فعليك أن تشكره سبحانه، فليس هناك مشكور ولا منعم حقيقة إلا الواحد الأحد ـ جل في علاه ـ فما من نعمة في قديم أو حديث كبيرة أو صغيرة، وصلتنا أفرادًا أو جماعات إلا من عند الواحد الأحد، فاشكروه ﷻ شكرًا باللسان، وشكرًا بالأركان، وشكرًا بالجنان.

٣ ـ الصبر عند البلاء؛ فإذا نزل بالمسلمين نازلة، أو أتتهم محنة، أو حل بهم خطب، أو ألَمَّ بهم كرب، فعليهم أن يصبروا على ذلك حتى يجتازوها بإذن الله، فإن مع العسر يسرًا.

وفي ظل ما نعيش فيه من أزمات، أوصي بعدة أمور:

الأمر الأول: الصبر والهدوء والثبات، وعدم اليأس والفشل والإحباط، واعلموا أن الفجر لنا متى ما اعتصمنا بالله، والمستقبل معنا متى ما اهتدينا بهدي رسول الله ﷺ، واعلموا أن كل أزمة فيها مصلحة وخير، لا يتشاءم منكم متشائم، أو يقول هذه نهاية المسلمين، لا.. يقول سبحانه: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]، ويقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩] فالخير الكثير فيما كتبه الله، فاصبروا.

والأمر الثاني: لا تقبلوا الشائعات والأراجيف التي يبثها بعض التافهين من الناس ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة: ٤٧]، وعليكم أن تمحصوا الخبر، وأن تتحققوا من الأمر، مما يبث ومما يعلن، ولا يحدث الإنسان بكل ما سمع، فإن هذا من شر خصال الرجال أن ينقل كل ما سمع، قال ﷺ: «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**»(١).

والأمر الثالث: آمركم بالدعاء واللجوء إلى الواحد الأحد، وكثرة الاستغفار ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) أخرجه مسلم (رقم ٥).

مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فلا مفر إلا إلى الله، ولا يجيب المضطر إلا هو ﷻ، أكثروا الدعاء في صلواتكم، وفي أدبارها، وفي السجود، بنصر الإسلام، هل عندكم أعظم وأحب إليكم من هذا الدين العظيم، ادعوا ومروا نساءكم، وأمهاتكم وآباءكم والصالحين والصائمين أن يدعوا بنصرة الإسلام، وأن يمحق أعداء الدين.

الأمر الرابع: الرضا بمر القضاء؛ وهو أن نرضى بالقضاء خيره وشره، حدثنا أحد العلماء عن الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين ـ رحمه الله ـ لما أُخبر بمرض عضال في جسمه، سلَّم وقال: الحمد لله، هذا أسعد ما أتاني من الأخبار؛ لأننا كنا نتعلم ونعلم الناس الرضا بالقضاء خيره وشره وحلوه ومره. أما أن ترضى بالقضاء إذا بُشرت بمال أو نجح ابنك أو رزقت بمولود، فأما إذا ماتت ابنتك، قلت: ما هذا؟! بل تؤمن بالقضاء خيره وشره، حلوه ومره، فإذا جاءك أمر تحبه أو تكرهه فقل: رضينا وسلَّمنا، مرحبًا بقضاء الله أهلاً وسهلاً بما كتب الله، نحن عبادك يا رب تصرف فينا، لك ما أخذت ولك ما أعطيت لا اعتراض، أنت المتصرف في الكون، أنت الذي إذا حكم فلا راد لحكمك.

الأمر الخامس: الصدق في مواطن اللقاء؛ يعني إذا لقيتم القوم وجاهدتم فعليكم بالصدق.

الأمر السادس: ترك الشماتة بالأعداء؛ فلا تشمت بأخيك المسلم فيعافيه الله ويبتليك، إن سمعت أنه سُجن فلا تشمت فيبتليك الله، قال ابن سيرين: شمتُّ برجل ركبه الدين فحبست بالدين.

يقول عدي بن زيد في قصيدة له من أحسن القصائد، وكان ابن المبارك إذا سمعها دمعت عيناه، وكان يقول عنها: والله إن قصيدة عدي بن زيد أحسن عندي من قصر طاهر بن حسين الأمير لو كان القصر لي!! يقول عدي:

أيها الشامت المعيِّر بالدهر　　　أأنت المبرأ الموفورُ؟!

يقول: الذي يضحك منا بالمصيبة بأن مات أبناؤنا، أو حُبسنا أو افتقرنا، فهل أنت مبرأ ولديك صك من الله ما تأتيك المصائب؟ بل تأتيك المصائب، والنكبات والكوارث، والله ما من عين ولا بيت يمتلئ حبرة إلا ويمتلئ عبرة، والله ما من إنسان إلا سوف تدمع عينه، ويموت ويفارق ابنه ويفارق أباه، إن اغتنى سوف يفتقر، وإن عز سوف يذل، وإن صح فسوف يسقم، فلا تشمت بأحد، لا تفرح بأن حاسدك مات أو عدوك أو من بينك وبينه موقف شخصي، أو حاجز نفسي، لا، الواجب عليك إذا سمعت بموت مسلم ولو كان بينك وبينه موقف، أن تدعو له بالرحمة والمغفرة والستر، حتى لو وقع إنسان من شباب المسلمين في زلة فلا تفرح، وتمدح نفسك وتقول: أبناؤنا والحمد لله ربيناهم تربية إسلامية مستقيمة، من أنت؟ فالله الذي حمى وتكفل وهدى فلا تشمت بمسلم، بل الواجب أن تبكي وتدعو الله بأن يصلح شباب المسلمين، ويردهم إليه ردًّا جميلاً وتدعو لهم بالحفظ والستر، وإذا سمعت بمصيبة وقعت على رجل أو امرأة، فلا تشمت ولا تنشرها: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا﴾ [النور: ١٢] فالمقصود أن الشماتة بالمسلمين لا تجوز، أما الشماتة بالأعداء غير المسلمين من الكفار فهذا مطلوب.

الأمر السابع: في آخر الوصية يقول ـ عليه الصلاة والسلام ـ فيما يُروى عنه قال: «إن كنتم كما تقولون فلا تجمعوا ما لا تأكلون»، وهو يعني اكتناز الأطعمة الطائلة وعباد الله يموتون جوعًا ولا يجدون كسرة خبز، حتى تجد بعض التجار يحتكر البضائع لأيام الغلاء ثم يبيعها، فهذا التاجر سوف يموت ذليلاً حقيرًا لا ينفعه ماله في الدنيا ولا في الآخرة، فإذا لم تتصدق وتطعم وتبذل وتبني المساجد فماذا ينفعك مالك؟ سوف تموت وتدفن مثل ما يُدفن أي إنسان في العالم، ثم يخلفك أحد رجلين، إن كان ابنك تقيًّا فسوف يأخذ مالك وينساك، وإن كان شقيًّا ركب بها المعاصي وعليك قسط من الذنب؛ لأنك أعنته بمالك الذي تركته.

الأمر الثامن: قوله ﷺ: «ولا تبنوا ما لا تسكنون»؛ لأن بعض الناس مغرم بالبناء والعمار، فدائمًا تجده يعمِّر كأنه أصبح خالدًا مخلدًا، وفي

الحديث يقول ﷺ: «فراش لك، وفراش لزوجتك، وفراش للضيف، والرابع للشيطان»[1]، ولكن الآن بيوت وعمارات لا حد لها ولا أول ولا آخر، فأقول: أين الذين بنوا؟ وأين الذين شادوا؟ وأين أهل القصور؟

أين من شادوا وسادوا وبنوا ... فنيَ الكلُّ ولم تُغنِ القُلَلْ
كُتب الموت على الكل فكم ... فلَّ من جيشٍ وأفنى من دولْ

وقال آخر:

يا عامرًا لخراب الدار تعمرها ... بالله هل لخراب الدار عمرانُ؟!
ويا حريصًا على الأموال تجمعها ... أقصر فإن سرور المال أحزانُ

الأمر التاسع: قوله ﷺ: «ولا تنافسوا في شيء أنتم عنه غدًا تزولون»، فالمنافسة تكون في العمل الصالح، فلا تغبط أحدًا إذا رأيته محافظًا على الصلوات الخمس، ويحفظ القرآن ويحضر الدروس، ويتخلق بالأخلاق والآداب الإسلامية.

وممن وفدوا على الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، نابغة بني جعدة، قال: يا رسول الله أنا شاعر، قال ﷺ: أسمعني من شعرك، فقال النابغة:

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا ... وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا
تذكرت والذكرى تَهِيجُ لِذِي الهَوى ... ومن عادة المحزون أن يتذكرا
سقيناهمو كأسًا سقونا بمثلها ... ولكننا كنا على الموت أصبرا

فقال ﷺ: «أين فوق السماء؟! إلى أين يا أبا ليلى؟» قال: إلى الجنة يا رسول الله، قال: «لا فض فوك»، فعاش مائة وعشرين ما سقط له سن؛ بدعوة محمد ﷺ، يقول: اللهم لا تكسر هذه الأسنان التي تأتي بالكلام الطيب، لأن بعض الناس يأتي ببيت أحسن من الدنيا وما فيها مثل كلام حسان رضي الله عنه وكلام أهل العلم والدعوة وكلام أهل النصح.

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٠٨٤).

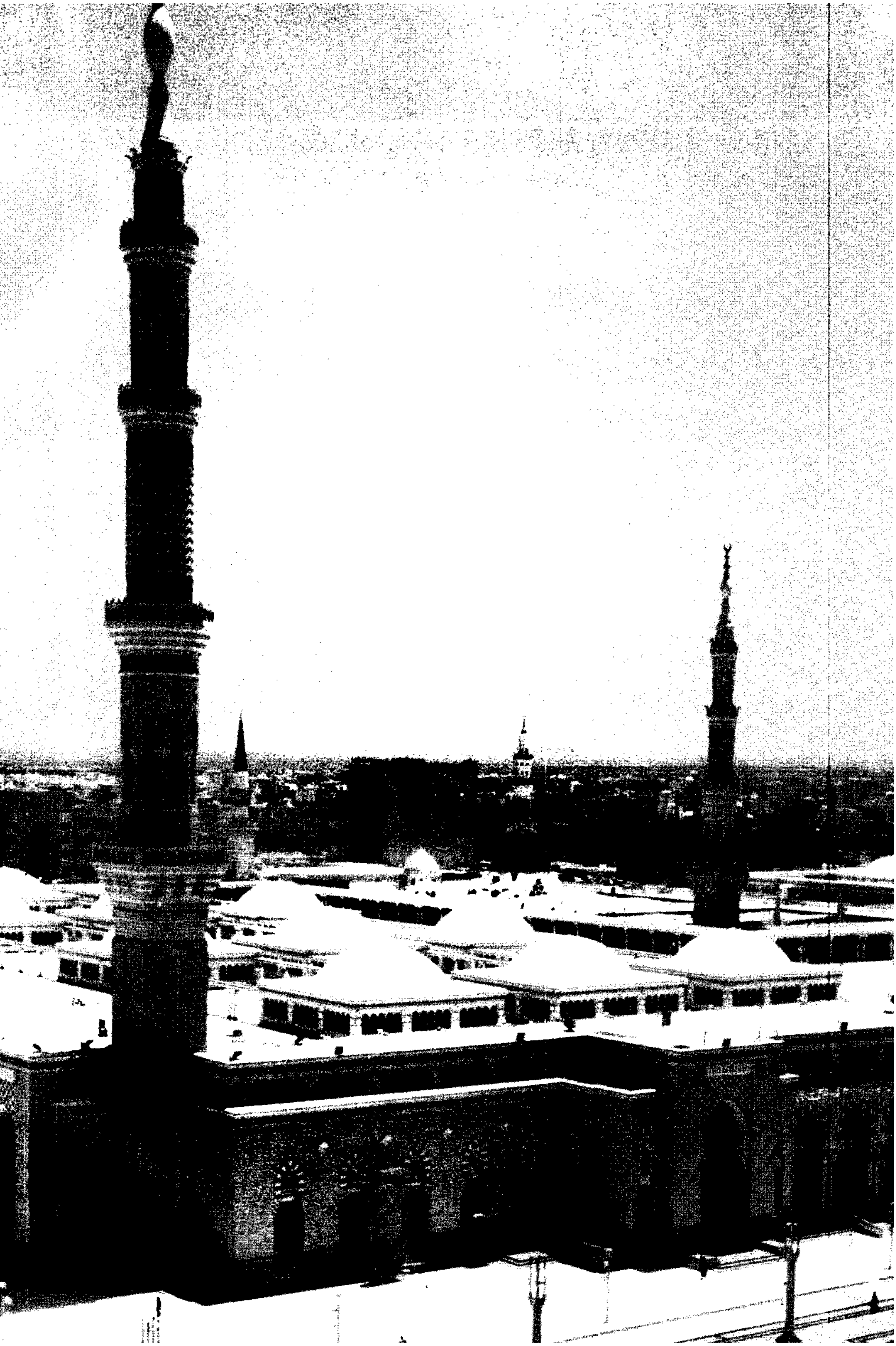

إنك ميت

هذه وقفة مع وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فمحمد بن عبدالله ﷺ يموت كما يموت الناس، ينتهي ويرتحل إلى الله، يؤدي الأمانة، ويسلم الرسالة، وينصح الأمة، ثم يمضي إلى مولاه ليوفيه أجره وثوابه عنده، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠].

سوف تموت، ويموت أعداؤك، وسوف يموت الذين يعيِّرونك بالموت، لكن لا سواء، أنت في المقام الأعلى والوسيلة والفضيلة، وهم في النار والدرك الأسفل والأخسر من النار، قال ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

فكان ﷺ إمامًا ومربيًا وعادلاً وحكيمًا ومتكلمًا وخطيبًا، وشجاعًا وكريمًا وباذلاً، بأبي هو وأمي، ولكن اليوم ينتهي من الحياة الدنيا، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤].

يقول أهل العلم: «هل أعداؤك يخلدون بعدك؟! هل يمكن أن يبقوا بعدك؟ ولذلك فإذا عيّرك أحدٌ بالموت؛ فقل: لا عيرة في الموت ولا عيب، سوف تموت أيها الشامت:

أيها الشامت المعيّر بالدهرِ … أأنت المبرأ الموفورُ؟!

أعظم مصيبة في العالم، وفاة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، نعم

مات فضلاء، وذهب شهداء، وزعماء، وعلماء، وأولياء، لكنهم لا يساوون ذرة من ذرات محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

وإذا أتتك من الأمور مصيبةٌ فاذكر مصابك بالنبي محمدِ

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثم ابتدأ به وجعه ﷺ في بيت ميمونة يوم خميس، وكان وجعًا في رأسه الكريم، وكثيرًا ما كان يعتريه الصداع ﷺ، فجعل مع هذا يدور على نسائه حتى شق عليه، فاستأذنهن أن يمرَّض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فأذنَّ له. فمكث وجِعًا اثني عشر يومًا. وقيل أربعة عشر يومًا[1].

فلنقف معه هذه الوقفات وهو يغادر هذه الدنيا، وحيدًا إلا من الإيمان، لم يخلف قصورًا، ولا دورًا، ولا بساتين، ولا حدائق، ولا قناطير مقنطرة من الذهب والفضة، ولكن خلَّف المسجد، والمصحف، والسنة، والوحي، والشريعة، والطهر، والجهاد، خلَّف جيلاً يعبد الله وحده لا شريك له، فعليه من ربه الصلاة والسلام.

في آخر حياته أنزل الله عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣]، إذا فتحت عليك الأمور والقلوب والقلاع، وأتتك الوفود، وأذعن لك الناس، واستسلمت لك الأفئدة، وانشرحت لك الأنفس، وارتفعت أعلامك، وسُددت سهامك؛ فاعلم أن النهاية قد قربت، اعلم أنك قد أديت رسالتك، اعلم أن أيامك أصبحت معدودة، اعلم أنك تقترب منا؛ لنوفيك أجرك، ونعطيك جائزتك العظمى، حيث لا جائزة أرفع منها، تلاها ﷺ، فسكتوا إلا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو سعيد: فعجبنا لهذا الشيخ ـ أي أبي بكر ـ ما له يبكي لما قرأ ﷺ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر: ١]، لماذا يبكي أبو بكر، ومعنى ظاهر الآيات: إذا جاء نصر الله وأتاك الفتح، وأتتك الوفود؛ فاستغفر ربك

(١) الفصول في سيرة الرسول ﷺ (ص ٢٠١).

وسبحه، فإن الله يغفر الذنوب؟ لكن أبا بكر كان فقيهًا - رضي الله عنه وأرضاه - قال: ما بعد التمام إلا النقصان! وهذا نعي للرسول - عليه الصلاة والسلام -، هذا إنذار وفاة، هذا إعلان موت محمد - عليه الصلاة والسلام -، وبدأ يوم الخميس - عليه الصلاة والسلام - يمرّض بأبي هو وأمي، دخل عليه ابن مسعود رضي الله عنه، والحمى توعك جسمه - عليه الصلاة والسلام -، وهو يتململ في حرٍّ شديد وعرقه يتصبب، وهو يقول: «لا إله إلا الله»، قال ابن مسعود: يا رسول الله إنك توعك وعكًا شديدًا، فقال ﷺ: «إني أوعك كما يوعك رجلان منكم»[(١)].

يقول الذي يجتمع عليّ كالذي يجتمع على مريضين منكم، قال ابن مسعود: «ذلك بأن لك الأجر مرتين، قال: «نعم»»، ثم ذكر ﷺ أنه يُبتلى الصالحون الأمثل فالأمثل، الأنبياء، فالصالحون، فالأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على قدر دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء.

ابتدأ الرسول ﷺ في يوم الخميس يمرض مرض الموت، وصار لا يستطيع الذهاب إلى المسجد، كان ابن عباس يتحدث عن يوم الخميس، وكان يقلب الحصى في المسجد ويبكي، ودموعه تسيل من لحيته - رضي الله عنه وأرضاه - بعد وفاة الرسول ﷺ، يقول: يوم الخميس وما يوم الخميس، يومٌ بدأ فيه مرض الرسول - عليه الصلاة والسلام -، فأتى يوم الخميس فاستمر به ﷺ المرض والحمى، وأخذ يضعف جسمه، مرة يصلي واقفًا، ومرةً يصلي جالسًا - عليه الصلاة والسلام -.

يا الله!! أعظم إنسان خلقه الباري وصوره، وشق سمعه وبصره وجعله نورًا للعالم، الآن يموت كما يموت الناس، ويُدفن كما يُدفن الناس، ولكنه أفضل الناس، فلما سمع الأذان قام ﷺ، لأن قرّة عينه في الصلاة، فإذا سمع الأذان يتوقف كل شيء، ينتهي من الحديث، تقول عائشة: «كان ﷺ في حاجة أهله، فإذا سمع الأذان، كأنه لا يعرفنا، ولا نعرفه»[(٢)]. يقطع مع

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٥٦٤٨)، ومسلم (رقم ٢٥٧١).

(٢) وعن عائشة رضي الله عنها أنها سُئِلت: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في =

أهله اللحم، يقوم في شؤونه الخاصة، فإذا سمع الأذان أوقف كل شيء، وقام إلى الصلاة. هذا هو الإيمان العظيم، لأنه رسول الإيمان:

وقل لبلال العزم من قلب صادقٍ أَرِحْنا بها إن كنت حقًّا مصليا
توضأْ بماء التوبة اليوم مخلصًا به ترقَ أبواب الجنان الثمانيا

مَنْ رأيته يسمع الأذان، ثم لا تتحرك فيه ذرة، ولا ينصرف ولا يتجه إلى المسجد بلا عذرٍ شرعي، فاغسل يدك منه كما قال السلف، إنه رجل ميت مات الإيمان في قلبه، ما أصبح عنده نور، أصبح عنده من ظلم المعصية، وظلم الإعراض عن الله، إلى درجة أنه لا يحب النداء، حتى قال بعض المفسرين في قوله سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الصافات: ٣٥] قالوا في تفسيرها: يسمعون الأذان فلا يجيبون.

قال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم غمر رسول الله ﷺ، واشتد به وجعه، فقال: هريقوا عليَّ سبع قرب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم. قالت: فأقعدناه في مخضب لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: حسبكم حسبكم»(١).

وقام ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقال: «أفيضوا عليّ ماء» يريد أن يتخفف من الحمى، فيمسكه الصحابي، يقول أبو سعيد: وضعت يدي على جسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فإذا هو كأنه النار، من الحمى، فكانوا يصبون القربة الباردة على رأسه ﷺ؛ ليقوم إلى المسجد، صبوا القربة الأولى، فأراد أن يتحرك فاشتدت الحمى، ثم صبوا الثانية حتى أفرغوا سبع قرب على رأسه(٢)، وكل هذا لأنه يريد أن يصلي في المسجد، يريد أن

= مهنة أهله. تعني خدمة أهله، فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة. أخرجه البخاري (رقم ٦٧٦).

(١) السيرة النبوية (٤/٣٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (رقم ١٩٨)، ومسلم (رقم ٤١٨).

يكون في الصف الأول، فخرج وهو يُهادى بين رجلين، فلما أشرف على الصحابة كادوا يفتتنون من الفرح.

قال أنس: رأيت وجهه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقد أطل علينا وهو معصوب الرأس يُهادى بين رجلين، لا إله إلا الله ما أعظم الواحد الأحد!! كتب المرض والفناء والجوع على الخليقة، وتفرد بالبقاء: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨] ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرَّحمن: ٢٦] هذه العظمة، هذا الجبروت، وهذا الملك، حتى محمد حبيب الله خليل الله، أحب الناس إلى الله، أصدق الناس، أبر الناس، أحلم الناس، يُهادى بين رجلين، والحمى تعصر جسمه الشريف ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أطل عليهم وهو معصوب الرأس فبكوا جميعًا، والله ما من صحابيٍّ إلا يود أن الموت يأخذه قبل محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وأن المرض في جسمه، فيقولون: فديناك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، وفي المعركة كانوا يقدمون صدورهم على السهام أن تصيب محمدًا ﷺ، الواحد يأتيه السهم فيقدم يده ليأخذه عن جسم الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

فأتى ﷺ فصلى جالسًا، فكان يقول: «الله أكبر» بصوت ضعيف مبحوح، فيكبر أبو بكر بعده؛ ليسمع الناس، ثم التفت إليهم ﷺ، ثم قام على المنبر، قال: «أيها الناس! هذا يوم القود»، يوم القصاص، أتقى الناس يطلب من الناس أن يقتصوا منه إن كان أخطأ عليهم في شيء!! «اللهم مَنْ ضربته أو شتمته، أو آذيته، فاجعلها كفارة، اللهم اجعلها زكاة ورحمة»[(١)]، يقول: من شتمته، أو ضربته فليقتص مني اليوم قبل ألاَّ يكون درهم ولا دينار، مَنِ الذين شتمهم محمد ﷺ وهو أعفُّ الناس؟! ومن الذين آذاهم وهو أرحم الناس؟!! هو الذي أنقذنا بإذن الله من النار، أخرجنا من الظلمات إلى النور، هدانا وأرشدنا ونورنا، حتى مدحه ربه وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤] وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، يقف الآن على المنبر قبل الموت، فيقول:

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٢٦٠١).

من آذيته بضربة مست بشرته فليقتص مني، هذا جسمي، فماذا كان رد الناس؟! كلهم خفض رأسه ولهم خنين من البكاء في المسجد؛ لأنهم يعلمون أنها النهاية له ﷺ، وأنه سوف يودع الحياة الدنيا، سوف يموت هذا الإمام الذي جاء بالإيمان؛ بالصلاة، والزكاة، بالنور الذي بين أيديهم، الرحمة المهداة، الذي علمهم وأخرجهم من الكفر إلى الإيمان، الذي ردهم من طريق النار إلى طريق الجنة.

قال: اقتصوا مني أيها الناس قبل ألاَّ يكون درهم ولا دينار، فإذا كان سيد الخلق ﷺ يقول مثل هذا، فماذا نفعل أنا وأنت إذا آذينا أحدًا من الناس، أو سببناه، أو اغتبناه، أو ضربناه، أو ظلمناه، أو أخذنا ماله، بالله قل لي ماذا نفعل؟!

هذا بلا ذنب يخاف حضوره   كيف الذي مرت عليه دهورُ

قال أهل السير: «فقام عكاشة بن محصن الأسدي، وهو من الأبطال الكبار الذين يدخلون الجنة بلا حساب أبدًا، هذا الرجل لا يحاسب يوم القيامة، يمر من عند الملائكة دخولاً إلى الجنة لا يتوقف أبدًا، وهو من المجاهدين الكبار والصادقين، فقام في المسجد أمام الناس، والناس جلوس قال: أنا أريد أن أقتص منك يا رسول الله!! فسكت الصحابة، قال ﷺ: ولِمَ؟! قال: لما كنت تسوي الصفوف يوم بدر وخزتني بعصاك في صدري، فأريد أن أقتص منك هذا اليوم؛ فسكت ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقام عكاشة وسط الناس، والناس في وجل، لهذا المشهد، والرسول ﷺ يقول: تعال اقتص مني، فأخذ عكازًا مثل عكاز الرسول ﷺ، وقال: يا رسول الله! إنك يوم وخزتني لم يكن على صدري شيء فاكشف صدرك لي، فكشف ﷺ صدره الشريف، بحماه وألمه وسقمه، فأتى عكاشة وألقى العكاز، ثم أتى بلحيته وبوجهه وبعيونه فوضعها في صدر الرسول ﷺ وأخذ يبكي والناس يبكون، قال: والله يا رسول الله ما بي إلا أن يكون آخر عهد فمي وشفتي وأنفي في صدرك الشريف.

نزل ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وقام في الليل ففقدته عائشة، قالت:

فالتمسته فإذا هو في ظل القمر بعدما أحس بالعافية قليلاً، وإذا هو على أهل البقيع الشهداء الذين قتلوا في أحد، وإذا هو يدعو لهم، ويقول: «اللهم اغفر لهم، اللهم ارحمهم، اللهم تجاوز عنهم»، قال: أنتم شهداء وأنا على ذلك شهيد، ثم ودعهم، فأتت عائشة وقالت: أين أنت يا رسول الله؟ غارت عليه!! قال: إن الله أمرني أن أودع أهل بقيع الغرقد والشهداء، وأسلم عليهم، فقد دنا أجلي، قالت: يا رسول الله أنا في شأن وأنت في شأن، فهو مهموم يودع الشهداء والأموات من المسلمين، ثم عاد ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعدما ودع الشهداء، وشهد أنه سوف يشهد لهم يوم القيامة وهم شهداء في سبيل الله، ثم قام ﷺ فكشف الستار عن بيته، فكان بيته يطل على المسجد ﷺ، فلما رأى الصحابة قبل الصلاة كادوا يفتنون في الصلاة، نظروا إليه ووجهه كورقة المصحف كأنه القمر، فتبسم ﷺ، قال أنس: فلما رآنا تبسم في وجوهنا، تبسم المحب، تبسم الفرحان، تبسم السعيد، يوم أن رآهم يصلون خلف أبي بكر، يرى أن العقيدة تمت، وأن الرسالة قامت، وأن الدين اكتمل، وأن الصحابة والحمد لله أصبحوا جيلاً ربانيًا بعده، وأن أبا بكر سوف يقود الأمة قيادة صحيحة، وسوف يبحر بها في عباب الحياة.

يقول أهل العلم: «تبسمه فرحًا بما رآه من المشهد وهم خلف إمام واحد، ثم قال كلمة له قبل أن يموت والناس يدخلون عليه: أيها الناس! الله الله في الأنصار، يوصي بالأنصار خيرًا وهو في سكرات الموت من الوفاء لهم؛ لأنهم وقفوا معه، وقدموا دماءهم وجماجمهم، قُطعوا أمامه، وقدموا أموالهم، رضي الله عن الأنصار، وغفر الله للأنصار، ورحم الله الأنصار: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»، إذا رأيت إنسانًا يتناول الأنصار فاعرف أنه منافق أثيم فاجر، قال ﷺ: الله الله في الأنصار، الله الله في الأنصار، الأنصار عَيْبَتِي ونصحي، ثم قال: إن الناس يكثرون ويقلُّ الأنصار؛ لأنهم يقتلون في سبيل الله، قتل منهم في المعارك ما يزيد على ثلثيهم، ثم قال للأنصار: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»، يقول: سوف أشهد لكم

عند الله عند الحوض، ثم قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس»، وكان ﷺ يختار أبا بكر دائمًا؛ لأنه أبر الناس بعده ﷺ، وأنصحهم وأولهم إسلامًا، وأكثرهم عطاءً وبذلاً ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فقالت عائشة: يا رسول الله: إن أبا بكر رجل أسيف، يعني حزين بكّاء، لا يستطيع أن يصلي بالناس، فأبو بكر كان يصلي بالناس فإذا قرأ الفاتحة لا يعرف الصحابة ماذا قرأ من البكاء، يقرأ في صلاة الفجر سورة يوسف فإذا بلغ: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤] انهد يبكي وانهد من في المسجد يبكون معه، فهو أسيف حزين بكّاء، قالت عائشة: يا رسول الله أبي رجل حزين بكّاء، مُر آخر يصلي بالناس، قال ﷺ: «مروا أبا بكر يصلي بالناس»[1]، وفي رواية صحيحة أن رجلاً ذهب فلم يجد أبا بكر فأمر عمر أن يصلي فلما تقدم عمر قال: استووا، استووا، فكان الصوت صوت عمر، قال ﷺ: مَنْ؟! أي صوت مَنْ؟ قالوا: عمر يصلي، قال ﷺ: يأبى الله إلا أبا بكر، يأبى الله إلا أبا بكر[2]، فبلغ ذلك الصحابة، قال عمر لعبد الله بن زمعة: ما لك؟ أي قيل له كلام شديد، قال: ظننت أن أبا بكر غائب فأمرتك[3]، فتقدم أبو بكر، فقال ﷺ: «مروا أبا بكر يصلي بالناس»، قالت عائشة: إنه رجل أسيف، قال: «إنكن صويحبات يوسف»، آمركم أن يصلي أبو بكر، وتأمروني بغير أبي بكر، أنتن صويحبات يوسف، أي النساء اللاتي اجتمعن على يوسف وكدن يفتنَّه، فصلى أبو بكر، ثم قال ﷺ: «لقد هممت أن أكتب كتابًا لأبي بكر» فقلنا: يأبى الله والمؤمنون، يقول: أردت أن أوصي أبا بكر أو أخلف أبا بكر بكتاب، ولكن علمت أن الله لا يجعل الخلافة إلا لأبي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٦٧٩)، ومسلم (٤١٨).

(٢) فعن عائشة ﵂ قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر وأخاكِ، حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمنٍّ ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلاّ أبا بكر». أخرجه مسلم (رقم ٢٣٨٧).

(٣) أخرجه أبو داود (رقم ٤٦٦٠ ـ ٤٦٦١)، وانظر السيرة النبوية (٤/٣٩٩ ـ ٤٠٣). وصحح الحديث محققا السيرة.

بكر، وكذلك المؤمنون لا يختارون إلا أبا بكر، ولذلك في سقيفة بني ساعدة لما تقدم أبو بكر، قال: أبايعك يا عمر، قال عمر: يأبى الله والمؤمنون إلا أنت يا أبا بكر، قال عمر: فوالله لو قُدمت أن يُضرب عنقي لكان أهون عليّ أن أبايع بالخلافة في أمة فيهم أبو بكر!! - ﷺ وأرضاه -، ثم قال ﷺ: «ائتوني أكتب لكم كتابًا»، فكثر اللغط والضجيج عنده من الصحابة، فقال: «ارتفعوا من عندي»، فقال عمر: حسبنا كتاب الله، حسبنا كتاب الله.

أما ما خلَّفه ﷺ، فقالت عائشة: خلَّف ﷺ سبعة دنانير، فأتى قبل أن يموت ﷺ، فقال: عليّ بالدنانير السبعة، فلما وجدها قال: كيف بي إذا لقيت الله وهي عندي؟! فأمر أن توزع في الفقراء، فلم يخلِّف لا كثيرًا ولا قليلًا، ولم يرثه أحد من أهله، حتى بنته فاطمة لم ترثه وهو القول الصحيح، قال: «إنا لا نورث، ما تركناه صدقة»[1]، فلم يترك ﷺ لا دارًا ولا عقارًا ولا شيئًا إلا جعله في سبيل الله، حتى ابنته فاطمة لم ترث منه درهمًا ولا دينارًا ولا قليلًا ولا كثيرًا، فميراثه - عليه الصلاة والسلام - الذي تركه لنا هو السنة المطهرة بعد القرآن الكريم، والشريعة والإيمان، فلم يترك ﷺ من عرض الدنيا شيئًا.

وزارته ابنته فاطمة - رضي الله عنها وأرضاها - في مرض الموت قبل أن يموت قيل بليلة أو بليلتين، فكان ﷺ من البر وحسن الخلق وحسن التعامل إذا رآها أقبلت قام إلى الباب، فقبَّل جبينها، ثم أخذها وأجلسها مكانه، وإذا زارها هو، قامت فقبلت جبينه وأجلسته مكانها، ولكن في مرض الموت ما استطاع أن يقوم، فنظر إليها ونظرت إليه، وبكى وبكت، ثم قال: اقتربي مني.. اقتربي مني، فاقتربت برأسها عند فمه الشريف، فقال: أنا ميت في مرضي هذا فبكت، ثم قال: أنت أول الناس لحاقًا بي، فضحكت، قالت عائشة: كنت أظنها من أعقل الناس فعجبت لها تضحك وتبكي في موطن واحد، وكانت عائشة في طرف البيت، قال أهل العلم: «بكت لأنها علمت أن أباها سوف

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٠٩٤)، ومسلم (رقم ١٧٥٧).

يموت قريبًا، وأما أنها ضحكت فقوله: أنت أول الناس لحاقًا بي فلحقت به بعد ستة أشهر»، وقال أهل العلم: «بل ضحكت لأنه قال لها في أذنها: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين»[1]، وقال بعضهم: أنها تأتي ﷺ وأرضاها في الموقف مجللة، مغطاة بلباس يبهر الناظرين يغبطها الأولون والآخرون في العرصات، فهي سيدة نساء العالمين. نظرت إلى أبيها وهو يُعصر ﷺ من الحمى، قالت: واكرباه، واكرباه يا أبتاه، هكذا ذكر أهل السير، قال: «لا كرب على أبيكِ بعد اليوم»[2]! ثم أوصى ﷺ في مرض موته بالصلاة، قال: «الله الله في الصلاة، الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم»[3]، فوصيته الكبرى ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وآخر ما أوصى به، الصلاة، فمن حفظها حفظه الله، ومن ضيعها ضيعه الله، فوصية كل عاقل لمن يعوله أو يرعاه في الصلاة الفريضة خمس مرات في اليوم والليلة في جماعة للرجال، ولمن لم يكن عنده عذر شرعي.

قالت عائشة: «توفي ﷺ بين سحري ونحري»[4]، قيل: السحر أول الصدر، والنحر ما عند البلعوم، دخل عليها ابن عباس وهي في مرض الموت، فوعظها، وقال: أنتِ أمُّنا، وأنت زوجة الرسول ﷺ في الجنة، قالت: يا ابن عباس والله الذي لا إله إلا هو إنني وددت أنني كنت نسيًا منسيًّا، يا ليتني ما خُلقت، قال: يا أماه توفي الرسول ﷺ بين سحرك ونحرك، يقول: يكفيك أن محمدًا ﷺ توفي ولحيته ورأسه ﷺ بين سحرك ونحرك ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، فأخذ ﷺ تغطه سكرات الموت، وأخذ يجلله العرق، وعنده خميصة: قطعة قماش فيرصها في الماء، فيضعها على وجهه الشريف، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات، لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، لا إله إلا الله إن للموت لسكرات»[5] وأخذ يغط هذه

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٢٤)، ومسلم (رقم ٣٤٥٠).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٦٢).
(٣) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٣٨٧٣).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٤٩)، ومسلم (رقم ٢٤٤٣).
(٥) أخرجه البخاري (رقم ٦٥١٠)، ومسلم (رقم ٢٤٤٣).

الخميصة على وجهه وهي مبللة بالماء ويقول: «اللهم أعني على سكرات الموت، اللهم أعني على سكرات الموت، اللهم أعني على سكرات الموت»[1] فأخذت عائشة تدعو له فيقول: بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى، يقول: أريد أن أنتقل، أريد الارتحال، أريد أن أذهب إلى ربي، أريد السفر إلى علام الغيوب، ثم قال: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَـٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وفي أثناء وعكه ﷺ وهو في مرض الموت، دخل عبدالرحمٰن بن أبي بكر أخو عائشة، وكان في فمه سواك، فما استطاع أن يتكلم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وكان يحب السواك كثيرًا ﷺ، كانت أسنانه كالبرد من شدة ما يستاك دائمًا عند كل صلاة، يقول: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة»[2] وفي رواية: «مع كل وضوء»، فلما رأى عبدالرحمٰن وفي يده سواك من أراك أبدَّه نظره، يعني كأن عينيه ﷺ تشير إلى عبدالرحمٰن يريد السواك، قالت عائشة ـ وكانت لبيبة ذكية فقيهة ـ: فعرفتُ أنه يريد السواك، فأخذت السواك من عبدالرحمٰن فقضمته وقصَّته، ثم غسلته، ثم أعطته للرسول ﷺ، فأخذه بيده ﷺ، وأخذ يستاك بقوة ﷺ ويسوك فمه الشريف وأسنانه[3]؛ لأنه سوف يقدم على علام الغيوب، جل في علاه، ثم نزل عليه جبريل فيما يُروى عند أهل السير وذكر الصالحي وأبو نعيم وغيرهم من أهل الأخبار، قال جبريل: يا محمد إنك ميت، وإن الله قد اشتاق إليك، قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[4].

ومن لقاء الله قد أحبه ... كان له الله أشد حبا
وعكسه الكاره فالله سَلِ ... رحمته فضلاً ولا تتكلِ

وهذا الاشتياق يليق بجلاله سبحانه، لا نكيّفه ولا نمثله ولا نشبهه ولا

(١) أخرجه الترمذي (رقم ٩٧٨)، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٨٨٩)، ومسلم (رقم ٢٥٥).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٣٨)، ومسلم (رقم ٢٤٤٣).
(٤) أخرجه البخاري (رقم ٦٥٠٨)، ومسلم (رقم ٢٦٨٦).

نعطله، وجاء في حديث عنه ﷺ أنه قال: «من أصيب بمصيبة فليتعزَّ بي، فإني عزاءٌ لكل مسلم»(١)، فمن أصيب بمصيبة فليتعزَّ بالرسول ﷺ، إن أصبت بابنك أو أبيك أو أمك، أو أخيك أو صفيك من الدنيا، فقد مات محمد ﷺ، واعلم أن أعظم مصيبة مصيبة محمد ﷺ، فما دام أنه مات فالجميع سوف يموتون، والجميع فداء له، والجميع لا يساوون غبار أقدامه ﷺ، عزوا أو ذلوا، كبروا أو صغروا، قالت عائشة: خرجت روحه فمال رأسه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وخرجت من فمه مثل قطرة السقاء، القطرة الباردة النقية الطاهرة من الماء الغمام.

قال أهل العلم: يمكن أن تكون روحه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ثم مات وهو الذي أتى بلا إله إلا الله والتوحيد، مات لتطوى صحيفة من أعظم الصحائف، لأعظم رجل خلقه الله، مات ليقول للعالم: هذه هي الحياة ونهايتها، وليقول لكل شاب: يا من اغتر بشبابه، يا من اغتر بصحته وقوته سوف تموت، مات ليقول للملوك والرؤساء والزعماء والأغنياء: سوف تموتون، مات ليقول للبشرية: هذه النهاية، وسوف نموت جميعًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤] وبهذه الطريقة مات ﷺ، وسُجي ووضع عليه التراب، وقامت عائشة تبكي في طرف البيت، وقام الناس يبكون، ووصل الخبر إلى أهل المدينة، فاختلط بكاء الرجال بالنساء والأطفال، وامتلأت السكك حول بيته ﷺ، وكان أبو بكر مع فرسه بالعوالي، فسمع الخبر فركب فرسه، فأنزل الله السكينة على أبي بكر، انظر الثبات من الله؛ لأنه لو انهار أبو بكر؛ لانهارت الدولة، وكان أبو بكر رقيقًا بكَّاء، كان ليِّنًا ﷺ لا يملك دموعه، ولا بكاءه، يرتجف كالطائر، ومع ذلك ثبته الله وأنزل عليه السكينة، وقام عمر الفاروق الرجل القوي في ذات الله، الرجل الشجاع على المنبر، وقال: من زعم أن محمدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ مات ضربت عنقه بهذا السيف، إنه لم يمت وإنما عُرج به، كما عُرج بموسى

(١) أخرجه ابن ماجه (رقم ١٥٩٩).

وسوف يعود، ووقف عمر بن الخطاب يشكك الناس ويقول: لا تقولوا مات الرسول ﷺ.

قال ابن هشام رَحِمَهُ اللهُ: قال ابن إسحاق: قال الزهري وحدثني سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، قال: «لما توفي رسول الله ﷺ، قام عمر بن الخطاب فقال: إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وإن غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ قد مات»[1].

وأما أبو بكر فدخل وإذا الناس مكتظون، وإذا البكاء والدموع والأسى واللوعة، رجالاً ونساءً وأطفالاً، مات أبوهم ومعلمهم، مات رسولهم ونورهم، ماتت حياتهم وأملهم المشرق، فدخل أبو بكر في ثبات، فنزل من على الفرس ومعه عصا، فشق الصفوف ولم يتكلم مع أحد، ودخل ثم أتى إلى بيت عائشة ابنته، وأتى إلى الرسول ﷺ، ورفع عن وجهه الشريف الذي هو أبهى من القمر وأجمل من الشمس وأعطر من المسك الأذفر، فرفع عن وجهه ثم دنا، فقبل خده، ثم دمعت عيون أبي بكر، وقال: بأبي أنت وأمي ما أطيبك حيًا، وما أطيبك ميتًا، أما الميتة التي كُتبت عليك فقد ذقتها، لكن لا تموت بعدها أبدًا، وفي إصرار وقوة وصبر، خرج إلى المسجد فأتى إلى المنبر، وقال لعمر وهو يصيح في الناس: على رسلك. وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ مات، وأبو بكر بالسُّنح ـ يعني العالية ـ فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلاّ ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم. فجاء أبو بكر فكشف عن رسول الله ﷺ فقبله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حيًا وميتًا، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبدًا. ثم خرج فقال: أيها الحالف على

(١) انظر السيرة النبوية (٤/٤٠٥ ـ ٤٠٦)، وصحح الحديث محققا السيرة.

رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر[1]، وسكت، وسكت الناس، ثم صعد أبو بكر المنبر، وقال: أيها الناس! من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت[2]، يا للعظمة، يا للقوة، يا للشجاعة، يا للثبات، هذا أبو بكر إمام المسلمين، قامع الردة، بطل المحنة، ناصر السنة، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، فلما سمع عمر كلام أبي بكر هوى على وجهه، ثم تلا أبو بكر هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال عمر: والله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر تلاها، فعقرت حتى وقعت إلى الأرض ما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[3]. فتأكد الناس، ونزل أبو بكر رضي الله عنه إلى السقيفة.

أما حال بعض الصحابة فهذه مشاهد ولقطات سريعة لحالهم:

فهذا عمر رضي الله عنه يسقط على وجهه فلم تحمله قدماه، وأخذ يرتجف فأغمي عليه، وقال: والله كأني ما سمعت الآية إلا ذاك اليوم: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

وأما عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد قال عنه صاحب مجمع الزوائد بسند حسن: أصابه ذهول، يمر عليه الرجل ويسلم عليه ولا يعلم هل سلم عليه أو لم يسلم عليه، ويمر على الزبير وأبي طلحة فما يسلم، فذهب الزبير إلى أبي بكر فشكاه قال: مرَّ عثمان عليّ فلم يسلم، فدعاه أبو بكر قال: ما سلمت على الزبير، قال عثمان: والله ما رأيت الزبير، وما علمت أنني مررت عليه، وما أدري هل سلمت أو لم أسلم، قال: ولِمَ؟ قال: ذُهلت بعدما مات الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٦٧).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٣٦٦٨).
(٣) أخرجه البخاري (رقم ٤٤٥٤).

وأما علي رضي الله عنه فأصابه مرض في جسمه فتشافى.

وأما عبدالله بن أنيس وقيل غيره أنه ذاب، ثم مات بعد ثلاثة أيام، ذكره الصالحي في السيرة.

ولما توفي - عليه الصلاة والسلام - سُجي ﷺ بعدما غُسل، غسله أئمة من أهل الإسلام، منهم علي والعباس والفضل، غسلوا جسمه الطاهر الذي هو الطهر كل الطهر، ثم حُفر له ﷺ في بيت عائشة، حيث قالت رضي الله عنها : لما قبض رسول الله ﷺ: اختلفوا في دفنه، فقال أبو بكر: سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا ما نسيته، قال: «ما قبض الله نبيًّا إلاّ في الموضع الذي يحب أن يدفن فيه» ادفنوه في موضع فراشه[1]. لأنه ما من نبي يقبض إلا يُدفن في المكان الذي قبض فيه، في مكانه في الغرفة التي وزع منها الهداية على العالم، ﷺ، والتي انطلق منها النور في المعمورة، وروى البيهقي وغيره أن الرسول ﷺ قال للصحابة: «إذا وضعتموني على شفير القبر فانتظروا ساعة فإن الله سوف يصلي عليّ، ثم انتظروا قليلاً فإن الملائكة سوف تصلي عليّ، ثم صلوا عليّ زرافات ووحدانًا»[2]، هكذا يُروى في السير، وعند البيهقي، وذكره ابن كثير وغيرهم، فصلى عليه الناس بعدما انتظروا قليلاً جماعة ووحدانًا وفرادى، حتى قال بعضهم: صلى عليه أكثر من أربعين ألف من أهل الحاضرة والبادية والشيوخ والكبار والصغار.

ثم قال أبو بكر لعمر: اذهب بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان ﷺ يزورها، وهي مولاة أم أسامة بن زيد، فذهبوا إليها في البيت، فلما رأتهما أخذت تبكي، قالوا: يا أم أيمن ما عند الله خير للرسول ﷺ من الدنيا، ذهب إلى الرفيق الأعلى، إلى النعيم المقيم، إلى الخلود، إلى الرفعة، قالت: أعلم أن ما ذهب إليه الرسول ﷺ خيرٌ وأبقى، ولكن أبكي أن

---

(١) أخرجه الترمذي (رقم ١٠١٨)، وقال: هذا حديث غريب، بينما صحح الحديث الألباني في صحيح الجامع (رقم ٥٦٤٩).

(٢) أخرجه بلفظ قريب ابن ماجه (رقم ١٦٢٨).

الوحي قد انقطع بموت الرسول ﷺ، فهيجتهما على البكاء، فأخذ أبو بكر وعمر يبكيان رضوان الله عليهم وأرضاهم.

قال الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ في حياته: «والذي نفسي بيده لوددت أنني أقتل ثم أُحيا، ثم أقتل ثم أُحيا، ثم أُقتل»[1] قال ابن كثير وأهل العلم: «فرزقه الله الشهادة مع النبوة، فهو نبي رسول شهيد، أما النبوة والرسالة فقد عرفتم، وأما الشهادة فقد سمَّمته يهودية، فمات من آثار السمِّ بعد سنة، فهو شهيد، فصار شهيدًا ـ عليه الصلاة والسلام ـ مع منزلة النبوة التي آتاه الله ﷻ.

ثم عاد الصحابة إلى بيوتهم، وقام أبو بكر ﷺ ذاك المقام، وقال لعمر: اذهب بنا إلى سقيفة بني ساعدة، وقد اجتمع فيها الأنصار يريدون أن يبايعوا سعد بن عبادة في الخلافة، وكان من ساداتهم، وكان يظن الأنصار أن الخلافة سوف تكون فيهم؛ لأنهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان، فدخل أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وجلسوا، قال عمر: زوَّرت كلامًا في صدري ـ أي هيأت موعظة وخطبة في صدري أريد أن أقولها بين يدي أبي بكر والأنصار ـ لعلّ الله أن يجمع الشمل ويوحد الكلمة، قال: وكنت أراعي في أبي بكر حدة، يقول: كان غضوبًا وكان يأتيه شيء من الحزن والغضب السريع، فكنت أراعي وأنتبه لهذا الأمر، فأردت أن أتكلم، قال أبو بكر: اسكت يا عمر، فسكت عمر، وقال أبو بكر: أيها الأنصار واسيتم، وكفيتم ونصرتم، وآويتم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء، والله ما مثلنا ومثلكم أيها الأنصار، إلا كما قال طفيل الغنوي حينما حل في بني جعفر:

جزى الله عنا جعفرًا حيث أشرفت ... بنا نعلنا في الشارفين فزلَّتِ
هموا خلطونا بالنفوس وألجؤوا ... إلى غرفات أدفأت وأظلتِ
أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملتِ

ثم قال: أيها الأنصار يأبى الناس إلا في هذا الحي من المهاجرين ـ أي

(١) تقدم ص ١٨٤.

الخلافة ـ قم يا عمر أبايعك، قال: يأبى الله ويأبى المؤمنون، قال قم يا أبا عبيدة أبايعك، قال: يأبى الله ويأبى المؤمنون، فمد أبو بكر يده فبايعه الناس ـ ﵁ وأرضاه ـ، ثم عاد إلى المسجد وأخذ البيعة من العامة، فوقف على المنبر، فمد أبو بكر الصديق يده يريد أن يبايع فانتفضت يده وانتفض جسمه وبكى ﵁ فما استطاع أن يتكلم، مع العلم أنه في يوم الوفاة كان أقوى وأثبت؛ حكمة من الله، لكن لما رأى المنبر وأن الرسول ﷺ ذهب، ورأى مشهد المسلمين، أخذته عبرة ووقف عمر بجانبه، وفي هذا الموقف صمد عمر وذهب بكاؤه السابق، فأخذ بيد أبي بكر وثبتها للناس، ومدّها وأخذ الناس يبايعون، ثم قال عمر: هذا أبو بكر والله ما فينا كأبي بكر، والله إنه أفضلنا، وإنه أحقنا بالإمامة والخلافة إلى آخر ما قال، ثم قال لأبي بكر: أنا سيف في يدك أو كما قال في بعض الروايات، فأخذ يبايع.

ثم قال أبو بكر في ذلك كلمة موجزة: «أيها الناس إنني متبع ولست بمبتدع، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، أيها الناس، القوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له»، ثم نزل ﵁.

أما العرب فأتاها الخبر، فمنهم من قال: ما دام أن محمدًا ﷺ قد مات فقد ماتت الرسالة فارتدوا، وأما بعضهم فقال: إن الزكاة للرسول ﷺ، فكيف تدفع الزكاة لأبي بكر فرفضوا الزكاة، فقام أبو بكر على المنبر، فأعلن الحرب على المرتدين من الذين منعوا الزكاة، وكفروا بالرسالة.

قال عمر: يا خليفة رسول الله، نفاوضهم ونصارحهم لعلَّ الله أن يأتي بهم ـ يعني نفتح معهم حوارًا وملاينةً ورفقًا ـ، فأخذ أبو بكر بلحية عمر وهزّه أمام الناس، قال: جبار في الجاهلية خوّارٌ في الإسلام، ـ أي شجاع في الجاهلية، وجبان في الإسلام ـ والذي نفسي بيده لأقاتلنَّ من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو كانوا يمنعونني عقالاً كانوا يدفعونه لرسول الله ﷺ، لقاتلتهم عليه، فلما انشرح عمر، شرح الله صدور المؤمنين فاتجهوا له،

فوزع الرايات فداس عصاة العرب، وردهم خاسئين ذليلين في العمائم، حتى أدخل الرؤوس المرتدة في المسجد بعدما قتل منهم مقتلة، فقام على المنبر يشاور رموز المرتدين وهم بالعمائم مكتفُّون، وفي السلب والخيوط والجلود، وجيوشه ﷺ تحف بهم قال: اختاروا بين حرب مجلية أو سلم مخزية، يقول لهم: تريدون أن نعيد الكرَّة عليكم ونتقاتل وإياكم مرة أخرى أو سلم مخزية، قالوا: نريد السلم، فما السلم؟ قال تدون (الدية) قتلانا، ولا نديي قتلاكم، وقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار، ونجردكم من السلاح والسيوف والحلق والخيول، وتبقون أذلة بين المسلمين حتى يُري اللهُ خليفةَ رسول الله ﷺ رأيه فيكم، قالوا: بل نريد السلم، فقال المسلمون: هو ذاك فوافق أبو بكر، وتم الدين وارتفعت الملة.

دروس من قصة وفاة رسول الله ﷺ:

١ ـ الله حي لا يموت وكل من على الدنيا سيموت. فانتبه وانتظر هذه الساعة:

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته ... يومًا على آلة حدباء محمولُ

فتهيأ لهذه السكرة؛ ساعة الصفر التي يقول فيها الطنطاوي: ساعة الموت، يذل فيها الجبار، ويذعن فيها المتكبر، ويضعف فيها القوي، ويفتقر فيها الغني، ساعة الموت التي يذهب فيها الشباب، وافتخار الشباب، وقوة الفتيان، ويذهب خيلاء الملوك، وخيلاء الأغنياء وكبر الشرفاء، يصبحون ذرات وحشرات أمام ملك الموت، فانتظر هذه الساعة.

٢ ـ أنه ليس عندك عهد من الله بوقت ومكان تموت فيه.

فانتظر الموت في أي وقت؛ في الطائرة، أو على فراشك، وأعدَّ توبةً وشهادة وإيمانًا وعملاً صالحًا.

٣ ـ أن محمدًا ﷺ مات بجسمه: وبقيت مبادئه، وبقي دينه وشريعته، وأتباعه إلى يوم الدين، فهو المبارك أينما كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فبركته دائمة، مستمرة العطاء إلى قيام الساعة.

٤ ـ لا شماتة بالموت، فإن بعض الناس يفرح إذا مات حاسده، أو عدوه من المسلمين، ويعد ذلك انتصارًا، وهذه من خيبته وفشله وخذلانه في الدنيا والآخرة، فكيف تفرح بموت مسلم؟! ثم كيف تفرح بموت إنسان ولو كان عدوًّا لك من المسلمين وأنت سوف تتجرع من الكأس نفسها وتذوقها لا محالة ولا ريب.

٥ ـ أن على الإنسان أن يتخفف من الدنيا ما استطاع؛ فأكرم الخلق على الله مات، ولم يخلف درهمًا، ولا دينارًا ولا شيئًا، إنما خلف هذا العلم والتراث الشرعي المبارك كما يقول ابن تيمية في شرح حديث: «مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل الغيث»[(١)]، قالوا الهدى: هو العمل الصالح، والعلم: هو العلم النافع، فمن ورث محمدًا ﷺ فليرثه في العمل الصالح، والعلم النافع.

٦ ـ أن على العبد أن لا يطوِّل أمله؛ لأن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ أوصى أصحابه أن لا يطيلوا آمالهم، فقال لأحدهم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»[(٢)]، وأن ما أصبنا به من الأمراض المزمنة في أرواحنا فذلك لأننا نطوِّل آمالنا، فلا نفكر في الموت كثيرًا، شُغلنا بذنوبنا، وشهواتنا وأغراضنا الدنيوية حتى نسينا القدوم على الله، فمن أراد أن يصلح حاله، فلينتظر الموت ولا يطوِّل أمله، وليفكر كيف يرتحل إلى الله، وأنه سيجرد حتى من ثيابه، وحتى من أقل الأشياء عنده، سوف يجرد من قلمه وساعته ونظارته وسواكه.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤] فلنعد العدة ولنستعد ونتخفف ما استطعنا.

قال بعض الصالحين لأصحابه: «كيف أملكم؟ قال أحدهم: ما

(١) أخرجه البخاري (رقم ٧٩)، ومسلم (رقم ٢٢٨٢).
(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٤١٦).

أصبحت وأنا أنتظر المساء، قال: أملك طويل! قال الثاني: والله ما رفعت قدمي فانتظرت أن تقع اقترابًا للموت، قال: أملك طويل!! قالوا: وأنت؟ قال: والله ما خرج النفس لي إلا ظننت أنه لا يعود أبدًا»!!

وصلى بعض الصالحين فقدَّموا أحدهم، فقال له مالك بن دينار: «كيف أملك؟ قال: أظن أنني أموت بعد أسبوع، قالوا: لا تصلِّ بنا، تصلي بنا وأنت ترى أنك لا تموت إلا بعد أسبوع»؟! وهذا من ورعهم، وإلا فالأمر أوسع، فكيف بمن يخطط، وكيف بمن أمره وهمه في عقاره، وفي دوره ومنصبه، وفي جمع أمواله، وفي وظائفه ودنياه وشهواته وملاهيه، ولا يفكر في القدوم على الله، إنه مرض عظيم وخطر، وهذا موت القلب، فأحسن الله عزاء من هذا حاله في قلبه، إلا أن يتداركه الله برحمته، نسأل الله أن يوقظ قلوبنا للقائه ﷻ:

مثل لنفسك أيها المغرور يوم القيامة والسماء تمورُ

إلى أن يقول:

هذا بلا ذنبٍ يشيب لهوله كيف الذي مرت عليه دهورُ

سوف تنتظر هذا الكأس وتشربه.

ومما يخفف سكرات الموت أمور عند أهل العلم، منها:

١ - الإدمان على «لا إله إلا الله» في الحياة، وأوصيكم بهذه الكلمة ليلًا ونهارًا، صباحًا ومساءً، قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم، أكثروا من «لا إله إلا الله»، وأقول لكم: «لا إله إلا الله» نلقى بها الله، «لا إله إلا الله» نقضي بها أعمارنا، «لا إله إلا الله» ندخل بها قبورنا، «لا إله إلا الله» نقف بها في حشرنا، «لا إله إلا الله» يخفف بها عنا ونرحم بها بفضل الله وندخل بها جنات النعيم، فأكثروا من «لا إله إلا الله»؛ تدبرًا وذكرًا وتأملًا في معانيها، وعملًا بمقتضاها، قال بعض أهل العلم: «من أدمن هذه الكلمة خفف الله عليه سكرات الموت».

٢ - تخففوا من المظالم وأعيدوها إلى أصحابها، قال أهل العلم: «من

عقوبات المظالم اشتداد سكرات الموت على صاحب الموت حتى يغمه الموت ويأتيه الموت من كل مكان، فمن سفك دمًا، أو انتهك عرضًا، أو سبَّ مسلمًا، أو حلف على شيء من ماله، أو اعتدى وضرب، فليعد المظالم، فإنه لا حاكم إلا الواحد الأحد، يجمع الله يوم العرض الأكبر الأولين والآخرين في مكان يسمعهم الداعي وينفذهم البصر في صعيد واحد، فيقول: «أنا الملك، أنا الملك، أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»[1]، وجاء في الحديث أن الله يقول: «لمن الملك اليوم، لمن الملك اليوم، لمن الملك اليوم، فلا يجيبه مَلَك مقرب، ولا نبي مُرسَل، فيجيب نفسه بنفسه، لله الواحد القهار».

٣ ـ أن صاحب الصلاة محفوظ بإذن الله، ميسر عليه، لا تأتيه سكرات الموت الموجعة التي تأتي الفاجر، فالصلاة الصلاة، قال ثابت بن عبدالله بن الزبير: «اللهم أمتني ميتة حسنة، قالوا: كيف الميتة الحسنة؟ قال: أن يتوفاني ربي وأنا ساجد. فأذن المغرب وهو مريض، قال: اذهبوا بي إلى المسجد، فحملوه فلما صلى وأصبح في السجدة الأخيرة، ووجهه معفرٌ في التراب، ساجدًا يقول: سبحان ربي الأعلى»، و«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»[2]، وأشرف هيئة للمصلي وهو ساجد، وأشرف هيئة للإنسان هو السجود، وأرفع قيمة للعبد السجود، وهو في سجوده قبض الله روحه، فقلَّبوه فوجدوه قد مات، فالميتة الحسنة لمن حافظ على الصلاة جماعة إلا من عذرٍ شرعي؛ كمرض أو سفر.

وهذا من معالم وفاة الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

وأود التنبيه على مسألتين:

المسألة الأولى: أهمية الاستعداد للموت:

أما ترون أن الناس يُصرعون ذات اليمين وذات الشمال؟ أما ترون

---

(١) أخرجه البخاري (رقم ٤٨١٢).

(٢) أخرجه مسلم (رقم ٤٨٢).

كيف يذوقون الموت، منهم من يموت بقصف أو حريق، ومنهم من يموت ببرد أو رصاص أو أمراض مزمنة قاتلة فتاكة، فاستعدوا وأعدوا العدة، فقد سمعنا ورأينا وشاهدنا من العجائب العظيمة ما الله به عليم، ذكر الطنطاوي: أن رجلًا أرادت أمه أن تدفع عنه المنية، وهذه الحادثة وقعت في دمشق، وطلب الرجل من أمه أن توقظه إذا اقترب موعد إقلاع الطائرة، فرأت الأجواء ملبدة بالغيوم والبرق والرعد، فتركت ابنها في فراشه، فلما أقلعت الطائرة وارتحلت أتت إلى ابنها، وقد اطمأنت إلى أن الطائرة ذهبت، فأيقظته فوجدته قد مات في فراشه! فاعلموا أنه لا مفر من الموت: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨] يقول ذلك متهددًا أعداءه بالموت من اليهود فقال لهم إن كنتم أولياء لله، وأنكم أحبابه وعباده إذن تمنوا الموت حتى تنالوا الجوائز في الجنة، فما دام أنكم صالحون وأنصار الله فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، إن كنتم تريدون ثوابًا من الله، وكنتم أحبابًا لله، فإن الحبيب يحب لقاء الحبيب، لماذا لا تتمنون الموت؛ بأن تلقوا ربكم إن كنتم صادقين؟! ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦] فهؤلاء تهددهم الله بالموت، ومع ذلك لم يطلبوا الموت، وما تمنوا الموت، حتى كان اليهودي يسلم على اليهودي يقول: عم صباحًا ألف سنة، قال سبحانه: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦] فلو أنه عاش ألف سنة فإنه سوف ينال العذاب والعقوبة، قال أبو معاذ الرازي: «عجبت لمن يموت كيف يفرح، وعجبت لمن يفنى كيف يضحك»!!

المسألة الثانية: كيف نوفق بين كراهية الإنسان للموت والندب إلى حب لقاء الله:

يقول بعض العلماء: «كيف نجمع بين أن الإنسان يكره الموت، وبطبيعة العبد أنه يكره الموت، وحديث: «من أحب لقاء الله أحبَّ الله

لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[1]، والصحيح في الجمع أن يُقال: إن من عادة الإنسان أنه يكره الموت لكن إذا حصل ونزل به الموت والسكرات، فأحبَّ لقاء الله أحب الله لقاءه، أما إذا كره لقاء الله؛ فإن الله يكره لقاءه، فهذا هو الصحيح»، وأما قبل علامات الموت والمرض، فإن الإنسان معذور؛ لأن من طبيعة الإنسان أنه يحب البقاء والتعلق بالحياة، لكن إذا أحس بقدوم الأجل وبدنو النهاية، فأحب القدوم وارتاح، فإن الله ﷻ يحب لقاءه، وإذا كره، كره الله لقاءه.

أسأل الله لي ولكم توفيقًا ورشدًا، وهداية وسدادًا، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، وصلى الله وسلم على محمد النبي البشير النذير، والحمد لله رب العالمين.

(١) تقدم ٣٠٥.

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
توطئة	٧
العهد المكي	٩
مولد الهدى	١١
ذكر نسبه ﷺ:	١١
مكان الولادة:	١٢
قصة حمله ﷺ:	١٣
رضاعته عليه الصلاة والسلام:	١٧
حادثة شق الصدر:	٢٠
كفالة جده له:	٢٢
وقفات مع أبي طالب:	٢٥
وقفات مع حفظ الله لرسوله ﷺ:	٢٩
الأحداث في شبابه عليه الصلاة والسلام:	٣٠
حرب الفجار:	٣٠
حلف الفضول:	٣١
خاتم النبوة:	٣٤
رعيه ﷺ للغنم:	٣٤

الموضوع	الصفحة

عصمة الرسول ﷺ في شبابه : ٣٥
تنبيهات : ٣٦
حقوق الرسول ﷺ على الأمة : ٣٦
ومن حقوق الرسول ﷺ على الأمة : ٣٧
عرس النبوة ٣٩
الدروس والعبر من هذا الزواج المبارك : ٤٧
اتصال الأرض بالسماء ٤٩
حالة الناس قبل الرسالة : ٥٩
الله أعلم حيث يجعل رسالته : ٥٩
اللطائف من خلوته ﷺ : ٦١
كيف يأتي الوحي لرسول الله ﷺ؟ ٦٢
أمية الرسول ﷺ : ٦٨
﴿قم فأنذر﴾ ٧١
مع المعاناة يأتي العوض : ٨٦
براهين النبوة ٩١
رحلة الطائف ١٠٩
إلى سدرة المنتهى ١١٩
حديث الهجرة ١٣١

العهد المدني ١٤٥

بدر ١٤٧
دروس وعبر من غزوة بدر : ١٦٣
من أقوال أهل العلم في بدر : ١٦٥
أحد ١٦٧
أحكام وعبر من غزوة أحد : ١٨٠
الأحزاب ١٨٩

الموضوع	الصفحة
دروس وعبر من غزوة الأحزاب :	١٩٩
الحديبية	٢٠٣
الدروس والعبر من قصة الحديبية :	٢١٤
مؤتة	٢١٩
دروس من معركة مؤتة :	٢٢٩
فتح مكة	٢٣١
الجيش الإسلامي يتحرك نحو مكة :	٢٣٦
دروس من فتح مكة :	٢٤٢
يوم حنين	٢٤٣
غنائم حنين :	٢٤٨
وفي هذه الغزوة فوائد :	٢٥٤
تبوك	٢٥٩
الوفود	٢٧٧
﴿ إنك ميت ﴾	٢٩٥
دروس من قصة وفاة رسول الله ﷺ :	٣١٢